# كلمة العدد

بقلم : الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة

ظهر في الآونة الأخيرة إقبال ملحوظ من الكثيرين على الكتابة في تاريخ المنطقة . وهو اتجاه محمود تمنيناه طويلا ودعونا اليه كثيرا . هذه الكتابات إما تأخذ شكل رسائل جامعية أو أبحاث في الدوريات أو الصحف أو المجلات ولكن اذا كان هذا الاقبال اتجاهاً مطلوباً فإن ترشيده وتوجيه خطاه أصبح مطلوبا بصورة اكبر . ذلك لما لوحظ على معظم هذه الكتابات -وليس كلها- من اتجاه الى النقل لا النقد والى التسجيل لا التحليل . خاصة والكثير من المصادر التي يعتمد عليها هؤلاء الباحثون . للمؤرخين عليها كثير من التحفظات والاعتراضات . لقد لوحظ حتى في بعض الرسائل الجامعية أن الباحث يطرح موضوعا ما ثم يبدأ في كل فصل من فصول بحثه في حشد نصوص لما قال كتاب بعينهم لا يتغيرون إلا فيما ندر وفي مقدمتهم لوريمر ثم تقارير أو كتابات المعتمدين وغير البريطانيين وغير البريطانيين في المنطقة خلال فترة البحث ثم يبني أحكامه ونتائجه على أساس هذه النصوص . وذلك قد يكون مقبولا فيما لو كانت هذه الكتابات مبرأة من النقص أو الهوى ولكن الكثيرين الآن يطالبون بطرح هذه المصادر نفسها للتحليل وتصحيح ما جاء بها من أخطاء وهو كثير . لقد ضربنا من قبل بعض الأمثلة لما وقع فيه الكتاب الأجانب من أخطاء نتيجة لاختلاف البيئة والطباع والظروف والتقاليد . وقلنا إن بعض الكتاب الأجانب كانوا يحكمون على شخص ما بأنه زير نساء ذلك لأنهم وجدوه متزوجا من أربع وهم لايدركون بالطبع أن الزواج من أربع مباح في الشريعة الاسلامية وأن الزواج في المنطقة يتم لأسباب أخرى آخرها الجنس . فالزواج يتم من أجل دعم تحالف سياسي مع قبيلة أخرى أو لتكريم سيدة مات زوجها وليس هناك من هو كفء لها وغيرها من الاسباب . وهم قد

يصفون شخصا ما بأنه شديد الاسراف لأنه ذبح لهم عدداً من الخراف وأنه بهذا التصرف انما يؤكد خضوعه للدولة التي يمثلها هذا الضيف ويفوتهم في ذلك أن الكرم عاده راسخة القدم في المنطقة وأن العربي يذبح آخر وأعز ماديه لاكرام ضيف قد لا يعرفه أو لا يعرف ما جاء من أجله ويفوتهم أيضا أن المبالغة في اكرام الضيف ليست تعبيرا عن قيمة الضيف بقدر ماهي تعبير عن قيمة المضيف ذلك لأن الأمر يحدث على العكس من ذلك في أوربا وغيرها من الأمثلة وهم يرسمون هذه الشخصية اعتماداً على استنتاجات خاطئة جاءت نتيجة فهم خاطيء لتقاليد المنطقة وظروفها فالحرب في المنطقة قد تحدث نتيجة صلة رحم أو دفاعاً عن الكبرياء أو التزاماً بكلمة شرف وهي كلها اسباب لا يستطيع العقل الاوروبي ان يستوعبها وإنما كان يلتمس لها اسباباً من فهمهم هم للأمور . هذه الاحكام أو النتائج يأخذها الباحث اليوم ويبني عليها هو الاخر احكامه ونتائجه ويجر الخطأ الى خطأ أفدح .

اننا لا نصادر على احد وانما ننبه فقط الى ان كتابة التاريخ أمر صعب وهي في منطقة تندر فيها المصادر المحلية أكثر صعوبة وننبه أيضاً الى ان التاريخ لم يكن في يوم من الايام من عمل الهواة وانما كان له دائماً متخصصوه الذين يحيطون بكل أصوله وقواعده . وهو اليوم يجب الا يكون تسلية الهواة . حقيقة ان مكتباتنا تشكو كثيراً من نقص الكتابات التاريخية بأقلام الباحثين المحليين ولكننا لا نريد لهذه المكتبات ان تمتليء بغثاء يضر اكثر مما ينفع ويسيء الى الحقيقة التي هي ضالة الجميع . ثم اننا لا نريد لبعض الجهود الصادقة التي يبذلها بعض الباحثين ان تضيع وسط ركام من السطحية نحن في غنى عنه ولسنا في حاجة اليه . اننا نريد لهذا السباق ولهذا الاقبال ان يسير على الطريق الصحيح والا كنا كالمنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقي . أو كنا كمن يقفز في الهواء يرهق ساقيه دون ان يقطع خطوة واحدة الى الامام . ان على المنافذ التي يتسرب منها هذا الانتاج الى السوق ان تكون اكثر حذراً وان تدقق بصورة اكبر فيما يكتب وفيما يجاز . فإن التاريخ لا يرحم وانتاج اليوم سوف يمثل أمام محكمة التاريخ في مستقبل الايام وسوف يتم تحليله وتقويمه والحكم عليه .

والله ولي التوفيق :

عبدالله بن خالد آل خليفة



# وثائق القلعة

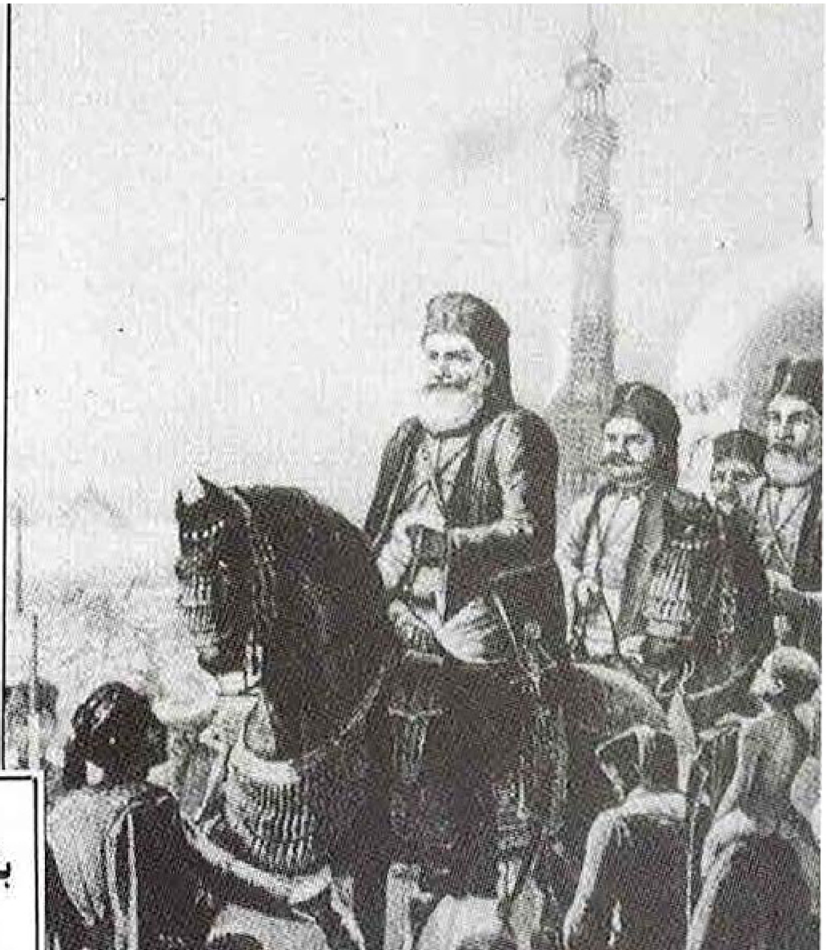
# محمد علي في الجزيرة العربية وعلاقاته بالخليج العربي

# ١٨٠٧ - ١٨٤٢



في عام ١٩٧٢ ، ولمدة ثلاث سنوات ، استطاع مركز الوثائق والدراسات في أبوظبي الحصول على نسخة كاملة لمجموعة وثائق حملة محمد علي ونشاطه في الجزيرة العربية بين عام ١٨١١ وعام ١٨٤٠ من دار الوثائق القومية بالقاهرة . وتعرف هذه المجموعة من الوثائق باسم وثائق القلعة لأنها كانت محفوظة في قلعة محمد علي بالقاهرة . ومنذ عام ١٩٧٧ قام قسم الوثائق العثمانية بفهرسة وتلخيص هذه الوثائق على كارتات .

ومن حسن الحظ أن أغلب هذه الوثائق العثمانية مترجم الى اللغة العربية . كما أنها تحوى الكثير من الرسائل العربية بين محمد على وحكام امارات الخليج وسلطنة عمان . وقد استفاد من هذه الوثائق بالمركز العديد من طلاب الماجستير والدكتوراة وخاصة طلاب وطالبات وأساتذة المملكة العربية السعودية . كما قدم المركز لكثير من مؤسسات ومراكز




**بقلم : الدكتور**

**محمد مرسي**

**عبدالله**

**«ابوظبي»**


الخليج العربي الكثير من نسخ هذه الوثائق .

ان هذه الدراسة التي أقدمها عن محتويات هذه الوثائق والموضوعات العامة التي شملتها تعتمد على مقدمة كتالوج هذه الوثائق الذي أعده قسم الوثائق العثمانية في المركز . ومع أن نشاط محمد على العسكري قد بدأ في الحجاز بحملة ابنه طوسون عام ١٨١١ ، الا أن أقدم وثيقة في هذه المجموعة تبدأ عام ١٨٠٧ .

في منتصف القرن الثامن عشر

الميلادي (منتصف القرن الثاني عشر الهجري) قام الشيخ محمد بن عبدالوهاب بحركة اصلاحية غيرت معالم الحياة السياسية والدينية في الجزيرة العربية . وقد أطلق خصومه اسمه عليها فلقبت عند أعدائها باسم الحركة الوهابية . ونحن نعلم أن عقيدة الحركة الاصلاحية تنتسب الى طريق أهل السلف ، الذين عرفوا بأهل السنة والجماعة . وهم يتبعون في الأحكام مذهب الامام أحمد بن حنبل . وقد ركز الشيخ محمد بن عبدالوهاب في حركته الاصلاحية على التوحيد .

وتبدأ وثائق القلعة كما ذكرنا عام ١٨٠٧ بعد دخول السلفيين الى مكة والمدينة . وهرب الشريف غالب من الحجاز ، واثارته رجال الدولة العثمانية ضد السعوديين . كما أن منع المحمل السنوي والكسوة التي كان يرسلها محمد على كتقليد قديم الى أرض الحجاز في موسم الحج قد أثار علماء الحجاز وعلماء مصر . وأصبح هناك جو عدائى ضد رجال الحركة السلفية . وهذا ما سنلمسه في أثناء قراءتنا لهذه الوثائق .

وقد أطلق رجال الدولة العثمانية وحكومة محمد علي في مصر على تعاليم الشيخ محمد بن عبدالوهاب الوهابية غمزا لها كبدعة جديدة خارجة عن تعاليم الدين الاسلامي . ولكن علماء معاصرين له في العراق والشام واليمن رأوا في هذا الوقت المبكر في تعاليم الشيخ محمد بن عبدالوهاب إحياء للكتاب والسنة . ويستنكر رجال الحركة السلفية هذه التسمية . ويسمون أنفسهم المسلمين وأهل الاسلام وأهل الدين الحق . وأطلقوا على من اعتنق مبادئهم «الداخلون في الاسلام» ولقد وصف حسين بن غنام قتال جماعته لاعدائهم بالغزوات وسمى كتابة «روضة الأفكار والافهام لمرتاد حال الامام وتعداد غزوات ذوى الاسلام» .

ولقد واجه السلفيون غربى الدرعية عاصمتهم امارة الاشراف في الحجاز . وكان الحجاز تابعا اسميا للدولة العثمانية ، بينما قام بادارته الحقيقية الاشراف الذين كانوا يعتبرون أنفسهم سادة المناطق الداخلية بالجزيرة . وقد عاصر اشتباك الدولة السعودية الأولى مع الاشراف الشريف غالب بن مساعد الذى امتد حكمه من عام ١٧٨٨ وحتى عام ١٨١٣ . وكان للأمير غالب بن مساعد بسبب مكانته الدينية دور خطير في مقاومة السعوديين ، اذ كان دائم الاتصال بالباب العالي ومحمد على في مصر يثيرهما ضد الحركة السلفية .

## مجموعة وثائق بدايات الحملة :

تبدأ هذه الوثائق برسالة من

«(محمد علي) الى أعتاب ولي النعم ، مؤرخة سنة ١٢٢٢ (١٨٠٧) حول عدم تمكنه من ارسال الصرة (عائدات الأوقاف) ، والكسوة والوظائف (المرتبات) المعدة من طرفه الى الحرمين الشريفين ، بعد اصدار علماء مصر وأشرافها فتوى بذلك ، لوقوعها في أيدي رؤساء مكة في السنة الماضية ، واحراق الخارجي (هكذا كان يسمي محمد علي رجال الحركة الاصلاحية السلفية في الجزيرة وقتذاك) محمل السعادة ، ونفي مستخدمي الدولة العلية ، وقضاة الاسلام ، وشيخ الحرم النبوي وسائر المقيمين في تلك الجهات الى مصر» .

فعندما وصل محمد علي الى منصب ولاية مصر ، كان نفوذ الدولة السعودية الأولى قد امتد ليشمل الحجاز ، وأصبح الحرمان الشريفان في حوزة آل سعود ، مما أزعج السلطان العثماني ، خاصة بعد فشل واليي كل من بغداد ودمشق في القضاء على الحركة السلفية ، فأرسل الباب العالي سنة ١٢٢٢ (١٨٠٧) أمرا الى محمد علي ، والي مصر ، بارسال حملة الى الحجاز لاسترداد الحرمين الشريفين من أيدي رجال الحركة الاصلاحية السلفية الذين سماهم وقتذاك ظلما (الخوارج الوهابيين) .

وفي مجموعة هذه الوثائق نرى كيف اتبع الباشا أسلوب التريث والمماطلة قبل بدئه تنفيذ الأمر رغم وعوده المتكررة لأسباب عديدة منها : سوء الأحوال الاقتصادية في مصر ، وتهديد الأمراء المماليك لولايته ، وألح في طلب عزل سليمان باشا عن ايالة الشام واسناد حكمها اليه ، فأكد الباب العالي له أن الاستجابة لمطالبه رهينة بتنفيذ هذه المهمة .

## أخبار أحمد طوسون باشا :

في مجموعة هذه الوثائق نجد أخبار تعيين محمد علي نجله أحمد طوسون باشا قائدا عاما لحملة الحجاز ، وأرسل أول حملة بحرية الى الحجاز في ١٩ رجب ١٢٢٦ (١٩ اغسطس/آب ١٨١١م) ، تبعتها حملة برية بقيادة طوسون في غرة شهر رمضان سنة ١٢٢٦ (١٩ سبتمبر/ أيلول ١٨١١) ، وفشلت قواته في احتلال المدينة المنورة ، وانهزمت أمام قوات عبدالله بن سعود عند مضيق الجديدة والصفره . وبعد ارسال الامدادات من مصر اليه ، واخضاع قبيلة حرب . تقدمت قوات طوسون نحو المدينة المنورة ، واقتحمت قلعتها في شهر ذي القعدة سنة ١٢٢٧ (نوفمبر / تشرين الثاني ١٨١٢) ، وتوجهت قواته البرية والبحرية الى جدة ودخلت مكة

المكرمة في ٢٠ محرم ١٢٢٨ ١٢٢٨ (٢٣ يناير / كانون الثاني ١٨١٣)، وسقطت الطائف وسيق عثمان المضايفي، حمو الشريف غالب بن مساعد، أمير مكة، مكبلا بالأصفاد الى مصر، وأرسل أهل الحجاز وعلماؤها، الى محمد علي، يبلغونه أنباء انتصار نجله.

وهنا نقرأ في هذه المجموعة كيف تلقى محمد علي، أوامر مشددة من الباب العالي لقيادة العمليات الحربية بنفسه، للقضاء على الدرعية، فغادر مصر بصحبة عشرين ألف (٢٠,٠٠٠) جندي من الأتراك والمغاربة الى الحجاز في ١٥ شوال سنة ١٢٢٨ (١١ أكتوبر / تشرين الأول ١٨١٣)، فاستقبله الشريف غالب، أمير مكة المكرمة وصحبه الى مكة حيث قام محمد علي بنفيه الى سالونيك رغم تقديمه يد العون لقوات طوسون، وتمكن سنة ١٢٣٠ (١٨١٤)، عقب وفاة الامام سعود بن عبدالعزيز، من احتلال تربة، وأخضع قبائل زهران، وأعدم أميرها بخروش، واحتل ميناء القنفذة، وأخذ طامي بن شعيب، أمير عسير، أسيرا، ثم عاد الى مكة المكرمة ومنها الى مصر في ١٥ رجب سنة ١٢٣٠ (٢٣ يونيه / ـ حزيران ١٨١٥). ونقرأ في هذه الوثائق أيضا أنباء مقاومة الامام عبدالله بن سعود لحملة طوسون بعد أن بلغته أخبارها من أهالي قرى القصيم في نجد، فأسرع اليه واحتدم القتال بين الطرفين، فلجأ طوسون الى عقد صلح مع الامام المذكور، والذى رغب فيه حقنا للدماء، وأرسل وفدا الى محمد علي لعرض رسائل الصلح، وعاد طوسون الى مصر.

## وقائع ابراهيم باشا وسقوط الدرعية:

هنا نقرأ كيف عبأ محمد علي حملة بحرية بقيادة (نجله) ابراهيم باشا في ١١ رمضان سنة ١٢٣١ (٥ أغسطس / آب ١٨١٦) لفتح الدرعية، تلبية لطلب الشريف يحيى بن سرور أمير مكة، لقيام الامام عبدالله بن سعود بتحريض القبائل العربية في أطراف المدينة المنورة. فوصلت الحملة اليها، واتخذ ابراهيم باشا من الحناكية في ٧ محرم سنة ١٢٣٢ (٢٧ نوفمبر / تشرين الثاني ١٨١٦) معسكرا له. وسار الى الرس بعد نحو ستة أشهر قضاها في استمالة العربان، فحاصر قلعتها في ٢٥ شعبان ١٢٣٢ (١٠ يولية / تموز ١٨١٧) نحو ثلاثة أشهر ثم فتحها، وسقطت قريتا عنيزة وبريدة، واستسلم أهل شقرا في ١٤ ربيع الأول سنة ١٢٣٣ (٢٢ يناير / كانون

الثاني ١٨١٨) بعد معركة ضارية واستولى على قلعة ضرما حربا ، وأرسل آذان ألف وخمسمائة (١٥٠٠) قتيل سلفى الى مصر ، وقصد الدرعية في غرة جمادى الأولى سنة ١٢٣٣ (١٩ مارس / آذار ١٨١٨) وفي حوزته أكثر من ستين ألف (٦٠,٠٠٠) قنبلة ، فاشتبكت عساكر الفرسان والمشاة مع قوات الامام عبدالله بن سعود ، وحاصرت العساكر قلعة الدرعية ، وفي ٥ ذي القعدة سنة ١٢٣٠ (٦ سبتمبر / أيلول ١٨١٨) هاجمت القلعة وفتحتها بعد مقتل فيصل وتركي أخوي الامام عبدالله ، وألف وأربعمائة (١٤٠٠) وهابي ، وأرسل عبدالله بن سعود الى مصر في شهر محرم سنة ١٢٣٤ (أكتوبر / تشرين الأول ١٨١٨) ، حيث أعدم في استانبول ، وقام ابراهيم باشا بهدم القلاع والقصور في الدرعية .

وفي هذه المجموعة من الوثائق أخبار رحلة كابتن سادلير الى ابراهيم باشا في المدينة المنورة ، تهنئه على انتصاراته ، وتطلب مساعدتها لمحاربة القواسم في سواحل عمان ، غير أن الباشا عاد الى مصر في ١٩ صفر سنة ١٢٣٥ / (٧ ديسمبر / كانون الأول ١٨١٩) .

## أخبار الامام تركي بن عبدالله وابنه فيصل :

تحكى مجموعة هذه الوثائق أخبار استرجاع النفوذ السعودي بعودة تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود الى نجد في أوائل سنة ١٢٤٠ (أواخر ١٨٢٤) ، بعد تمكنه من قتل محمد بن مشاري بن معمر وأبيه ، لتسليم مشاري بن سعود الى القائد التركي خليل أغا ، ولفشل قوات محمد علي في القضاء على نفوذه الذي امتد الى شرقي شبه الجزيرة العربية . وجرت اتصالات بينه وبين كل من والي بغداد ، وزعيم الثورة العسيرية ، سعيد بن مسلط ، الذي شغل محمد علي بأمرها وبحروبه في جزر البحر المتوسط ، وشبه جزيرة الموره ، وتطلعه الى بلاد الشام ، فأثر اتباع أسلوب المهادنة نحوه .

وابان تسلم الامام فيصل بن تركي سدة الحكم في نجد سنة ١٢٥٠ (١٨٣٤) ، تحكى لنا هذه الوثائق كيف عاود محمد علي التفكير في توسيع رقعة نفوذة لتشمل شبه الجزيرة العربية بأكملها ، عقب نجاحه في الاستيلاء على بلاد الشام ، واتخذ من وجوب تنصيب خالد بن سعود ، الذى تربى في مصر ، حاكما على نجد ، ذريعة لمد نفوذه الى ذلك الاقليم ،

وفشلت محاولات اقامة صلح بين فيصل وخالد ، ورغم وقوف الدولة العثمانية الى جانب فيصل بواسطة والي بغداد ، الا أنه اتبع اسلوب المهادنة ، وتمكن القائد خورشيد باشا ، بعد انزال فيصل الهزيمة بحملة اسماعيل بك ، من محاصرته في الدلم ، فاستسلم الامام فيصل حقنا للدماء ، وسافر مع بعض أفراد أسرته الى مصر في ٢ شوال سنة ١٢٥٤ (١٩ ديسمبر / كانون الاول ١٨٣٨) .

## أخبار اليمن في وثائق القلعة :

وعلى صعيد آخر ، عاود محمد علي نشاطه في اليمن في الثلاثينات من القرن التاسع عشر ، لفشله في احباط الثورة العسيرية ، وتمكن الانجليز من السيطرة على ميناء مخا «مفتاح اليمن» ، واثارة تركجه بيلمز ، زعيم ثورة الجند غير النظاميين ، لشيوخ اليمن ، فتمكنت قواته من الاستيلاء على بعض الأماكن في اليمن منذ سنة ١٢٥٠ (١٨٣٥) ، غير أن بريطانيا وقفت في وجه امتداد نفوذه الى اليمن ، واستطاعت في غرة ذي القعدة سنة ١٢٥٤ (١٦ يناير ١٨٣٩) من احتلال عدن ، وأرسل هنز ، المعتمد السياسي البريطاني الى امام صنعاء لتحويل تجارة البن اليمني من مخا الى هذا الميناء ، وبموجب معاهدة لندن (التي سيرد ذكرها) سحب محمد علي قواته من اليمن .

## نشاط خورشيد باشا في منطقة الخليج :

امتد نشاط خورشيد باشا الى شرقي شبه الجزيرة العربية ، وشمال الخليج العربي ، واتخذ من الاحساء والقطيف سنة ١٢٥٤ (١٨٣٨) مركزا لمزاولة نشاطه بواسطة وكيله في البحرين والساحل العماني ومسقط ، وفي الكويت والعراق . وقد شملت مجموعة وثائق نشاط خورشيد باشا في الخليج معلومات هامة عن :

## الاحساء والقطيف :

خشي أهالي الاحساء (بنو خالد) عودة النفوذ السعودي ، بعد رحيل ابراهيم باشا من نجد الى المدينة المنورة ، واخضاعهم لحكمه ، فعملوا عل مقاومته بمساندة السلطان العثماني لهم ، الذي أصدر أوامره الى محمد علي باشا باتخاذ الاجراءات الحربية السريعة للقضاء على عودة نفوذ آل سعود الى نجد ، فبعث الى ابراهيم باشا في المدينة المنورة طالبا منه اتخاذ «التداركات الكلية» ، غير أنه فشل في مهمته ، وتمكن الامام تركي بن عبدالله من توطيد نفوذه في نجد والاحساء . وعقب نجاح القائد

العام لنجد ، خورشد باشا ، في مهمة القضاء على حكم الامام فيصل بن تركي سنة ١٢٥٤ (١٨٣٨) ، بسط نفوذه على الاحساء والقطيف ، واتخذ من الاحساء مركزا لتحرك قواته نحو شرق الجزيرة العربية وشمال الخليج العربي ، بواسطة وكيله في المنطقة محمد رفعت ، الذى أدرك أهمية السيطرة عليها بعد قيامه بدراسة أحوالها وموانئها ، فسارعت بريطانيا الى الاستيلاء على جزيرة خارج سنة ١٢٥٤ (١٨٣٨) .

## البحـرين :

تعود أهمية البحرين الى الناحيتين الاستراتيجية والاقتصادية ، باعتبارها ميناء للحسا والقطيف ، ومركزا لشراء الغلال ، كما أوضح ذلك محمد رفعت في تقاريره الى خورشيد باشا ، فلجأ الى اجراء مفاوضات مع الشيخ عبدالله بن أحمد آل خليفة ، أمير البحرين ، أسفرت عن عقد «معاهدة اتفاق» بين الجانبين سنة ١٢٥٥ (١٨٣٩) ، على أن تدفع البحرين زكاة قدرها ثلاثة آلاف (٣٠٠٠) ريال الى خورشيد باشا كسابق عهدها زمن آل سعود ، وأرسل هينل ، المقيم البريطاني في بوشهر أثناء وجوده في قطر ، عدة رسائل الى أمير البحرين حول مخالفة الاتفاق لارتباطاته مع الانجليز ، وحرر رسائل مماثلة الى خورشيد باشا حذره فيها من التدخل في أمور البحرين ، ولم تلق رسائله أذنا صاغية ، وجرت محادثات بين شيخ البحرين ومحمد رفعت في ٢٣ صفر ١٢٥٥ (٨ مايو / أيار ١٨٣٩) في قلعة شيخ البحرين في خورحسان آحد بلدان ساحل قطر ، أسفرت عن توثيق ذلك الاتفاق ، ودارت اتصالات بين كل من خورشيد باشا ، والمقيم البريطاني ، حول معارضة بريطانيا لامتداد نفوذه الى البحرين أو التعرض للساحل العماني الذي أنذر شيوخه ، مما أثار خوف أهل البحرين .

## البريمي والساحل المتصالح :

شهدت منطقة الساحل المتصالح في أعقاب سقوط الدرعية ، عملا حربيا قامت به بريطانيا ضد القواسم ، ونجح قائد حملتها الجنرال كير ، في احتلال رأس الخيمة سنة ١٢٣٥ (١٨١٩) وبعد تمكن خورشيد باشا من بسط نفوذه على الاحساء والقطيف ، وعقد وكيله الاتفاق مع أمير البحرين ، الشيخ عبدالله بن أحمد آل خليفة ، تطلع الى بسط نفوذه على منطقة البريمي وامارات الساحل العماني ، وأرسل سعد بن مطلق المطيري الى شيوخ الامارات حاملا

اليهم رسائل خورشيد باشا حول تنصيبه أميرا في البريمي من قبل خالد بن سعود ، بدلا من حمد بن يحيى ، والتقى عند رأس الخيمة بحمد ، وأخبره باخراجه من قبل قبيلة نعيم من قصر البريمي ، فاتجه سعد الى الشارقة سنة ١٢٥٥ (١٨٣٩) ، فاستقبله الشيخ سلطان بن صقر ، حاكم رأس الخيمة ، ووضع تحت امرته بيتا حصينا وقلعة ليقيم فيها ، وأرسل الى خورشيد طالبا منه تزويده بقوة من فداوية الفرسان والمشاة وحينما وصلت الشيخ سلطان بن صقر الامدادات ، وبضغط من المقيم البريطاني وجه الشيخ رسالة الى سعد ضمنها الاشارة الى وجوب مغادرته بناء على طلب هينل ، لاخلال ذلك بشروط معاهدة الصلح المبرمة بين مشايخ عمان وسركار (الحاكم العام) الانجليزي ، فانسحب سعد الى الاحساء سنة ١٢٥٥ (١٨٣٩) .

## مسقط :

سادت العلاقة الودية بين كل من محمد علي باشا ، وسعيد بن سلطان امام مسقط ، الذي تعاون مع الانجليز في القضاء على تمرد قبيلة بني بوعلي في أرض - جعلان سنة ١٢٣٦ (١٨٢١) ، وأكد الامام في رسائله الثلاث المرسلة للباشا والى مصر ، سنة ١٢٥٥ (١٨٣٩) محافظته على العلاقة القائمة بينهما ، وقد عمد المقيم البريطاني هينل ، الى تحرير رسائل تحذير الى خورشيد باشا من التدخل في أمور عمان ، أو أرسال سعد بن مطلق المطيري الى منطقة البريمي ، وطلب من شيخ رأس الخيمة ، الشيخ سلطان بن صقر ، اعادة سعد الى القطيف بحرا .

## الكويت والبصرة :

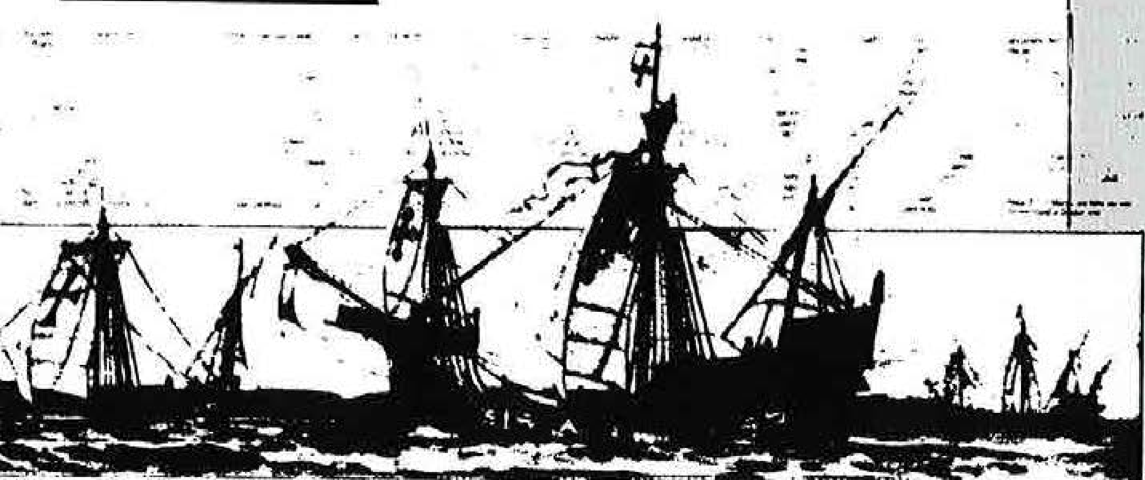
قام محمد علي بمحاولة للسيطرة على منطقة شمال الخليج العربي ، الكويت والبصرة ، لأهميتها الاقتصادية ، واعتبارها مركز تموين لمنطقة نجد ، اضافة الى أهمية موقعها التجاري ، وعندما بدأت تسوء العلاقات بين محمد علي باشا وبين الدولة العثمانية ، فكر في غزو شمال الخليج العربي بل والعراق ، لابعاد النفوذ العثماني عن تلك المنطقة ، وأرسل عيونه منذ سنة ١٢٣٧ (١٨٢٢) لتتبع أخبار البصرة وبغداد ، اللتين أصبحتا تمثلان مركزا مضادا لتحركاته في شبه الجزيرة العربية ، فمنذ وصول قوات خورشيد باشا الى منطقة الاحساء سنة ١٢٥٤ / (١٨٣٨) ، أرسل الى الكويت محمد أفندي ، وكيلا مصريا ، لشراء الغلال اللازم لقوات نجد ،

ولتزويده بالأنباء ، وصار نقل الغلال الى ميناء القطيف ، وطلب خورشيد باشا اصدار الأوامر اليه لتنفيذ خطته التوسعية بعد التحاق بعض القوات التركية ، الفارة من البصرة الى الكويت ، بقوات خورشيد باشا في نجد ، بصحبة الملازم محمد أفندي ، بعد ما قدم الشيخ جابر بن آل صباح ، أمير الكويت ، يد العون اليها ، ورغبة أهل العراق في مساعدة قوات خورشيد فور وصولها اليهم . للخلاص مما يعانون من الظلم والاستبداد ، كما جاء في تقرير الشيخ حمود بن جسار ، أحد علماء نجد ، المقيم في بغداد ، فتصدت له الدول الكبرى وأرغمته طبقا لمعاهدة لندن في ١٥ جمادى الأولى سنة ١٢٥٦ (١٨٤٠) على سحب قواته من جميع مناطق شبة الجزيرة العربية ، فأمر محمد علي خورشيد باشا باغلاق باب مصروفات هذا المشروع ، وسحب قواته والعودة بها الى مصر بعد تسليم زمام الأمور الى أمير نجد ، خالد بن سعود .

◇◆◇

# البرتغاليون في شرق أفريقيا وطردهم منه

الدكتور
شوقي عطا الله



**افتتح البرتغال صفحة الاستعمار الاوروبى فى العصر الحديث بنزولهم فى ساحل بلاد المغرب (مراكش) واحتلالهم قلعة سبتة (Ceuta) فى أغسطس سنة ١٤١٥، ومن هذا التاريخ الى اليوم لم تعد سبتة الى حظيرة الوطن الأم، ولذا يقول الضابط البرتغالي فاسكو دى كارافللو «ان هذا الحدث الخطير والعظيم اجدر بأن يعتبر بداية للعصور الحديثة من ان يتخذ سقوط القسطنطينية فى يد المسلمين فى عام ١٤٥٣ بداية لها»(١)**

**ولم تكتف البرتغال بالاستيلاء على سبتة فبعد أن ثبتوا اقدامهم فيها وحصنوها اتجهت انظارهم الى طنجة، وتعددت محاولاتهم للاستيلاء عليها، وقد نجحوا بعد ذلك فى الاستيلاء على العديد من الثغور المغربية مثل العرائش، والقصر الصغير، واصيلا وأسفي وأزمور بل اعدوا حملة للزحف على مراكش على أن الوجود البرتغالى فى المغرب صُفى فى منتصف القرن الخامس عشر(٢)**

## اولا ـ البرتغال يتابعون فتوحهم فى أفريقيا :

تابع البرتغال فتوحهم الاستعمارية فى القارة الافريقية متتبعين الشاطىء الغربى للقارة.

ومن أهم الدوافع التى دفعت البرتغال وهى مملكة أوروبية صغيرة حديثة التكوين كانت خاضعة للنفوذ العربى فى الاندلس ولم تستكمل استقلالها إلا فى القرن الثالث عشر ـ هو نجاح (البرتغال) فى طرد العرب فاندفعوا مع موجة الحماس الديني فى تتبعهم للعرب الفارين الى ثغور شمال افريقيا، كما ان قرب البرتغال نسبياً من جزر وسواحل افريقيا الشمالية والغربية شجعهم على الاتجاه لهذه السواحل قبل غيرهم من الأوروبيين .

وقد لعب الأمير هنرى الملاح الذى حكم البرتغال فيما بين ١٣٩٤ ـ ١٤٦٠ دوراً خاصاً فى الحملات البحرية البرتغالية لشاطىء افريقيا الشمالية والغربية .

وواصل البرتغال نشاطهم الكشفى والاستعمارى فاحتلوا جزر كناريا (Canary Is.) ، ماديرا (Madera) ، وازورس (Azores) ، ووصلوا للراس الأبيض ثم مصب السنغال وتتبعوا الساحل الغربي للقارة صوب الجنوب فنجح الكابتن ديجوكام Diego Cam فى عام ١٤٨٤ فى الوصول الى مصب نهر الكنغو، وأعقب ذلك رحلات بارثلوميو دياز Bartholomeu Diaz فى عام ١٤٨٦ التى نجحت فى الوصول الى الطرف الجنوبى من القارة وأطلق عليه فى المبدأ رأس العواصف(٢) .

واهتم البرتغال بانشاء القواعد

والحصون قرب المناطق الهامة على الساحل الغربى للقارة وفى الجزر القريبة فأقاموا حصن ارجيوم (Argium) مقابل الرأس الأبيض وسانتياجو (Santiugo) قرب الرأس الأخضر، وسان جورج دامينا (San Jorge Demina) مقابل المنطقة التى عرفت بساحل الذهب وساوتومى (Sao Tome) فى الجزيرة الهامة التى عرفت بهذا الاسم والتى اصبحت نقطة ارتكاز هامة لهم فى الطريق لأقصى جنوب القارة وكذلك الطريق المؤدى للبرازيل .

## ثانيا ـ وصول البرتغال الى شرق أفريقيا والنتائج التى ترتبت على ذلك :

فى سنة ١٤٨٧ وصل لمصر رحالة برتغالى كان يعمل لحساب ملك البرتغال هوبيدرو دى كوفيلهام Pedro de Covilham ثم سافر هذا الرحالة عن طريق البحر الاحمر لعدن والهند، وفى اثناء عودته زار اغلب المناطق العربية فى الساحل الشرقي لافريقيا فقد وصل جنوباً حتى سفالة Sofala ثم واصل رحلته شمالاً حتى عاد الى القاهرة وكانت رحلة هذا البرتغالى بالغة الاهمية فقد فتحت العيون الى اهمية المناطق العربية بشرق القارة كما ان معلوماته كانت اساسا للرحلات التي قام بها فيما بعد فاسكو داجاما Vasco Da Gama(٤).

ففى عام ١٤٩٧ قام فاسكو دا جاما برحلته الاولى فى اربع سفن فوصل الى نهاية القارة الافريقية وعبر رأس الرجاء الصالح الى ساحل افريقيا الشرقى وزار الامارات العربية هناك وتابع رحلته الى كاليكوت Calicut على الساحل الغربي للهند وفى عودته زار داجاما مرة اخرى الموانىء الهامة لشرق افريقيا وعاد الى لشبونة فى سبتمبر ١٩٤٩ فكأن رحلته استغرقت ثلاث سنوات .

وفى عام ١٥٠٢ قام داجاما برحلة ثانية للهند وفى طريقه نزل فى كلوه Kilwa وأجبر سلطانها تحت التهديد بإحراق المدينة ـ على الاعتراف بسيادة البرتغال ودفع جزية سنوية رمزاً لهذه التبعية .

وقد أصدر ملك البرتغال فى عام ١٥٠٤ قانوناً يحرم حمل الخرائط التى توضح طريق الملاحة الجديد المؤدى للهند، فجمعت الدولة الخرائط البحرية المتداولة وأعدمتها كما ان الاسطول البرتغالى كلف بتعقب أية سفينة تحاول شق طريقها بالقوة عبر هذا الطريق المحظور .

وفى عام ١٥٠٥ اتخذت البرتغال الاستعدادات لتثبيت اقدامها فى المناطق الاستراتيجية والتجارية الهامة بالساحل الشرقي للقارة والقضاء على نفوذ العرب التجاري والسياسي هناك. ولتحقيق هذا الهدف غادر لشبونة اسطول كبير من ثلاث وعشرين سفينة تحت قيادة فرانسيسكو دى الميدا (Francisco de Almeida) .

واستولى الاسطول البرتغالى على سفالة وحاصروا كلوه واستولوا عليها عنوة وعاثوا فى المدينة نهباً وسلباً وأقاموا حصناً فى مينائها به حامية لهم وانتقموا إنتقاماً وحشياً من أهل المدينة لمقاومتهم الباسلة للغزاة .

ثم تقدموا صوب ممبسا (Mombasa) وكانت فى ذلك الوقت مدينة عظيمة قدر

سكانها في ذلك الوقت بعشرة آلاف نسمة وقد قاوم سكانها من العرب والسواحيلية القوة الغازية مقاومة عنيفة ودافعوا عن كل شبر من أرض بلادهم حتى انتقل القتال للشوارع الضيقة لكن انتصرت اخيرا اسلحة الغزاة المتقدمة على بطولة المدافعين عن حقهم في الحياة الحرة، واشعل العدو في دور المدينة وحقولها النار انتقاماً من بطولة أهلها وساعدت شدة الرياح في ذلك الوقت على سرعة انتشار اللهب فأتت على كل شيء[٥].

وقد كتب حاكم المدينة المنكوبة الى زميله حاكم مالندى Mlindi يصف كيف وجدوا المدينة بعد عودتهم اليها بعد أن نهبها الغزاة البرتغاليون وتركوها للنيران فقال «إنهم لم يتركوا فيها أى كائن حى لا رجلاً ولا امرأة ولا صغيراً ولا كبيراً حتى الاطفال كل الذين فشلوا في الهرب قتلوا أو احرقوا» [٦].

وبسقوط وتخريب كلوه، وممباسا سقط عمودان من أهم الاعمدة التى كانت ترتكز عليها السيادة العربية في شرق افريقيا، وفي عام ١٥٠٦ عاود البرتغاليون الكرة فأرسلوا اسطولا كبيرا من اربعين سفينة لشرق افريقيا تحت قيادة البوكرك (Albuquerque) استولى على لاموو براوه، وعلى جزيرة سوقطره. وفي عام ١٥٠٧ سقطت موزمبيق (Mozambique) في يد القائد البرتغالي دوارت داميللو (Duarte de Mello) واهتم البرتغاليون بتحصينها وبنوا فيها معسكراً ومستشفى وكنيسة، ومنذ ذلك الوقت اتخذوها مركزاً رئيسياً لاشرافهم على مختلف أوجه النشاط في شرق القارة وفي سنة ١٥٠٩ عين البرتغال حاكماً عاماً لمستعمراتهم في شرق افريقيا فاتخذ موزمبيق مقراً رئيسياً له.

وهكذا في أقل من عشر سنوات حقق البرتغاليون حلمهم في شرق افريقيا وسقطت في ايديهم معظم المدن العربية الهامة على هذا الساحل.

ولم يكتف البرتغال بذلك بل اتجهوا لساحل الجزيرة العربية والخليج ليكملوا سيطرتهم على طرق التجارة والملاحة في هذه الجهات فهاجموا مسقط وهرمز وعدن وفرضوا سيطرتهم الكاملة على التجارة والملاحة في المحيط الهندى والطرق المؤدية اليه.

وهكذا ترتبت على كشف طريق رأس الرجاء الصالح نتائج هامة نجملها فيما يلى:

## ١ ـ نتائج سياسية:

افتتح الطريق امام البرتغال لشرق القارة الافريقية بل وبلاد الشرق التى كانوا يطمعون في غلاتها وثرواتها، وكانت الامارات العربية بساحل افريقيا الشرقى اكثر المناطق التى تأثرت بذلك.

فقد أصبحت للبرتغال السيادة في الطريق البحري المؤدى للشرق وقد حاولت الدولة المملوكية التى كان لها النفوذ في مصر والحجاز والشام وكانت تسيطر على تجارة الشرق التي تمر في طريقها لأوروبا بموانئها في مصر او الشام حاولت ان تتصدى لهذا الخطر البرتغالى وتحالف البنادقة مع المماليك للتصدى لهذه القوة المنافسة الجديدة. لكن انتصار الاسطول البرتغالى في موقعة ديو Diu البحرية في عام ١٥٠٩ حسم

الموقف لصالح البرتغال .

وأدى هذا الى أن اصبحت البرتغال رغم انها دولة اوروبية صغيرة ناشئة قوة سياسية يعتد بها .

وقد كان من أهداف البرتغال المعلنة الوصول الى الحبشة المملكة المسيحية التى كثر الحديث عنها فى اوروبا منذ قرون ولم يكن هناك خبر اكيد عن مكانها والطريق اليها ونجحت البرتغال فى تحقيق هذا الهدف وبدأت رسلهم وبعثاتهم تفد للحبشة وكان غرض البرتغال من اتصالهم باثيوبيا تطويق البلاد العربية بقوات مسيحية والقضاء على النشاط التجارى للعرب فى المحيط الهندى والبحار المحيطة به وكانت هذه التجارة بأرباحها والمكوس التى تجبى فى الموانىء على تجارة الشرق المارة لاوروبا هى مصدر ثروة وقوة البلاد العربية، وانتهى الامر بضعف دولة المماليك وسقوطها وحل العثمانيون محلهم باعتبارهم القوة الاسلامية الكبرى ودخلوا فى هذا الصراع مع البرتغال والاحباش[٧] .

وقد طال الصراع بين العثمانيين والقوى الاسلامية الاخرى من جهة وبين البرتغال والاحباش من جهة اخرى - ولا نريد ان نخوض فى تفاصيل هذا الصراع لكن نشير لبعض المعالم في هذا المجال .

## فمن صور الصراع البرتغالى العثماني :

حدث فى فترة حكم السلطان سليمان القانونى (١٥٢٠ - ١٥٦٦) أن ارسل عدة حملات بحرية لمقاتلة البرتغاليين فى البحار الشرقية واعادة السيادة للعرب فى هذه البحار وكانت هذه الحملات تُعد فى ميناء السويس المصرى وسعى الاتراك فى هذا المجال ايضاً للسيطرة على المنافذ العربية الواقعة على الخليج العربى وفى الطريق الحيوى الجديد للشرق .

واستمر النضال بين البرتغاليين والعثمانيين مدة طويلة دون طائل - فأرسل مراد الثالث القائد البحرى ميراك بك فى عام ١٥٨٨ بقوة لتخليص البلاد العربية بالساحل الافريقي الشرقي من سيطرة البرتغال ولمعاونة القوى الوطنية فى هذه البلاد فى مقاومتها للغزاة .

وقوبل القائد العثماني بالترحاب من سكان الامارات العربية السابقة فى مدغشقر وبراوة وقسمايو وغيرها من الموانىء العربية فقد نظروا اليه نظرتهم للمخلص من نير الاجنبى وفضلوا الخضوع للعثمانيين على الوقوع تحت نير البرتغال - لكن العثمانيين لم يستطيعوا ان يحتفظوا فى هذه البلاد بقوات تثبت سلطانهم وتحمى السكان من اغارات البرتغاليين المتكررة، فاستطاع البرتغاليون ان يستعيدوا سلطانهم وانتقموا من السكان الذين اظهروا ولاءهم للعثمانيين .

واستمر النضال بين البرتغال والعثمانيين واتخذ صورا متعددة منها ان الدولة العثمانية كانت تؤيد وتعاون الممالك الاسلامية المحيطة بهضبة اثيوبيا والتى سميت ممالك الطراز الاسلامى - بينما كانت البرتغال تؤيد مملكة اثيوبيا وتعينها على مهاجمة الممالك الاسلامية المحيطة بها - وظل هذا النضال حتى القرن السابع عشر اذ فترت الحمية فى الدولتين وضعفت قوتهما ولم يبق تحت السيادة العثمانية إلا بعض

الثغور كمصوع وكذلك اضطر البرتغاليون للتنازل عن مكانهم فى البحار الشرقية لمنافسيهم الهولنديين ثم الانجليز الذين احتلوا مكان هؤلاء وأولئك فى السيطرة على المحيط الهندى وطريق الرأس منذ أن تأسست شركة الهند الشرقية البريطانية سنة ١٦٠٠ وأخذت توجه نشاط الانجليز فى البحر الاحمر والخليج العربى[٨] .

## ٢ ـ نتائج اقتصادية :

كان الدافع الاقتصادى فى مقدمة الدوافع التى دفعت البرتغال فى جهودها لمتابعة الكشوف والاستعمار فى غرب القارة بهدف الوصول الى مصادر تجارة الشرق والتي كان يتحكم فيها العرب والطرق التى تسلكها الى اوروبا والتى كانت تتحكم فيها دولة المماليك .

وبعد أن حقق البرتغال حلمهم بوضع أيديهم على طريق التجارة بين الشرق والغرب احتكرت البرتغال تجارة الشرق والتجارة فى السلع الافريقية وفى مقدمتها الرقيق والذهب والفضة وأصبحت لشبونة مركزاً للسلع الافريقية ومنتجات الشرق وتحول الطريق التجارى الذى تسلكه هذه السلع الى طريق رأس الرجاء الصالح بدلاً من طريق الخليج العربي والبحر الاحمر الذى أصبح كبحيرة راكدة وتحولت الانظار عن هذا الطريق وعن أقطار آسيا الغربية وظل الامر كذلك حتى التطورات الاخيرة التى صاحبت الثورة الاقتصادية فى اوروبا فى نهاية القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر التى دعت للعودة بسرعة للطريق القديم المهجور فبدأت الحياة تدب فيه من جديد وأخذت انظار الدول الاوروبية القوية المتنافسة فى ذلك الوقت تتجه نحو هذا الطريق القديم وتدرك الاهمية المنتظرة له ومن ثم أصبحت السيطرة على منافذ هذا الطريق وموانئه مجال صراع استمر طوال القرن التاسع عشر وأوائل العشرين[٩] .

وقد اتخذ البرتغاليون من موزمبيق مقراً لهم ومركزا لسيادتهم فاهتموا بتحصينها واعدادها كقاعدة تجارية تخدم اسطولهم التجارى الذى كان يعمل بين لشبونة التى اصبحت سوقا تجارية هامة للسلع الافريقية والشرقية وبين الهند ويقال انه كان فى لشبونة سوق كبير للرقيق الافريقى يمد العالم الجديد كله بحاجته منهم وقد قدر عدد العبيد الذين بيعوا فى سوق لشبونة سنة ١٥٣٩ بـ ١٠,٠٠٠ عبد وبالطبع لم يكن كل هؤلاء من شرق القارة فقد لعبت انجولا فى جنوب غرب القارة دورا هاما فى ذلك وان كانت حصيلتها من الرقيق فى الغالب تصدر الى جزيرة ساوتومى ومنها الى البرازيل مستعمرة البرتغال فى جنوب امريكا[١٠] .

والحقيقة ان الآثار الاقتصادية لوصول البرتغال لشرق القارة وحلولهم محل العرب فى هذا المجال ومحاولاتهم القضاء على النشاط العربي الاقتصادى فى شرق القارة كانت عميقة .

ومما يذكر فى هذا المجال محاولات البرتغال للسيطرة على امبراطورية المونوموتابا التى ذاعت شهرتها بسبب مناجم الذهب فيها والتى كان العرب يحتكرون الاتجار فيه ولتحقيق هذا الهدف ارسلت البرتغال عدة بعثات لعل اشهرها بعثة انطونيو فرناندز التى كلفت بزيارة

امبراطورية المونوموتابا ومحاولة الاتفاق مع الامبراطور على ان يحل البرتغال محل العرب فى تجارة الذهب وان يسمح الامبراطور بوجود مندوب للبرتغال فى بلاطه لهذا الغرض. وتوالت بعثات البرتغال لتحقيق هذا الهدف الكبير لكن يبدو ان البرتغال لم ينجحوا كثيراً فى تحقيق أطماعهم فقد صدموا بالواقع اذ أدركوا ان الشائعات عن ثروة المناجم فى هذه البلاد والتى ربطت بينها وبين ثروة ملكة سبأ مبالغ فيها الى حد كبير وان ما يمكنهم الحصول عليه من الذهب لا يغطى تكاليف إنفاذ جيش ضخم لاحتلال المنطقة فاكتفى البرتغال بعقد اتفاقات تجارية مع بعض الحكام ليتعهدوا بحماية التجار البرتغال ومن يرغب منهم فى العمل فى مناجم الذهب واكتفى البرتغال بالاحتفاظ ببعض النقط الآمنة الحصينة لخدمة عملية التبادل التجاري[١١].

وادى هذا لتركيز البرتغال أكثر على تجارة الرقيق بالاضافة الى الغلات الافريقية الاخرى ـ ويعلل بعض الكتاب ضآلة الكثافة السكانية فى مدن وموانىء الساحل الشرقي للقارة ـ رغم ان هذه المناطق اكثر ملاءمة للسكنى من المناطق الاستوائية وغيرها من المناطق الداخلية بافريقيا بضخامة اعداد العبيد التي اقتنصت وبيعت فى اسواق آسيا وأوروبا والتى رحلت للامريكتين وان كان بعض الكتاب الاوروبيين من امثال كوبلاند يحملون العرب تبعة ازدهار تجارة الرقيق المجلوب من شرق افريقيا الا أن وجه المغالطة فى ذلك واضح فالرق كان معروفاً فى افريقيا منذ زمن بعيد لكنه لم يكن يمثل ظاهرة لها خطورتها وجسامتها الا بعد ان ادخل البرتغال وغيرهم من الاوروبيين الاسلحة النارية للقارة وسلحوا بها اتباعهم من الجلابة ليجلبوا لهم الاعداد المتزايدة من الرقيق التى اصبحوا بحاجة ملحة لها للعمل فى مستعمراتهم فى العالم الجديد ويذكر كوبلاند نفسه ان التعدادات اثبتت ان تجار الرقيق الاوروبيين تقع عليهم تبعة ما لا يقل عن مليون عبد سحبوا من قارة افريقيا بالاضافة الى ان مثل هذا العدد على الاقل قد قتل فى اثناء عملية القنص والترحيل.[١٢]

وقد حمل البرتغاليون هذه التجارة معهم الى البرازيل وتعلم منهم البرازيليون اسس هذه التجارة الرابحة ـ وظلت البرازيل حتى بعد ان انفصلت عن التاج البرتغالى تبذل جهودا لا تقل عن جهود السادة البرتغاليين فى إحياء تجارة الرقيق وإن كان نشاطهم تركز اكثر فى غرب القارة.

ويذكر كوبلاند نفسه إن البرتغاليين وإن كانوا يأتون بعد العرب فى الاتجار بالرقيق فى شرق افريقيا الا انهم أول من فتح باب استيراد الرقيق من غرب افريقيا وشحنهم لاستخدامهم فى امريكا[١٣].

هذا ونشير فى مجال النتائج الاقتصادية لوصول البرتغال لشرق القارة الى انهم عمدوا لانتزاع مساحات واسعة من الاراضى الزراعية على ضفاف الزمبيزى بنوع خاص من اصحابها لاستغلالها لصالحهم وكانت وسيلتهم فى ذلك اما استخدام القوة والتهديد او محاولة شراء الارض من زعماء القبائل وأدى هذا لنشأة طبقة من الاقطاعيين البرتغاليين وانغمس بعض رجال الدين واعضاء البعثات التبشيرية فى هذا

الميدان فبدلا من القيام بمهمتهم الدينية والانسانية بين القبائل الافريقية استهوتهم حياة البذخ التى يعيشها رجال الاقطاعات فعمدوا الى تملك الاقطاعات الكبيرة من الارض وساروا فيها سيرة أمراء الاقطاع من حيث استغلالها واسترقاق اهلها والاعتماد على الجيوش المرتزقة لمساعدتهم على تثبيت نفوذهم وتوسيع اقطاعياتهم.(١٤)

هذه صورة مبسطة للنتائج الاقتصادية التى ترتبت على وصول البرتغاليين لشرق افريقيا.

## ٣ ـ من الناحية الدينية :

كان الدافع الدينى من الدوافع الهامة وراء محاولات البرتغال الكشفية ورحلاتهم البحرية التى وصلت بهم الى شرق افريقيا بعد الدوران حول رأس الرجاء الصالح وكان من اهدافهم الوصول الى ملك الحبشة المسيحى والتعاون معا على تطويق العالم الاسلامي وقطع مصادر الثروة التى تعتمد عليها الدول الاسلامية .

وقد حقق البرتغال هذا الحلم فوصلوا الى اثيوبيا وحاولوا نشر المذهب الكاثوليكى فيها وفصم عرى الرابطة بين الكنيستين الاثيوبية والمصرية وان لم يفلحوا فى هذا لكنهم اكتفوا بالعمل معا ضد المسلمين، ورأينا كيف امتد هذا الصراع بين البرتغال والمسلمين مدة طويلة واتخذ صوراً متعددة .

وقد اقتفت البعثات التبشيرية البرتغالية خطى الرحالة والتجار وجيوش الاستعمار، واصبح طبيعيا ان نجد فى كل قلعة انشئت فى سفالة وموزمبيق وغيرها من الموانىء الافريقية واحداً أو اكثر من الجزويت، ومن اشهر هؤلاء جونسالودى سيلفيرا (Gonca-lo Da Silveira) الذى وفد من لشبونة لشرق افريقيا وتوغل حتى مقر المونوموتابا ونجح فى اقناع الامبراطور الافريقى ورجال حاشيته باعتناق المسيحية ـ لكن خشى بعض تجار الرقيق بنوع خاص من نتيجة هذا العمل فكادوا له عند الامبراطور واتهموه بالجاسوسية فنكل به الامبراطور وقتله وانتقمت البرتغال بارسال حملة بقيادة فرانسيسكو باريتو (Francisco Barreto) فى عام ١٥٦٩ للانتقام من قتل المبشر البرتغالى لكن لم تحقق هذه الحملة اهدافها .

وقد تنافست بعد ذلك بعض فرق الرهبان على العمل فى هذا الميدان الجديد بشرق افريقيا، واشتهر من هذه الفرق فريق الدومينكان فقد امتد نشاطهم على طول نهر الزمبيزى وانشأوا مدرسة للاهوت فى الهند بعثوا إليها عدداً من الشبان الافريقيين لاعدادهم للعمل فى الحقل التبشيرى فى افريقيا بعد عودتهم اليها(١٥) .

على ان انحراف رجال الدين البرتغال عن اهدافهم واتجاههم الى السعى لتملك الاقطاعيات والمتاجرة فى الرقيق وغير ذلك من المخازى بالاضافة الى الصراع الرهيب الذى نشب بين طوائف المبشرين ـ ادى الى قصر نشاط هذه البعثات على نقط بسيطة ساحلية وعلى بعض الاعمال البسيطة فى المستشفيات أو فى مجال التعليم، ثم تطور الامر فتوقف عملها كلية بعد ذلك بعد ان نضبت اموالها وفتر الحماس الدينى الذى كان هو الدافع فى المبدأ وراء هذه المغامرات الشاقة .

## ٤ ـ من الناحية الثقافية :

ادى كشف البرتغال لطريق رأس الرجاء الصالح وتحول التجارة عن مصر والشرق الاسلامي الى عزل هذه البلاد عن العالم وعن أوروبا التى كانت قد أخذت تنهض وتتقدم منذ عهد النهضة الأوروبية مما أدى الى الركود الذى شمل المشرق الاسلامى بالذات من مستهل العصور الحديثة حتى القرن التاسع عشر الميلادى .

على انه فيما يتعلق بالاخذ بأيدي الافريقيين فى مجال التعليم والثقافة ـ وهى من الاهداف التى تذرع بها المستعمرون وبرروا بها عملياتهم الاستعمارية فقد تركت السلطات البرتغالية للارساليات الدينية مهمة القيام بهذا العمل والحقيقة ان جهود هذه الارساليات وامكانياتها كانت محدودة للغاية فلم تحقق الا نجاحا بسيطاً .

وحتى بداية القرن التاسع عشر كانت المدارس القليلة الموجودة فى موزمبيق وغيرها من الساحل الافريقى الشرقى تخضع خضوعاً تاماً لاشراف الارساليات الدينية فهى التى تديرها وتنفق عليها وتتولى شئونها .

والاحصائيات التى وصلتنا تدل على ضآلة عدد المنتظمين فى المدارس من الافارقة.

واذا وضعنا فى الاعتبار انتشار الشعور العدائى بين الافريقيين ضد البعثات التبشيرية، وعدم الثقة فى نواياها بالاضافة الى النظرة للافريقى على انه يجب ألا يحصل إلا على قدر ضئيل من الثقافة يؤهله ليكون عاملاً يمكنه أن يمارس العمل الذى يكلفه به الأوروبى، وان ينفذ الأوامر الصادرة اليه ـ يمكن ان ندرك النتائج التى يمكن ان تسفر عنها مثل هذه الجهود فى ميدان التعليم .

وقد رد فريردا اندريد (Fraire de Andrade) الحاكم العام لموزمبيق فى عام ١٩٠٦ على السؤال الذى كان يجول دائماً بأذهان القائمين على التعليم فى المستعمرات البرتغالية عن نوع التعليم الذى يمكن أن يقدم للافريقى بأن «تعليم الافريقى يجب ان ينحصر فى إعداده ليكون عاملاً يسهم فى تقدم إقتصاد البلد فحسب ويجب الا نشجعه حتى يصل به الغرور لدرجة أن يحاول تمثيل دور الضفدعة التى ظنت انه يمكنها أن تنتفخ فتصبح كالثور فانتهى الأمر بأنها انفجرت وبالطبع لم يلحق بالثور فى هذه القصة أى ضرر لكن فى حالة الافريقى لا بد ان يلحق الضرر بالآخرين»[1] .

والحقيقة أن الأوضاع التى تركت البرتغال مستعمراتها فيها بعد أن انتهى الوجود البرتغالى تعطى صورة سوداء حالكة عن ظروف التعليم فى هذه المستعمرات وأوضاع الافارقة فى ظل الاستعمار البرتغالى .

وأشير الى ان البرتغال كانت دائماً تخشى أن تنتقل تيارات التحرير التى أخذت تهب على القارة الافريقية الى مستعمراتها ولذلك فرضت ستاراً حديدياً على المستعمرات وسكانها .

وحاولت عزل هذه المستعمرات عن مختلف التيارات الخارجية لكن كما سنعلم أن هذا لم يكن ممكناً إلا لفترة محدودة .

## ثالثا. نظام البرتغال الادارى فى مستعمراتهم بشرق القارة ووضع الموظفين فى ظله :

رسم البرتغال سياستهم الاستعمارية لتحقق أهدافاً محددة هى استغلال المستعمرات الى أبعد حد من الناحيتين المادية والبشرية، ومقاومة اية حركة تمرد، خصوصاً حين بدأت القومية الافريقية تظهر واخذت حركات التحرر ومقاومة الاستعمار تهدد النفوذ البرتغالى .

وظلت سياسة البرتغال فى مستعمراتها سائرة على نفس النهج الاستغلالى المحض تقريباً دون تغيير حتى منتصف القرن التاسع عشر، وكانت مساوئ ومظالم النظام الاستعمارى قد وصلت الى درجة ضج منها الرأى العام العالمى الذى استنكر هذا النظام والذى وصفه بأنه صورة جديدة من الرق(١٧) (A Modified form of Slavery) .

وكانت هناك وزارة للمستعمرات، ويعاون وزير المستعمرات مجلس استشارى كانت السلطة فى المستعمرة فى يد الحاكم العام وهو المسئول عن كافة الشئون لكن بمضى الوقت تكونت فى المستعمرة طبقة من الاقطاعيين، وكان عدد البرتغاليين الذين قبلوا الهجرة الى المستعمرات الافريقية قليلاً فلجأت الحكومة البرتغالية لارسال المجرمين والخارجين على القانون، ولذا كانت الغالبية العظمى من البيض فى المستعمرات البرتغالية حثالة المجتمع، وكانت جهود المستعمرين البرتغال منصرفة الى تجارة الرقيق واستنزاف كافة خيرات المستعمرة وكما ذكرنا فإن الجمعيات التبشيرية التى بدأت نشاطها فى اعقاب الاستعمار البرتغالي شاركت فى هذا النشاط الهدام. وقد برر البعض هذه الجريمة بأن الرقيق الافريقيين كانوا أكثر إستعداداً لتقبل تعاليم المسيحية حين يبتعدون عن موطنهم الأصلى حيث تنتشر معتقداتهم فى السحر وغيره، ولذا أصبحت الحصون البرتغالية فى شرق القارة عبارة عن مجرد مراكز للتبادل التجارى وكان الرقيق أهم سلعة فيها(١٨) .

وقد ظلت موزمبيق زمناً طويلاً المركز الرئيسى لتصدير الذهب والعاج بالاضافة الى الرقيق والغلات الافريقية الاخرى، وكان حاكمها تابعاً لنائب الملك فى الهند وعليه ان يرفع اليه تقارير دورية لرفعها هو بدوره الى لشبونة(١٩) .

وقد منحت البرتغال فى مستعمراتها الامتيازات للشركات الاستغلالية الاجنبية لمزاولة نشاطها فى هذه المستعمرات .

ولقد كانت نظرة البرتغال للافريقى قائمة على انه كائن حى اقل من الأوروبى وأن عليه أن يعمل وأن يجبر على العمل لتحقيق الرفاهية للأوروبى فالمستعمرات كان ينظر اليها دائما كأقاليم منتجة لصالح الرجل الابيض - وكافة القوانين والنظم التى وضعت كلها تشير الى هذا الاتجاه - ولذا كانت المستعمرات البرتغالية أسواقا لتجارة الرقيق وغيره من السلع الافريقية وحتى بعد ان صدرت القوانين بالغاء الرق اصبح الرق الجديد يمارس فى صورة العمل الاجبارى ولم يقبل البرتغاليون فى اى يوم من تاريخهم الاستعمارى الطويل فى افريقيا والذى يقرب من خمسة قرون - ان ينظروا الى الافريقيين

نظرة الند للند وأن يعاملوهم على قدم المساواة .

ولذا كان القانون الذى وضعته البرتغال لحكم مستعمراتها يقسم السكان دائماً الى ثلاث فئات :

أ ـ فئة الاوروبيين :

ب ـ فئة الوطنيين الذين اندمجوا فى الحياة البرتغالية وهم ثمرة التزاوج بين الاوروبيين والافريقيين.

جـ ـ فئة الوطنيين الذين لم يندمجوا فى الحياة البرتغالية .

يضاف الى هذا فى المستعمرات البرتغالية فى شرق افريقيا عدد من الآسيويين من الهنود وغيرهم هاجروا الى تلك المستعمرات ولم تكن النظرة اليهم تختلف كثيراً عن النظرة للوطنيين الافارقة .

وبالطبع كانت الخدمات كلها سواء التعليمية او الطبية او غيرها مركزة فى مراكز تجمع الاوروبيين .

وفى موزمبيق مثلاً رغم ان غالبية الافارقة كانوا يعملون بالزراعة فان السلطات البرتغالية وجهت الانتاج للمحاصيل النقدية كقصب السكر والسيسال والقطن والشاى كما أدخلت زراعة الحمضيات والموز، وتركزت مشروعات الرى الهامة المتعلقة بنهر لمبوبو على المناطق التى يحتلها الاوروبيون، اما مزارع الوطنيين فيزرع بها الذرة والدخن والكبره ـ كما وجه الاهتمام ايضا لاستغلال مناجم الفحم .

وفيما يتعلق بطرق المواصلات مدت الخطوط الحديدية بقصد خدمة الاهداف الاقتصادية للمستعمر لنقل الصادرات واعدت الموانىء لنفس الهدف .

ويكفى لاعطاء صورة صادقة بعض الشىء عن وضع الوطنيين الافارقة فى المستعمرات البرتغالية ان نشير الى التقرير الذى وضعه بتكليف من الحكومة البرتغالية الكابتن هنريك جلفاو (Galvao Henrique) وقد رفع تقريره الى الجمعية الوطنية فى عام ١٩٤٧ لكن الصراحة المؤلمة التى كتب بها التقرير أدت الى توجيه الاتهامات له فسجن وبقى فى السجن حتى عام ١٩٥٩ حين استطاع الفرار، وفى ١٢ يناير ١٩٦١ استولى على السفينة سانتا ماريا (Santa Maria) بقصد التوجه الى افريقيا وتحرير المستعمرات البرتغالية من الدكتاتورية وبالطبع لم يحقق جلفاو خطته وانتهى به المطاف الى اللجوء الى ميناء رسيف Recife البرازيلى لكن هذا العمل لا شك فى أنه لفت الانظار الى الاوضاع السيئة فى المستعمرات البرتغالية(٢٠) .

وفى تقريره أشار جلفاو الى الحالة السيئة التى يعانى منها الوطنيون فى المستعمرات البرتغالية لدرجة ان السكان القادرين على العمل فى موزمبيق وغيرها يهربون ويهجرون الارض الى جنوب افريقيا وروديسيا وغيرهما وقد قدر عدد الذين هاجروا فى خلال السنوات العشر الأخيرة من موزمبيق وانجولا وغينيا بمليون نسمة وذكر أن المعدل السنوى للهجرة آخذ فى الازدياد وذكر التقرير أن الأمر لا يقتصر على انخفاض مستوى المعيشة فى المستعمرات البرتغالية بل إن هذه المستعمرات تعانى من نقص فى الخدمات الطبية مما ترتب عليه هبوط معدل المواليد وارتفاع نسبة الوفيات التى قدرت بـ

٦٠٪ من الاطفال، و ٤٠٪ من متوسطى العمر.

ويشير التقرير الى عمليات القمع التى انتهجتها البرتغال ضد الوطنيين حتى انه ذكر انها قامت فى صورة عمليات ابادة حقيقية وذكر ان الارقام الواردة فى الاحصاءات الرسمية لا يمكن ان تصور مدى الألم الذي يحس به المرء حين يشاهد اوضاع الوطنيين بنفسه، فالذين يكتبون التقارير الرسمية يخشون ان يضمنوا تقاريرهم الحقائق التى يهمسون ببعضها فيما بينهم، واشار التقرير الى ان عدد الاطباء قليل وهم يتركزون فى اهم المراكز المدنية حيث يتجمع البعض تاركين المناطق الداخلية خالية من اية رعاية طبية وتفتقر المستشفيات للتنظيمات الصحية الاولية وهى لا وجود لها فى الاماكن التى يكثر فيها الوطنيون والتى تشتد فيها الحاجة اليها والعناية بالامهات قبل الوضع وبعده ورعاية الاطفال ومقاومة الامراض المتوطنة كالملاريا ومرض النوم مجرد شكليات .

والزوار الذين ترسلهم الحكومة المركزية لكتابة تقارير عن الحالة لا تترك لهم الفرصة فى الواقع الا لمشاهدة المظاهر الراقية التى تستحدث بمناسبة زيارتهم ويشبه التقرير الحالة فى موزمبيق بأنها كأنما تعانى من الآثار المدمرة لحريق مروع، وتحدث التقرير عن نظام الالزام فى العمل فذكر انه لا يختلف فى الحقيقة عن نظام الرق والسخرة وان اكثر من ٣٣٪ من الذين هم فى سن العمل عاجزون لاسباب صحية عن مزاولة العمل لكن لا يعفى فى الحقيقة من السخرة سوى الموت، وتحدث عن هذا النوع من الرق فذكر انه اسوأ من الرق المجرد لأنه ـ كما ذكر ـ اليوم لا يشترى الوطنى انما يجرى استئجاره من الحكومة، وان كان يشغل مركز الرجل الحر ـ يكاد سيده لا يهتم به ان مرض فهو يواصل العمل طالما هو حى، وحين يعجز عن العمل او يموت يستطيع سيده دائما ان يطلب ابداله بعمال آخرين .

وأورد جلفاو فى تقريره صورة لنقل العمال الذين تتكفل ادارة شئون الوطنيين بجمعهم لاصحاب الاعمال وشحنهم فى ظروف شبيهة بما يحدث عند تصدير الحيوانات.

وتحدث التقرير ايضا عن الظروف السيئة التى يعمل فيها العمال الوطنيون وعدم توفر المساكن الصحية اللائقة بآدميتهم، وعدم دفع الاجور المناسبة لهم، والعقوبات البدنية التى يتعرضون لها والنظر للوطنى على انه مجرد حيوان يحمل الاثقال حتى ان الكثير من الاعمال الشاقة تعهد اليه بدلا من استخدام الآلات، وذكر انه يشعر بعجزه عن ذكر الحقيقة كاملة لكنه يجمل الوضع بأنه اشبه بعملية ابادة بالجملة للسكان الافريقيين.

والعجيب ان حكومة البرتغال بدلاً من ان تتخذ خطوات لعلاج الوضع نجدها تحيط التقرير بسياج من الكتمان وتصب نقمتها على كاتبه فتزج به فى السجن[٢١]

لقد أوردنا بعضا مما جاء فى هذا التقرير لأنه يعطى صورة دقيقة لوضع الوطنيين ولأنه مكتوب بقلم مسئول برتغالي سجل ما شاهده فى زيارة له قام بها في منتصف القرن العشرين (١٩٤٧) بعد العديد من الاصلاحات التى ادعت حكومة البرتغال انها قامت بها لاصلاح اوضاع الوطنيين فى

موزمبيق وغيرها من مستعمراتها .

## رابعا . الحركة الوطنية في المستعمرات البرتغالية في شرق أفريقيا :

واجه البرتغال منذ وطأت اقدامهم شرق افريقيا مقاومة عنيفة من الوطنيين الافارقة ومن العرب سواء المستوطنين أو الحكومات العربية الاخرى التى سارعت لمساندة حركة المقاومة الوطنية للوجود البرتغالى فى الساحل الشرقي للقارة والمياه التى تطل عليها هذه السواحل .

وقد رأينا من قبل صوراً لهذا الصراع. مع دولة المماليك ثم الدولة العثمانية. كما رأينا أن هذا الصراع إتخذ اشكالاً غريبة واشتركت فيه اثيوبيا الدولة المسيحية مع البرتغال كما اشتركت فيه القوى العربية والاسلامية لمساندة الامارات العربية فى شرق القارة .

وذكر أن هذه الامارات العربية قاومت الغزو البرتغالى ما إستطاعت الى ذلك سبيلاً لكن البرتغال بأسلحتهم المتقدمة إستطاعوا قهر هذه المدن وقد اصابها من جراء ذلك الكثير من التدمير والتخريب والحرق والابادة، فقد كان نصيب المقاومين الذين يتصدون للغزاة الابادة والرق للسكان والمدن والمزارع والحيوانات لنشر الرعب والفزع فى قلوب من يفكرون فى مقاومة المعتدين .

وظهرت بطولات فى هذا المجال تستحق الدراسة والتنويه - وإن استطاع البرتغاليون بأسلحتهم أن يتغلبوا على المقاومة الوطنية التى واجهتهم لكن كان عليهم بعد ذلك أن يواجهوا ثورات الافريقيين والعرب التى هددت مراكزهم وسلطتهم.

ومن أبرز الثورات التى واجهها البرتغاليون الثورة التى تزعمها مير على فى عام ١٥٨٠ م فى مقديشيو وامتدت الى ممباسا وغيرها من الموانىء بشرق افريقيا ولقي مير على من الاتراك معاونة مكنته من إخضاع معظم المناطق الخاضعة للبرتغال ما عدا مالندى .

ولم يستطع البرتغاليون إخماد الثورة إلا بالاستعانة بالقوات البحرية من الهند، وبعد أن نجحوا فى استمالة قبائل زومبا (Zumba) وهم من البانتو، وكان انضمامهم للبرتغاليين من العوامل الرئيسية التى مكنتهم من إسترجاع ممباسا والقبض على مير علي وإعدامه .

وقد أيقن البرتغال بعد هذه الثورة أن قواتهم فى موزمبيق ومالندى غير كافية لتحقيق السيادة لهم على الساحل الشرقي للقارة ولذا أقاموا فى عام ١٥٩٣ حصنا قويا فى ممباسا .

على أن ثورات العرب والافريقيين لم تكن تهدأ حتى تبدأ من جديد، ففى عام ١٦٥٠ اندلعت الثورة مرة أخرى فى كل الشاطىء الشرقى وإتصل الثوار بإخوانهم العرب فى الشاطىء الآسيوى وجاءتهم نجدات من عمان وغيرها من انحاء شبه الجزيرة العربية .

وهكذا لم ينعم البرتغاليون بالاستقرار على الساحل بالاضافة الى محاولاتهم لمد نفوذهم تدريجيا للداخل - وكان اعتمادهم على ما يأتيهم من ممثل الملك فى الهند من

إمدادات ونجدات لمواجهة ثورات الافريقيين.

وحفل النصف الثاني من القرن السابع عشر بأحداث الصراع بين البرتغاليين من جهة وبين الوطنيين من الافارقة والعرب فى سواحل افريقيا الشرقية ومؤيديهم من العثمانيين من جهة اخرى، وقبل ان يختتم هذا القرن استطاع الافريقيون والعرب بمساعدة قوة من عمان حصار الحصون البرتغالية بالساحل وسقطت هذه الحصون فى أيدى الوطنيين وإنكمشت سلطة البرتغال واقتصرت على بعض الاماكن الحصينة فى جزيرة موزمبيق وأضطروا للاعتراف بسيادة العرب على المنطقة الواقعة شمال رأس دلجادو (Cape De lgado)، بينما كانت السيادة للبرتغال الى الجنوب من ذلك.

واتخذ البرتغاليون من جزيرة موزمبيق مقراً لهم ومركزاً لسيادتهم واهتموا بتحصينها واعدادها كقاعدة تجارية تخدم اسطولهم التجارى الذى يعمل بين لشبونة التى أصبحت سوقاً تجارياً هاماً للسلع الافريقية والشرقية، وبين الهند. وأصبحت قلعة موزمبيق مركز القائد العسكرى العام الذى هو فى نفس الوقت رئيس الجهاز الادارى، وكان مسئولاً أمام نائب الملك فى الهند وقد زاد مركز البرتغاليين فى شرق أفريقيا حرجاً بعد أن فقدوا سيادتهم فى المحيط الهندى والهند[٢٢].

## خامسا ـ نهاية الاستعمار البرتغالى بشرق أفريقيا :

ظلت البرتغال متمسكة بوجودها فى موزمبيق وفى مستعمراتها الأخرى انجولا، وغينيا بيساو حتى بعد ان أضطرت الدول الاستعمارية الكبرى مثل انجلترا وفرنسا أن تعترف بحق الشعوب الخاضعة لها فى الاستقلال.

وكانت السياسة التي وضعها انطونيو سالازار (Antonio Salazar) فى ١٩٣٠ للمستعمرات البرتغالية فى أفريقيا تقوم ـ كما شرحها جورج إميل (Jorge Ameil) أحد دعاة هذه السياسة ـ على أساس الاحتفاظ بالمساحات التى يرفرف عليها علم البرتغال فيما أطلق عليه «البرتغال فيما وراء البحار»، وبذل كل جهد ممكن لاستخلاص الثروة الخبيئة فى باطن الارض او الظاهرة على سطحها والبحث عن مناطق الانتاج والدمج وتذليل الصعوبات التى تعترض استغلالها[٢٣].

وقد صدر فى عام ١٩٣٣ قانون لتحقيق هذه السياسة، وعمدت الحكومة البرتغالية لتشجيع المواطنين البرتغال وطلاب الجامعات للقيام برحلات وزيارات للمستعمرات البرتغالية وحث الحكومة البرتغالية ووسائل الاعلام المختلفة على العمل لاثارة حماس الشباب للهجرة الى المستعمرات واستغلال خيراتها، كما شجعت رجال الفكر والكتابة لتسخير اقلامهم للدعوة لهذه السياسة لتبقى حياً فى أذهان الشعب البرتغالى ـ كما ذكر ساليزار ـ أن افريقية بالنسبة للبرتغال أكثر من أرض تستغلها لكنها السر فى أن البرتغال ينظر اليها كبلد عظيم، وبدونها سوف تكون شعباً أوروبياً صغيراً، وحولت المدرسة العالية للدراسات الاستعمارية فى لشبونة الى معهد أطلق عليه

اسم (معهد دراسات ما وراء البحار) لخلق طبقة من البرتغاليين لادارة المستعمرات وغير اسم المستعمرات الى اسم (اقاليم ما وراء البحار) وهو الاسم الذى اصبح يطلق أيضاً على وزارة المستعمرات (وزارة ما وراء البحار).

وفى سنة ١٩٥١ صدر قانون آخر خاص بإدارة الاقاليم البرتغالية فيما وراء البحار وهو لا يختلف فى جوهره عن القانون الصادر فى عام ١٩٣٣ وأهم المبادىء التى احتواها هذا القانون[٢٤].

١ ـ تعتبر جميع الاراضى الافريقية الخاضعة للبرتغال جزءاً لا يتجزأ من أراضى البرتغال ذاتها.

٢ ـ تتبع أقاليم ما وراء البحار وزارة ما وراء البحار ولوزيرها سلطة تامة فيما يتعلق بكافة شئونها ويعاونه مجلس استشاري، ولكل اقليم حاكم عام يدير شئونه.

٣ ـ يعقد مؤتمر عام فى لشبونة كل ثلاث سنوات برئاسة وزير أقاليم ما وراء البحار يحضره حكام هذه الاقاليم للنظر فى شئونها المختلفة.

٤ ـ يحرّم فى هذه الاقاليم الاشتغال بالسياسة أو تأليف احزاب.

٥ ـ تشجيع سياسة الاندماج (Assimilado) كما تعرف فى اللغة البرتغالية وهى تقضى بمنح الافريقى الذى يتعلم اللغة البرتغالية ويعتنق الكاثوليكية حق المواطن البرتغالى.

٦ ـ منح القانون للادارة البرتغالية حق توريد العمال الافريقيين للعمل داخل الاقاليم التى تسيطر عليها البرتغال أو خارجها تحت ستار ما يُسمى بعقود العمل.

٧ ـ إنتقال الأفريقيين داخل الأقليم يخضع لنظام بطاقات الانتقال فلا يستطيع الأفريقى مغادرة قريته إلا بإذن سابق من بوليس المنطقة.

٨ ـ وضع نظام صوري لتمثيل الاقاليم فيما وراء البحار فى البرلمان البرتغالى تحقيقا لسياسة الادماج وهذا يعنى بالطبع القضاء على القومية الافريقية للافريقيين فى هذه الاقاليم، وكان من الطبيعى ان يتحرك الوطنيون الافريقيون فى المستعمرات البرتغالية فى وجه المستعمر الذى أذاقهم صنوف العذاب والاستعباد وأن يتحينوا الفرصة المناسبة للانقضاض عليه وتحطيم الاغلال التى تربطهم به.

وكانت البرتغال تخشى أكثر ما تخشاه أمرين:

١ ـ تسرب أخبار الحركات القومية الافريقية ـ التى أخذت تجتاح القارة لمستعمراتها.

٢ ـ الرأى العام العالمى ممثلاً فى الأفراد والجماعات وكذا فى المنظمات الدولية ومعارضة الأساليب الوحشية واللاإنسانية التى تتسم بها سياسة البرتغال فى مستعمراتها ـ وكذا مساندة الدول الافريقية المستقلة وتشجيعها للوطنيين الافارقة فى ثورتهم ضد المستعمرين البرتغال.

وقد حاولت البرتغال إحاطة مستعمراتها بسياج يمنع تسرب نسمات الحرية والقومية التى تهب على القارة الى هذه المستعمرات.

ورغم إنضمام البرتغال الى الامم المتحدة سنة ١٩٥٥ لكنها رفضت تقديم أية تقارير عن مستعمراتها كما نص على ذلك ميثاق

المنظمة الدولية بحجة أن هذه أقاليم برتغالية فيما وراء البحار .

لكن لم تُجد هذه المحاولات فمنذ سنة ١٩٤٨ توالت الاضطرابات وحركات الاستنكار للسياسة الاستعمارية البرتغالية فى شرق القارة ، فنشطت فى موزمبيق مثلاً (حركة الاتحاد الديمقراطى) وهى حركة إنضم اليها عدد كبير من الافارقة بل انضم اليها عدد من المسئولين البيض الذين شعروا بضرورة تغيير الأوضاع فى المستعمرة حتى لا يؤدي الأمر الى إنفجار الموقف .

وقابلت البرتغال هذه الحركات بوسائل وحشية للقمع والارهاب فقتل عدد كبير من الافريقيين كما زج بأعداد منهم فى السجون والمعتقلات .

وكان طبيعياً أن تساند الدول الافريقية والآسيوية فى الأمم المتحدة حق الوطنيين الافريقيين فى حريتهم .

ففى فبراير ١٩٦١ طلبت خمس وثلاثون دولة افريقية وأسيوية من مجلس الامن بحث الموقف فى المستعمرات البرتغالية لأنه يعرض السلام والامن الدوليين للخطر .

وتقدمت سيلان ، وليبريا ، ومصر بمشروع قرار للمجلس يقضى بتشكيل لجنة لتقصى الحقائق فى المستعمرات البرتغالية .

وقد شهدت الساحة الوطنية فى موزمبيق عدداً من التنظيمات الوطنية من أهمها جبهة تحرير موزمبيق التى عرفت باسم (الفريليو) التى أعلن تشكيلها فى يونيو ١٩٦٢ وقد اعلنت الجبهة فى سبتمبر ١٩٦٤ الكفاح المسلح ضد المستعمر واستطاعت فعلا تحرير مساحات واسعة من ارض موزمبيق وكان يتزعمها دكتور موندلانى ، وبعد اغتياله اختير ميشيل سامورا رئيساً للجبهة ، وكان للجبهة تمثيل دائم فى القاهرة ومجلة دورية بإسم ثورة موزمبيق .

ومنذ أن قامت منظمة الوحدة الافريقية فى عام ١٩٦٣ ساندت قضية المستعمرات البرتغالية ، ورغم اشتداد حركة المقاومة الوطنية فى المستعمرات البرتغالية فى شرق القارة وغربها مما ترتب عليه استنزاف قوة البرتغال المعنوية والمادية والحربية ـ لكن ظلت حكومة سالازار العسكرية فى عنادها الى انتهى الأمر بسقوط الحكومة بعد أن وصلت الحالة الاقتصادية فى البرتغال الى الحضيض .

وكان طبيعيا ان تسلم الحكومة المدنية التى خلفتها بعض المستعمرات البرتغالية فى استقلالها .

فقامت جمهورية موزمبيق المستقلة فى يونيه ١٩٧٤ وقد علّق أحد المؤرخين على ذلك بقوله «إن المستعمرات البرتغالية فى أفريقيا نجحت فى تخليص البرتغال من الحكم العسكرى ولما سقط الحكم العسكري فى البرتغال استطاعت المستعمرات البرتغالية أن تنال استقلالها » .

## الهوامش

(١) De Caravalho, Vasco: La Domination Portugaise Au Maroc, 1415-1789 (Lisbohne 1936) P. 15

(٢) لمن يريد المعلومات الوافية عن دور البرتغال في المغرب العربي يرجع الى : شوقي الجمل : المغرب العربي الكبير في العصر الحديث ( القاهرة ١٩٧٧) ص ٤١ وما بعدها .

(٣) Johnston, H.: History of the Colonization of Africa by Alien Races (Cambridge 1913) P. 30

(٤) Ibid P. 32

(٥) كان اسمها العربي (بساسنه) وهو كنية عن مكة المكرمة لان مؤسسيها وفدوا من إقليم الحجاز وعُرفت بعد ذلك عند المؤرخين باسم منبسى وحرفها البرتغاليون الى ممباسا انظر محمود طه : المؤثرات العربية في شرق افريقيا ص ١٤ .

(٦) Duffy, James: Portuguese Africa (1957) P. 28

(٧) عن تفاصيل هذه الصراعات يرجع الى المقريزى تقى الدين احمد بن علي : الالمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام (نشرة الدكتور رنك ـ القاهرة ١٩٨٥) وكذلك يوسف، احمد : الاسلام في الحبشة (القاهرة ١٩٣٥)

(٨) شوقي الجمل : تاريخ كشف افريقيا واستعمارها (القاهرة ١٩٨٠) ص ١٨١ وما بعدها .

(٩) Hoskins: British Routes to India (1928) P. 2 وكذلك Kammeret: La Mer Rouga, L'Abyssine et L'Arabie depuis L'Antiquite (1929)

(١٠) تشرش، رج، هاريسون : الاستعمار الحديث (الاصل ١٩٥١ ترجمة د. دولت صادق ومراجعة د. محمد السيد غلاب ص ٣٠

(١١) Ransford, Oliver : The Rulers of Rhodensia From earliest times to Referedum (London 1968) P. 58

(١٢) وشوقي الجمل : قضية روديسيا بين الامم المتحدة ومنظمة الوحدة الافريقية (١٩٧٦) ص ٥٥ وما بعدها
Coupland R.: East Africa and its Invaders (London 1938) P. 35

(١٣) Ibid p. 36 ملاحظة ناقش كاتب هذا المقال بتفصيل قضية اتهام العرب بنشر تجارة الرقيق والتوسع فيها في شرق القارة ـ انظر شوقى الجمل : تاريخ كشف افريقيا واستعمارها مرجع سابق ص ١٣٩ وما بعدها، ١٨٤ وما بعدها .

(١٤) Duffy : Op. Cit. P 111

(١٥) الدومينيكان ـ طائفة كالجزويت انتسبت الى القديس دومينيكا (St. Dominic) وبدأت نشاطها في اسبانيا وانتقل نشاط جماعة منهم الى البرتغال، وكان لها نشاط خاص في العمل التبشيري في الصين والهند واليابان، وحين فتحت الكشوف الجغرافية الميدان الافريقي للعمل أسرعوا لضم هذا الميدان لنشاطهم.

(١٦) **Duffy: Op Cit: P. 259**

(١٧) انبرى عدد كبير من الكتاب لمهاجمة سياسة البرتغال التي كانت قائمة على اجبار الافريقيين على العمل في المزارع والمصانع وغيرها والتى اعتبروها صورة جديدة من الرق ومن هؤلاء :

**Swan, Charles: Slavery of Today (London 1900)**
**Harris, John, H. Portuguese Slavery— (London 1915)**
**Nerinson, H.W.: Modern Slavery. (London 1936)**

(١٨) Bartlett, Vernon: Struggle for Africa (London) P. 89

(١٩) استقلت مستعمرة موزمبيق البرتغالية عن جوا بالهند في عام ١٧٥٢ واصبح حاكم موزمبيق مسئولا ايضا عن زمبيزيا وسفالة .

(٢٠) لزيادة المعلومات عن هذا الحدث الطريف يرجع الى :
**Galvao, H.: Santa Maria and My Crusade for Portugal (1962) .**

(٢١) نجحت جريدة الاوبزرفر (Oberver) في الحصول على صورة كاملة من التقرير ونشرته في عددها الصادر في ٢٩ يناير ١٩٦١ .

(٢٢) للمزيد من التفاصيل عن حركة المقاومة الوطنية للوجود البرتغالي في شرق افريقيا انظر شوقي الجمل : تاريخ كشف افريقيا واستعمارها مرجع سابق ص ١٩١ وما بعدها وكذلك **Davidson, B.: The African Awakening (1955)**

(٢٣) راشد البراوى : الرق الحديث في أفريقيا البرتغالية (١٩٦٢) ص ٧٢ وما بعدها .

(٢٤) عبدالملك عودة : السياسة والحكم في افريقيا (القاهرة ١٩٥٩) ص ٢٠٠ وكذلك Berlett: Op Cit. P. 86

# مكتبة البحـــث


## أولا ـ مراجع عربية أو معربة :

١ ـ د. تشرش، ج. هاريسون : الاستعمار الحديث ترجمة د. دولت صادق، مراجعة د. محمد السيد غلاب (الاصل المترجم ١٩٥١) .

٢ ـ راشد البراوى (دكتور) : الرق الحديث فى أفريقيا البرتغالية (القاهرة ١٩٦٢)

٣ ـ شوقي الجمل (دكتور) : المغرب العربي الكبير في العصر الحديث (القاهرة ١٩٦٢)

٤ ـ شوقي الجمل (دكتور) تاريخ كشف افريقيا واستعمارها (القاهرة ١٩٨٠)

٥ ـ شوقي الجمل (دكتور) قضية روديسيا بين الأمم المتحدة ومنظمة الوحدة الافريقية (القاهرة ١٩٧٧) .

٦ ـ عبدالملك عودة : (دكتور) السياسة والحكم في افريقيا (القاهرة ١٩٥٦)

٧ ـ المقريزى، تقي الدين احمد بن علي : الالمام باخبار من بارض الحبشة من ملوك الاسلام (نشرة الدكتور رنك ـ القاهرة ١٨٩٥)

٨ ـ يوسف احمد : الاسلام في الحبشة (القاهرة ١٩٣٥)

## ثانيا ـ مراجع باللغة الانجليزية :

1 - Bartlett, Vernen: Struggle for Africa (London 1950)
2 - Coupland, R. : East Africa and its Invaders (London 1936)
3 - Davidson, B.: The African Awakening ( 1955)
4 - De Carvalho, Vasco: La Domination Protugaise Au Maroc 1415 - 1789. (Lisbonne 1936)
5 - Duffy, James: Portuguese Africa (London 1959)
6 - Duffy, James: Portugal in Africa (London 1952)
7 - Galvao, H.: Santa Maria and My Crusade for Portugal (1962)
8 - Harris, John, H.: Portuguese Slavery (London 1915)
9 - Hoskins : British Routes to India (London 1928)
10 - Johnston, H.: History of the Colonization of Africa by Alien Races Cambridge 1931
11 - Kamerer: La Mer Rouge, L'Abyssinie et l ' Arabe depuis L'Antiquite, (1929)
12 - Moreira, Edwardo: Portuguese East Africa (London 1926)
13 - Nerinson, H.W.: Modern Slavery (London 1936)
14 - Ransford, Oliver: The Rulers of Rhodesia from Earliest Times to Referendum (London 1968)
15 - Swan, Charles: Slavery of Today (London 1900)

# التهديدُ البرتغالي
# لِتجارة البحر الأحمر

بقلم : بشير احمود كاظم

تعد رحلة فاسكودي جاما الأولى في سنة ٩٠٣ هـ/١٤٩٧ م الى الهند رحلة استطلاعية عرف من خلالها ان العرب يسيطرون على سواحل شرقي افريقيا والجزر القريبة منها وعلى معظم التجارة في غرب المحيط الهندي رغم ان دي جاما لم ينجح في كسب ثقة حكام الموانيء التي زارها .

وفي مستهل القرن السادس عشر الميلادي (١٤٩٩ م - ١٥٠٩ م) توالت الرحلات البرتغالية في المحيط الهندي فارضة سيطرتها في



منطقة كان النشاط التجاري فيها مقصورا على العرب . اذ تابع ملك البرتغال جهود فاسكودي جاما بارسال حملة أخرى في مارس من عام ٩٠٦ هـ/ ١٥٠٠ م بقيادة بدرو الفاريز جابرال .P.A) (Gabral مهمتها الحصول على قاعدة للسفن البرتغالية في الشرق سواء أكان ذلك عن طريق المفاوضات أم باستخدام القوة المسلحة [١] وقد أفلح جابرال في اقامة مركز برتغالي في كاليكوت سنة ٩٠٧ هـ/ ١٥٠١ م [٢] وأبلغ ملكها برسالة يحرم فيها على العرب الاقامة داخل حدود مملكته كما عرض عليه شراء ما يبيعه للعرب بثمن أفضل [٣] الا ان ملك كاليكوت رفض طلب القائد البرتغالي جابرال ، مما أدى الى مهاجمة الاسطول البرتغالي لمدينة كاليكوت اذ أمطرها بنيران المدفعية البرتغالية وأحرق (٢٩) قطعة بحرية للتجار المصريين وكان بضمنها سفينة السلطان الغوري وهي محملة بالتوابل وتروم الابحار الى ميناء جدة وجميعها كانت راسية في الميناء ومحمله بمختلف السلع التجارية [٤] وقد استنجد ملك كاليكوت بالسلطان قانصوة الغوري سلطان مصر الا ان تأخر الاسطول المصرى في الوصول الى الهند اضطره الى عقد معاهدة صلح مع البرتغاليين الذين عادوا بعدها الى لشبونه ومعهم ١٣ قطعة بحرية مليئة بالبضائع الشرقية الثمينة [٥] .



وترى من خلال ما تقدم ان سياسة البرتغاليين قد تغيرت بعد ان ثبتوا أقدامهم في المراكز التجارية الهندية المهمة حيث كشفوا عن وجههم الحقيقي وعبروا عن أهدافهم الصليبية المبيتة ضد المسلمين، عندما بدأت سفنهم تجوب المحيط الهندي والبحار العربية فما من سفينة عربية عثرت عليها الا ونهبتها وقتلت من فيها كما أصبحت تغير على شواطىء الجزيرة العربية وتقتل وتحرق ثم تهرب [٦] وغدت الأطماع البرتغالية أشد ضراوة وعبروا عن شراستهم ووحشيتهم واستخدموا أشد أنواع الارهاب والقسوة في معاملاتهم مع الموانىء والسفن العربية التى كانوا يعثرون عليها [٧] ولعل ما يشير الى معاملتهم الوحشية الوثائق البرتغالية التى أوردها جوا دي بروس والتى عبر فيها عن أحقادهم الصليبية، معترفا بأعمالهم الوحشية حين قال: « عندما غزا الكفار - وخاصة العرب منهم - وكانوا قد تركوا بلادهم الواقعة في الشرق ووفدوا الى بلادنا في الغرب ... ثم قضت ارادته ان يمارس البرتغاليون حقهم الطبيعي هذا بعد انقضاء قرون عديدة وبالطريقة ذاتها بحد السيف .. ليس في الجزيرة العربية الحدباء حيث دمروا مدنها وأحرقوا منازلها وخطفوا نساءها وأطفالها واستولوا على الثروات والأوطان فيها فقط .. ولكنهم غزوا الفرس .. وقد دفع الفرس ثمن اهانتهم لاسبانيا لأنهم اعتنقوا ديانه أولئك العرب المتخلفين » [٨].

ومن خلال ما تقدم يتضح ان معاملة البرتغاليين لم يكن لها مثيل في القسوة وانعدام الروح الانسانية، وهناك الكثير من الشواهد والأمثلة التى أوردها المؤرخون والتى تدل على وحشية البرتغاليين وقسوتهم، ومن الأمثلة على ذلك ما قام به البوكيرك، عند مهاجمته «قلعة» على الساحل العماني اذ انه أشعل النار في المدينة وأغرق سبعا وعشرين سفينة تجارية كانت راسية في الميناء وتعرض أهل عمان لأبشع أنواع التعذيب على أيدى البرتغاليين الذين قتلوا الأطفال وشقوا بطون السيدات وقطعوا آذان الرجال وأنوفهم وأحرقوا المساجد المقامة على ثغور ساحل عمان » [٩].

أصبح التفوق البرتغالي في مياه المحيط الهندي واضحا على الرغم من بعد البرتغاليين عن بلدهم وقلة عددهم واتساع المنطقة التى كانوا يهدفون للسيطرة عليها الا انهم تمكنوا من فرض الحصار على التجارة الاسلامية، واستطاعوا، مهاجمة السفن العربية ومنعها من المتاجرة في المحيط الهندي، وعند التطلع لمعرفة تلك الأسباب يبدو واضحا تفوق البرتغاليين عسكريا وامتلاكهم السفن الحديثة المزودة بالمدافع والبنادق التى لم تكن معروفة في تلك الاقاليم [١٠].

وفي عام ٩٠٨ هـ/ ١٥٠٢ م جهز ملك البرتغال اسطولا يتألف من عشرين سفينة بقيادة فاسكودي جاما، تحرك من البرتغال واتجه الى المحيط الهندي [١١] وكانت هذه هي الرحلة الثانية بالنسبة لدى جاما، حيث كان يحمل معه تعليمات من أسياده البرتغاليين بتخريب موانىء العرب وتحطيم مراكبهم وسد مدخلي البحر الأحمر والخليج العربي في وجه التجارة البحرية [١٢] ومنع تجارة الشرق من الوصول الى الموانىء المصرية

وكذلك منع السفن المصرية من الوصول الى الهند حتى يتسنى للبحرية البرتغالية السيطرة على تجارة الهند [١٣] ومن أجل تحقيق ذلك الغرض أبقى دي جاما خمس سفن من الاسطول الذى قاده الى الهند ، تجوب مياه المحيط الهندي للقرصنة البحرية وأمرهم بسد مدخل البحر الأحمر أمام السفن العربية الداخلة والخارجة منه [١٤] .

مضت البرتغال بتنفيذ مخططها الاستعماري بعد ان استحدثت منصب نائب الملك البرتغالي في الهند ، حيث أصدر ملك البرتغال في عام ٩١٠ هـ / ١٥٠٤ م تعليماته بتولي فرانسسكو دالميدا هذا المنصب ، وبهذا التاريخ فإن البرتغال تعد أول حكومة استعمارية أوروبية انشأت مستعمرة في الشرق الأقصى ، لحماية مصالحها هناك وتحقق الاحتكار التجاري لسلع الشرق والسيطرة على مصادرها في الهند .

وتتابعت الحملات البرتغالية لترصين مركزهم هناك ، ففي عام ١٥٠٥ م خرج من البرتغال اسطول تعداده (٢٠) سفينة تحمل على ظهرها ١٥٠٠ محارب من بينهم عدد من الجنويين والبنادقة والألمان ، وتم لهم احتلال سفالة وكلوه ، وممباسا التى قاتلهم أهلها قتالا شديدا ، ولم يسلم من أيدي البرتغاليين في ساحل شرقي افريقيا من التخريب والتدمير سوى أهل مالندى الذين تعاونوا معهم في احتلال تلك السواحل [١٥] .

وفي عام ٩١٢ هـ / ١٥٠٦ م عزز ملك البرتغال الحملة السابقة بحملة أخرى مؤلفة من أربع عشرة سفينة [١٦] ، فرض البرتغاليون من خلالها سيطرتهم على سواحل شرقي افريقيا وصاروا يحكمون الجزء الجنوبي منها والمتمثل في سفالة وموزمبيق وكلوه حكما مباشرا تدعمه حصونهم وأساطيلهم المتواجدة في المنطقة ، أما الجزء الشمالي من هذه السواحل ، فكانت سيطرة البرتغاليين عليه غير مباشرة ، اذ ان ذلك لم يتعد وجود جماعات من المستعمرين والتجار دون وجود حاميات وحصون ، ولكنهم كانوا يزورون هذه الموانىء بأساطيلهم ويجمعون الجزية من السلاطين والشيوخ [١٧] ، وأخذت السفن البرتغالية تفرض حصارها على السفن العربية وتتعقبها في مياه المحيط الهندي الى ان يتم لها أسرها أو حرقها أو اغراقها زيادة على نهب بضاعتها وقتل ملاحيها ، مما قلل من ظهور هذه السفن أمام الساحل الهندي [١٨] .

واصل البرتغاليون زيادة نفوذهم البحرى وسيطرتهم على التجارة الشرقية ، وسعوا جاهدين في سبيل تنفيذ سياستهم التوسعية ، فاسندوا الى القائد البرتغالي البوكيرك مهمة تنفيذ المخطط البرتغالي في البحر الأحمر والخليج العربي ، فجهز البوكيرك حملة عسكرية بقيادة نائبه (كرستان داكنها) لاحتلال جزيرة سوقطرة لاتخاذها قاعدة بحرية تنطلق منها السفن البرتغالية لقطع الطريق أمام السفن التجارية العربية القادمة الى خليج عدن ، وتم لهم ذلك في سنة ٩١٣ هـ / ١٥٠٧ م بعد قتال شديد مع أهالي الجزيرة [١٩] .

وفي آب من العام نفسه قام البرتغاليون بمهاجمة السفن التجارية الاسلامية في الطريق الى «هرمز» والهند وقطعوا الطريق

التجاري عبر الخليج العربي وهاجموا مسقط وخورفكان (*) ونهبوا السفن واحرقوها وأسروا بعض التجار وعذبوهم ومثلوا بهم أبشع صور التمثيل [٢٠] وبعد احتلالهم لجزيرة سوقطرة اتضح لهم بأن عدن أكثر اهمية من هذه الجزيرة ، وان احتلالها يهدد تجارة البحر الأحمر بالانهيار ويشل حركتها

وبعد ان عين الفونسو البوكيرك حاكما عاما للقواعد والمراكز البرتغالية على ساحل الهند الغربي في سنة ٩١٥ هـ/ ١٥٠٩ م [٢١] زاد في نشاطه لتحقيق الأهداف الاستعمارية الجديدة والسيطرة على المواقع الاستراتيجية والاقتصادية المهمة وفي اطار هذه السياسة التوسعية احتل البوكيرك في سنة ٩١٦ هـ/ ١٥١٠ م مدينة (جوا)(*) في الهند وجعلها مركزا للحكومة البرتغالية هناك [٢٢] . ثم أعقب ذلك بالاستيلاء على ملقا عام ٩١٧ هـ/ ١٥١١ م في الطريق الجنوبي الشرقي من أسيا والتى تعد من أعظم قواعد التجارة العالمية حيث تتجمع فيها منتجات الهند الصينية بصفة خاصة [٢٣] .

وبرز من خلال سياسة البوكيرك التوسعية انه يتصف بنزعة عدوانية متعصبة ضد المسلمين، وانه كرس جهوده للهيمنة البرتغالية في المحيط الهندى وذلك بالاعتماد على فكرة السيطرة على كل المضايق البحرية التى تقود الى الهند [٢٤] كما سعى للحصول على حلفاء محليين لتحقيق أغراضه العدوانية على البلاد الاسلامية من خلال اقامة العلاقات مع البلاط الحبشي في عام ٩١١ هـ/ ١٥٠٥ م [٢٥] ، وبعد ان سيطر البوكيرك على الطريقين الرئيسيين للتجارة الشرقية أمر بمطاردة السفن الاسلامية في المحيط الهندي من أجل طرد المسلمين من المراكز التجارية الهندية والافريقية ومنعهم من مزاولة النشاط التجاري في المحيط الهندي [٢٦] .

وفي بداية شهر شباط من عام ٩١٧ هـ/ ١٥١٣ م أرسل البوكيرك حملة بحرية مؤلفة من عشرين سفينة حربية تحمل على ظهرها ٢٥٠٠ محارب ، خرجت من (جوا) مركز انطلاق البرتغاليين في المحيط الهندي واتجهت نحو عدن ، وبعد وصول الاسطول البرتغالي الى ميناء عدن ، استولى على السفن الراسية فيه ثم قصفوا المدينة بمدفعيتهم ، مما اضطر حاكم عدن الى العمل على حماية المدينة من تدمير البرتغاليين فعمد أول الأمر الى استخدام اسلوب المهادنة ، فأرسل بعض الهدايا الى البرتغاليين وطلب عقد الهدنة معهم [٢٧] ، الا ان البرتغاليين رفضوا اقتراح حاكم عدن وأنذروه بتسليم المدينة لهم ، ومنحوه مهلة حتى اليوم التالي [٢٨] ولكن حاكم عدن الظافري رفض تسليم المدينة مما دفع البرتغاليين الى تسلق الأسوار والنزول الى

---

* مسقط وخورفكان ميناءان مهمان في مدخل الخليج العربي .

* جوا : أحد الموانيء المهمة في الهند وتطل على ساحل ملبار المطل على بحر العرب .

المدينة وعند ذلك قام أهالي عدن بالدفاع عنها حيث انهم استبسلوا استبسالا رائعا وقاوموا الذين تسربوا الى داخل المدينة واضطروهم للانسحاب منها الى ظهور سفنهم بعد ان فشلوا في الاستيلاء على عدن وفضلوا الانسحاب منها والاتجاه شمالا نحو باب المندب [٢٩] ، وقبل ان ينسحبوا من ميناء عدن أطلقوا نيران مدافعهم على المدينة وأحرقوا السفن الراسية في الميناء ثم توجهوا بعدها نحو جزيرة كمران [*] (قمـران) وسيطروا عليها في نيسان من عام ٩١٩ هـ/ ١٥١٣ م [٣٠] . ومما يذكر بأن البرتغاليين كعـادتهم استخدمـوا سياسـة القسوة والارهاب والقتل مع سكان هذه المدينة ، واستقروا فيها نحو اربعة اشهر وهم في طريقهم الى ميناء جدة لغرض تدميره والعبث بالمقدسات الاسلامية ، الا انهم خابوا في مسعاهم هذا بسبب تعرض اسطولهم لعاصفة شديدة شتتت سفنهم والحقت الدمار بها مما اضطرهم الى العودة ثانية الى جزيرة كمران [٣١] ومنها هاجموا ميناء زيلع وأشعلوا النيران في السفن الراسية فيه ودمروها ، كما قصفت مدافعهم ميناء عدن بعد عودتهم الى الهند [٣٢] .

وعلى الرغم من ان البوكيرك لم يستطع تحقيق نصر عسكري حاسم في البحر الأحمر الا انه استطاع ان يتوغل أول مرة في تلك المنطقة مما ساعد على التعرف على طبيعتها ورسم خطط العمل لمن يأتي من بعده للسيطرة على عدن وإغلاق مضيق البحر الأحمر [٣٣] .

وفي عهد البوكيرك أيضا تم الاتصال بين الحبشة والبرتغال لغرض تنسيق الجهود والتعاون ضد المسلمين وخاصة المماليك الذين كانـوا يساعـدون «الامـارات الاسلامية» التى عاشت صراعا دائما مع الحبشة [٣٤] .

وفي عام ٩٢٣ هـ/ ١٥١٧ م حشد البرتغاليون اسطولا مؤلفـا من أربعين سفينة ، تحمل على ظهرها حوالي ألفين من المقاتلين ، وأوكلت قيادة هذه الحملة الى القائد البرتغالي لوبوسواريز دي البرجوريا (Lopo Soures De Allbergoria) [٣٥] ، وكان هدف هذه الحملة البرتغالية مهاجمة الاسطول المصري في البحر الأحمر وتدميره ومهاجمة ميناء جدة أيضا والوصول الى الحبشة [٣٦] ، وتزامنت هذه الحملة مع النزاع الذى حصل بين السلطان عامر بن عبدالوهاب الطاهري سلطان اليمن وبين القوى البحرية المصرية التى كانت بقيادة الأمير حسين الكردي ، وحاول البرتغاليون استغلال الموقف وأعلنوا أنهم يريدون مساعدة شعب عدن ضد المصريين [٣٧] وقد استقبلوا من قبل حاكم عدن مـرجان الظافري [*] وأجابهم لما طلبوه من المؤن والمرشدين البحريين عندما كانوا متوجهين

* كمران : جزيرة كبيرة مشهورة في البحر الأحمر مقابلة للساحل اليمني .

*** كان الأمير مرجان حاكما «لعدن» في أيام السلطان عامر بن عبدالوهاب ثم استمر في منصبه بعد مقتل هذا السلطان حتى توفي بها سنة (٩٢٧ هـ/ ١٥٢١ م) وقد أطلق عليه مرجان الظافري نسبة الى لقب السلطان عامر (سالم : الفتح العثماني الأول لليمن ، ص٢١) .**

لغزو جدة ، ويفسر بعض الكتاب والمؤرخين استقبال الأمير مرجان الظافري للبرتغاليين وتلبية حاجاتهم والتعاون معهم بسبب خوفه من مهاجمتهم عدن وتدميرها في حالة رفض طلبهم [٢٨] ولكن البرتغاليين فشلوا في حملتهم هذه كما فشلوا في حملاتهم السابقة ، لأنهم وجدوا الاسطول المصري راسيا في ميناء جدة ، وقفلوا راجعين الى جزيرة كمران بعد ان خربوا ميناء زيلع ، وبعد ذلك شتت اسطولهم وشقت الرياح بعض سفنهم ومات عدد كبير منهم في البحر الأحمر [٢٩] ، ويذكر في هذا المجال ان البرتغاليين اتهموا سواريز باضاعة الفرصة التى سنحت لهم في الاستيلاء على عدن ، كما ان ملك البرتغال يرى ان الفشل الذى أصاب البرتغال في عدم تحقيق أهدافها في البحر الأحمر كان بسبب تصرفات سواريز الذى عزله عن منصبه وسحبه من الهند الى البرتغال في ٢٠ من كانون اول سنة ١٥١٨ [٤٠] .

وخلف البوكيرك قائد برتغالي جديد أشد قسوة منه وهو (ديوجو لوبيز دي سكويرا) (Diogo Lopes De Squeira) ويذكر ان سكويرا عمل على تطوير سياسة البرتغال وتوسيعها في المحيط الهندي ، وسمح للسفن البرتغالية التجارية بالمتاجرة مع بلدان شرق افريقيا والهند ، وأمن الحماية لها مما زاد من عددها هناك بحيث انها تمادت في أعمالها وتحولت من سفن تجارية الى سفن قرصنة بحرية ، تنهب السفن التجارية غير البرتغالية التى تعثر عليها وتغير على الشواطىء [٤١] ، وعلى أية حال فقد كان القادة البرتغاليون الذين خلفوا البوكيرك أكثر وحشية منه في معاملتهم لأهالي المناطق التى سيطروا عليها الى الدرجة التى خاطب فيها أهالي المناطق ملك البرتغال باعادة البوكيرك اليهم حيث انهم كانوا يعتقدون بأنه حي ولم يمت [٤٢] .

وبعد ان زاد نشاط البرتغاليين البحري وتوسعت سيطرتهم على أطراف مترامية من المحيط الهندي وشرقي افريقيا عمدوا الى اتباع سياسة استعمارية جديدة تتلاءم وامكانياتهم البشرية [*] وعلى هذا الأساس فقد صور البرتغاليون سياستهم الاستعمارية وجعلوها تعتمد على ثلاثة محاور أساسية نذكرها فيما يأتي :

## المحور الأول :

ويتضمن السيطرة على الطريقين الرئيسيين للتجارة الشرقية بعد إغلاق منفذيهما المؤديين للبحار العربية والمتصلين بمياه المحيط الهندي ، في وجه التجار والملاحين العرب والمسلمين ومطاردة السفن الاسلامية في المحيط الهندي واغراقها ، والعمل على طرد التجار المسلمين من المراكز التجارية الهندية والافريقية ومنعهم من مزاولة النشاط التجاري في المحيط الهندي .

## المحور الثاني :

وهو استيلاؤهم على المحطات التجارية المهمة في المحيط الهندي وعلى ساحل مالابار

* كانت البرتغال لا تمتلك أعدادا بشرية كبيرة تسمح بتهجيرها الى المناطق التى احتلتها وتسكينهم على شكل مستوطنات بعيدة عن الوطن الأم حيث تعداد نفوسها في القرن السادس عشر الميلادي لا يجاوز المليون نسمة (الشناوي : المصدر السابق ص٦٢٢) .

مثل مدينة جوا (Goa) ومدينة ديو (Duo) وغيرهما من المراكز التجارية المهمة وانشاء قواعد عسكرية فيها لاسناد الاسطول البرتغالي أثناء تحركاته في المحيط الهندي لفرض السياسة الاحتكارية بالقوة وعدم السماح للسفن الاسلامية بممارسة أي نشاط ملاحي أو تجاري في هذه المنطقة .

## المحور الثالث :

وهو فرض سيطرتهم على المراكز التجارية الاسلامية الواقعة على الساحل الشرقي للقارة الافريقية والتى أشرنا اليها في الصفحات السابقة من هذا البحث والتى تطل على المحيط الهندي ، وجعلوا منها مراكز تجارية لهم وقواعد عسكرية لامداد اسطولهم أثناء تحركاته في المحيط الهندي [٤٣] .

واستطاع البرتغاليون بعد اتباع هذه السياسة احتكار التجارة الشرقية واحتكار نقلها أيضا الى أوروبا عن طريق رأس الرجاء الصالح ، مما أدى الى الانهيار الاقتصادي السياسي الذى أصاب القوى المحلية المسيطرة على سواحل البحر الأحمر وموانئه وبشكل خاص المماليك والطاهريون [٤٤] .

ولعل الحملات البرتغالية المتعاقبة أسفرت عن نتيجتين خطيرتين أثرتا في الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية للعرب في تلك المنطقة هما :

١ ـ اعتبار وصول البرتغاليين الى المحيط الهندي وشرقي الجزيرة العربية بعد معرفتهم لطريق رأس الرجاء الصالح بداية للأطماع الأوروبية الاستعمارية في هذه المنطقة زيادة على ان نشاطهم البحري قد فتح لهم أفاقا جديدة لم يعرفوها من قبل ، وذلك انهم أدركوا الأهمية البالغة لشرقي الجزيرة العربية من النواحى الاقتصادية والسياسية وكان وجودهم في المنطقة قد وضع نهاية لحصر الازدهار التجاري والملاحي العربي والاسلامي في شرقي الجزيرة العربية مما أصابه بالركود والانكماش [٤٥] نتيجة للسياسة الاحتكارية العدائية التى فرضها البرتغاليون على الحركة التجارية والبحرية للبحر الأحمر .

٢ ـ والنتيجة الثانية التى جاءت بها هذه الحملات البرتغالية هي انتقال مسرح الصراع السياسي والديني بين البرتغاليين والمماليك من منطقة البحر المتوسط الى الساحل الشرقي لافريقيا والهند وشرقي الجزيرة العربية [٤٦] ، وعمدوا الى احراق المدن الاسلامية والمساجد ، والتنكيل بالسكان المسلمين والاستيلاء على السفن التجارية والسفن التى تحمل الحجاج الى بلاد الحجاز وقاموا بأسر ركابها وتعذيبهم وقتل بعضهم واغراق بعضهم الآخر [٤٧] .

وعلى أية حال فقد كان الوجود البرتغالي في الشرق ضربة قاصمة للنشاط التجاري العربي والاسلامي في البحر الأحمر والمحيط الهندي كما كان له الأثر البالغ على الأوضاع السياسية والاجتماعية للعرب والمسلمين في سواحل افريقيا الشرقية وجزيرة العرب والبحر الأحمر وشمال المحيط الهندي ، وبالتالي القضاء على دولة المماليك في مصر .

# موقف القوى المحلية من الغزو البرتغالي

## ١ . موقف المماليك :

كانت الجهود البحرية البرتغالية تهدف الى تحقيق مطامع اقتصادية وأخرى سياسية ومدفوعة بعوامل دينية صليبية كانت امتدادا لتلك الحرب الصليبية التى استمرت طويلا بين الشرق والغرب ، وكانت

هذه الجهود تسير بتأييد وحماس من قبل البابوية [٤٨]. لذا نراهم يتبعون في تحقيق ذلك أقصى أنواع القرصنة البحرية العسكرية، وكما ذكرنا سابقا فإن البرتغاليين ركزوا في خطتهم على تحقيق الحصار الاقتصادي على مصر من ناحية الجنوب والسيطرة على مواطن التوابل وانتزاع احتكارها من العرب وتحويلها الى لشبونه مباشرة، وحرمان مصر والبندقية من أهم مورد لها. وذلك لاضعاف مصر، اقتصاديا وحربيا حتى تصبح عاجزة عن التصدي لأي عمل برتغالي، حيث ان المماليك في مصر يمثلون القوة الاسلامية الكبرى في المنطقة وهي حاملة لواء الجهاد ضد الصليبيين [٤٩].

وكانت هذه التطورات الاقتصادية والسياسية في المنطقة بداية للصراع بين المماليك والبرتغاليين اذ ان دولة المماليك، كانت من أولى الدول التى تأثرت اقتصاديا بتحول طرق التجارة الى الحد الذى أصبح فيه مجيء السفن التجارية الى موانىء مصر نادرا، وأصبح البنادقة لا يجدون ما يحملونه من التوابل والبضائع الشرقية الى أوروبا [٥٠].

وذكر ابن اياس بأن هذه التجارة قد اخذت من العرب الذين كانوا بالأمس سادتها كما أشار الى نقص دخل الدول التى كانت تمر بها التجارة نتيجة للهجمات البرتغالية على موانىء البحر الأحمر الجنوبية [٥١] ولذلك بدأ السلطان المملوكي في اتخاذ الاجراءات اللازمة لايقاف البرتغاليين عند حدهم ولانقاذ مصر من الانهيار الاقتصادي الذى تعرضت له، وقام السلطان الغوري في سنة ٩١١ هـ/ ١٥٠٥ م باعداد حملة بحرية مهمتها تقوية الحكم المملوكي في منطقة البحر الأحمر وتحصين ميناء جدة ثم الاندفاع الى الهند للقضاء على البرتغاليين هناك [٥٢] وفضلا عن جملة العوامل التى حركت السلطان الغوري لمواجهة الغزو البرتغالي، فان استنجاد الأمراء الهنود المسلمين بحكومة مصر كان من العوامل المهمة التى شجعت السلطان الغوري على اعداد هذه الحملة [٥٣] وذكر ابن اياس ما قام به ملوك الهند من ارسال الرسل الى السلطان الغوري لاغاثة المسلمين من عبث البرتغاليين الذين كانوا ينهبون أموال الناس ويلحقون بهم الأذى [٥٤] ويذهب المليباري الى أبعد من هذا عندما أشار في تحفة المجاهدين الى عبث البرتغاليين حين قال: «امتهنوا المصاحف وداسوها بأقدامهم وأحرقوها وحاولوا تنصير المسلمين، واغرائهم بالمال والنساء وقتلوا الحجاج، أو باعوهم عبيدا، نساء وأطفالا ولم يأنفوا من قتل العلماء [٥٥].

وقد وردت الى السلطان الغوري رسائل من ملك الهند، اذ بعث كل من السامري صاحب قاليقوط [٥٦]، ومظفر شاه بن محمد شاه سلطان كجرات* [٥٧] برسائلهم يستغيثون بها السلطان المملوكي قانصوة الغوري لتدارك الموقف واتخاذ الاجراءات الكفيلة بتخليصهم من المخاطر الى تعرضت لها بلادهم وتجارتهم والعمل على تأمين الملاحة في المحيط الهندي والبحر الأحمر وبالوقت نفسه فقد كتب صاحب اليمن السلطان عامر بن عبدالوهاب رسالة الى حكومة المماليك يطلب امداده بالآلات

*** تعد كجرات أهم الممالك الاسلامية على الساحل الهندي الغربي وهي تحتل أقصى شمال الساحل، وعاصمة هذه السلطنة، أحمد أباد، أما أهم موانئها فهي كمبايا وديو وسورات. (سالم: الفتح العثماني الأول اليمن، ص٦٠).**

والمدافع والوقوف في وجه البرتغاليين [58] .

ومن الملاحظ ان هذه الممالك الاسلامية عندما أحست بالخطر الذى هدد مصالحها ، استنجدت بالسلطان الغوري وذلك لأن دولة المماليك في تلك الفترة كانت تمثل أكبر قوة اسلامية في المنطقة لامتلاكها الأسلحة النارية التى لا توجد عند غيرها من القوى المحلية في المنطقة كما انها كانت أكبر دولة ذات مصالح اقتصادية مباشرة مع الهند [59] .

اقلع الاسطول المملوكي من ميناء السويس في ٦ جمادى الآخرة من سنة ٩١١ هـ/ المصادف الرابع من تشرين الثاني لسنة ١٥٠٥ م [60] ، وعين قانصوة الغوري الأمير حسين الكردي قائدا له ، حيث كان هذا الاسطول مؤلفا من خمسين سفينة ، ولم تشر المصادر التاريخية الى عدد جنود هذه الحملة ، ويذكر انهم كانوا من المماليك السلطانية وعدد من أولاد الناس (أبناء المماليك) الذين يجيدون استخدام الأسلحة النارية [61] وكان المغاربة يؤلفون أغلب أفراد هذه الحملة لأنهم كانوا ذوي خبرة في القتال البحري ، واستخدام المدافع فضلا عن كونهم بحارة ماهرين [62] .

ويروي ابن اياس بأن حملة حسين الكردي المتوجهة الى جدة قد اصطدمت بأمير ينبع يحيى بن سبع وقتلت عددا كبيرا من اتباعه وأحرقت الدور التى على ساحل البحر الأحمر في ميناء ينبع وخربوا الدكاكين وشتتوا العربان [63] ويبدو لي من خلال هذا الحدث ان أمير ينبع لم يكن خاضعا لسلطة المماليك في مصر قبل مجيء حسين الكردي الذى حسم الموقف في ينبع لصالح دولة المماليك وتوجه الى جدة لغرض تحسين مينائها وحمايته من خطر البرتغاليين الذين ما لبثوا ان أعلنوا عزمهم **لمهاجمة المدن** المقدسة وتدميرها ، وما ان وصل الأمير حسين الكردي الى جدة حتى باشر ببناء سور ضخم ذي أبراج عالية حول مينائها [64] وأشارت المصادر التاريخية الحديثة الى ان الأمير حسين الكردي قد بالغ في بناء سور جدة حيث انه هدم كثيرا من بيوت الناس التى تقع بالقرب من موضع السور واستخدم عامة الناس في البناء زيادة على الاعداد الكبيرة من البنائين والنجارين وغيرهم من الفنيين الذين جلبهم معه الى جدة ، واستطاع ان يتمم بناء بناء السور والأبراج في أقل من عام وذلك في ذي الحجة من سنة ٩١٢ هـ/ ١٥٠٧ م [65] .

ومن جدة توجه الكردي الى «سواكن» فاستولى على مينائها دون ان يقاوم أهلها [66] وأقام بعض الاستحكامات فيها من أجل تأمين البحر الأحمر ثم توجهت الحملة الى الموانىء اليمنية ، فمرت بجيزان ثم بجزيرة كمران الى (المخا) بعدها استقرت بعض الوقت في ميناء عدن ، بعد وصولها اليه في ربيع الآخر من عام ٩١٣ هـ/ ١٥٠٧ م [67] .

وقد أوضح حسين الكردي لوالي عدن ان الغرض من الحملة التوجه الى الهند لمحاربة البرتغاليين [68] كما طلب أن يمده بالطعام والمؤن اللازمة لذلك فأجابه الوالي لما أراد وأمر بأن يأخذ من عدن ما يحتاج اليه لأنه أعطى وعودا سابقة للمماليك بمساعدة الاسطول المصري في حربه مع البرتغاليين [69] وقد وصف المؤرخ اليمني أبو مخرمة الذى عاصر الفترة موضوع البحث الاستقبال الذى قوبل به حسين الكردي في عدن حيث قال : «وفي الشهر المذكور ربيع الآخر سنة ٩١٣ هـ/

١٥٠٧ م) كان وصول الأمير حسين المصري في ثلاث يومات وثلاثة أغربة من جدة الى الجهات اليمانية ، ولم يعلم احد مقصوده حتى مر بباب المندب ، فلما قرب من مدينة عدن ، أرسل قاصدا من قبله في سنبوق الى الأمير مرجان الظافري ، يستأذن في الدخول الى (حقات) ، فاذن له ، فدخل في غاية ما يكون من الأدب .. فلما استقربالبندر ، أرسل اليه الأمير مرجان بسؤاله ، النقيب عبدالقادر فرج النجاشي والنقيب جابر البعداني ، فلما وصلا اليه أكرمهما وكساهما ، وقال بلغا الأمير مني السلام وعرفاه ، لولا اني مأخوذ علي من قبل السلطان قانصوة أن لا أدخل عدن لدخلت ومثلت بين يديه ، ولكن لا يمكن مخالفة أمر السلطان واستأذن في شحنه ما يحتاجه من الماء والحطب وغير ذلك ، فاذن له الأمير مرجان بذلك ...» [٧٠] ، وبعدها تحرك الاسطول المصري من مياه عدن واتجه الى الهند حيث وصل الى ميناء كجرات الهندي في أواخر سنة ٩١٣ هـ/ ١٥٠٧ م [٧١] ، وتشير المصادر التاريخية الى ان سلطان كجرات مظفر شاه قد رحب بالأمير حسين الكردي حين قدومه [٧٢] وسرعان ما تعاونت معه أساطيل المسلمين في الهند ضد الوجود البرتغالي ، واتحدت هذه القوى الاسلامية تحت قيادة الأمير حسين الكردي ، وبعد ان اشتبك الاسطولان في معركة بحرية تمكن حسين الكردي من تحقيق انتصار رائع على الاسطول البرتغالي في موقعة شول البحرية (Chaul) (*) سنة ٩١٣ هـ/ ١٥٠٨ م ويذكر ان في هذه المعركة كان لورنزوا قائد الاسطول البرتغالي من بين القتلى [٧٣] مما أثار غضب والده فرانسسكو دالميدا ودفعه الى ان يقسم قسما كبيرا للانتقام من المسلمين لمقتل ولده [٧٤] وأعد عدته وخرج على رأس اسطول برتغالي مكون من تسع عشرة سفينة واشتبك مع الاسطول المصري وحلفائه في موقعة ديو البحرية في الثالث من شباط عام ٩١٥ هـ/ ١٥٠٩ م دمرت فيها معظم السفن المماليكية والهندية المتحالفة [٧٥] ويذكر زين الدين في تفاصيل مهمة عن هذه المعركة ، ان الاسطول البرتغالي كان قد انتهز فرصة لجوء الاسطول المماليكي والاسطول المتحالف الى جزيرة ديو للتموين ولاصلاح بعض سفنهما ، وقام بمفاجاتهما من الخلف وحدثت معركة بحرية ضارية انتصر فيها البرتغاليون وقتلوا الكثير من بحارة الأمير حسين الكردي وأرغموه على الانسحاب بما تبقى من سفنه والعودة الى جدة لتقوية تحصيناتها وحماية المقدسات الاسلامية حيث انهم كانوا يتوقعون وصول البرتغاليين الى البحر الأحمر [٧٦] .

وقد اختلف المؤرخون في تحليلهم لهزيمة الأمير الكردي أمام البرتغاليين في معركة ديو رغم الانتصارات التى حققها في موقعة شول التى سبقتها بعام تقريبا فقد أشار المليباري في تحفة المجاهدين الى ان سبب ذلك يكمن في الغرور الذى أصاب حسين الكردي وجعله يرفض الاستماع الى نصيحة حاكم ديو الذى أشار عليه بعدم الخروج الى عرض البحر لملاقاة البرتغاليين بل الانتظار في مياه ديو لحماية ظهور السفن [٧٧] كما يشك المليبارى بخيانة حاكم ديو (مالك آياس) لحليفه حسين الكردي واتصاله بالبرتغاليين

(*) يقع ميناء شول (Chaul) على الشاطىء الغربي للهند الى الجنوب من سلطنة كجرات وكان يتبع مملكة الدكن الاسلامية .

بشكل سري ، ومما يؤيد شكوكه ان البرتغاليين لم يتعرضوا لسفن مالك آياس بسوء بل ركزوا هجومهم على السفن المصرية ، كما انه قام بتسليم كل الذين كان حسين الكردي قد قبض عليهم وحبسهم من البرتغاليين زيادة على ارساله الهدايا الى دالميدا من المؤن والذخائر الى الاسطول البرتغالي (٧٨) .

أما المؤرخ البرتغالي باربوسا (Barbosa) فقد علل لجوء حاكم ديو (مالك آياس) الى عقد معاهدة الصلح مع البرتغاليين بسبب ضعفه وإدراكه للأمر الواقع بعد ان أخذ بعين الاعتبار مصلحة بلده لذلك سارع في ارسال رسله الى (دالميدا) ليعبر فيها عن رغبته في السلام (٧٩) .

وبعد ان تحقق للبرتغاليين الانتصار على المصريين في موقعة ديو البحرية زاد نشاطهم في المحيط الهندي ووضعوا أيديهم على مصادر التوابل واحتكروا التجارة هناك وأخذت سفنهم تراقب مداخل البحر الأحمر لمنع السفن الاسلامية من الدخول أو الخروج منه بعد ان تيقنوا من ضعف الاسطول المملوكي وعمدوا الى الاعتداء على المناطق العربية في عدن والبحر الأحمر (٨٠) .

لم تثن عزيمة المماليك الهزيمة التى لحقت بهم في موقعة ديو البحرية عام ٩١٥ هـ/ ١٥٠٩ م بل سعى السلطان الغوري لانشاء اسطول بحري ثان لمواجهة هذا الموقف المتطور ، ومن أجل ذلك اتصل بأطراف مختلفة لاعانته في اعداد حملة السويس الثانية ، ففي أيلول من عام ١٥١٠ م اتصل السلطان الغوري بالبنادقة لمباحثتهم حول امداده بالأخشاب والأسلحة والمعدات اللازمة لبناء سفن الاسطول المصري الجديد ، وبعد ان أرسل البنادقة هذه الامدادات اعترضها فرسان القديس يوحنا وأحرقوا بعضها واستولوا على البعض الأخر ولم تصل الى مصر سفينة واحدة من هذه السفن (٨١) كما اتصل قانصوة الغوري بالسلطان العثماني بايزيد الثاني (١٤٨١ - ١٥١٢ م) من أجل ان يشترى من العثمانيين ما يحتاجه من أخشاب وأدوات لبناء الاسطول المصري (٨٢) وفي شوال من عام ٩١٦ هـ/ ١٥١١ م استجاب السلطان بايزيد العثماني لطلب قانصوة الغوري ووصلت الى مصر سفن عثمانية عدة وهي تحمل الأخشاب والحديد والبارود والبنادق والكاحل والمجاذيف والسهام والحبال والمراسي وغير ذلك من عتاد الحرب ، وكان مضافا اليها نحو ألفين من البحارة العثمانيين بقيادة سلمان الريس للمساعدة في اعداد الاسطول في ميناء السويس والمشاركة في الحملة البحرية المنتظرة الى الهند (٨٣) ، ويشير ابن اياس في حديثه عن حملة السويس الى اهتمام السلطان الغوري بسلمان الريس وجماعته ، فقد ذهب الى السويس بنفسه للاحتفال بانزال سفن الاسطول الى البحر ، ووصف ذلك بقوله : «وكان هناك الريس سلمان العثماني وجماعة من العثمانية البحارة (*) فقصد السلطان اظهار العظمة لأجل جماعة ابن

(*) ينسب ابن اياس أصل هؤلاء البحارة الذين أرسلهم السلطان العثماني والذين رافقوا سلمان الريس الى عثمانيين ومغاربة وان خمسمائة منهم كانوا من المماليك وأولاد الناس (ابن اياس : بدائع الزهور ، حـ ٤ ، ص٤٦٠) .

عثمان حتى قيل : «دخل العسكر الى السويس وهو لابس آلة الحرب وكانت جماعة ابن عثمان هناك نحو ألفي انسان ...» [٨٤] .

وتشير بعض المصادر التاريخية الى ان المماليك كانوا يديمون الصلة بأمراء الممالك الاسلامية في الهند وكانوا يثيرون حماسهم الديني من أجل التعاون معهم ومساعدتهم في تحصين مدينة جدة وحماية المقدسات الاسلامية التى كان البرتغاليون يهددون باستمرار بالوصول اليها وتدميرها ، وقد اسفرت هذه المساعي عن قيام سلاطين الممالك الاسلامية في الهند بتقديم كميات كبيرة من التوابل والاقمشة وغيرها من منتجات «كامباي» شحنت هذه المساعدات على متن ثلاثة مراكب من الهند الى جدة مساهمة منهم في تقوية سور جدة وتحصينها وحمايتها من التهديد البرتغالي [٨٥] .

وزيادة على ذلك كان دخول الاسطول البرتغالي الى البحر الأحمر سنة ٩١٩ هـ/ ١٥١٣ م قد أثار مخاوف القوى المحلية والاسلامية وأحدث رد فعل عنيفا في المنطقة ، مما دفع أمير مكة الشريف بركات للتوجه الى جدة ومخاطبة الغوري وابلاغه بخطورة الموقف والطلب منه الاسراع في ارسال الامدادات الى جدة لمنع نزول البرتغاليين اليها [٨٦] .

ونتيجة للحصار الذى فرضه البرتغاليون على عدن والبحر الأحمر بعد دخولهم المنطقة ومحاصرتها فقد حدثت تطورات وأضرار كبيرة في الاقتصاد المصري وأصبحت تجارة المماليك تواجه ظروفا صعبة ومعقدة أشار ابن اياس اليها في حوادث سنة ٩٢٠ هـ حيث قال : «وكان في تلك الأيام ديوان المفرد وديوان الدولة وديوان الخاص في غاية الانشجاب والتعطيل ، فان بندر الاسكندرية خراب لم تدخل اليه البضائع في السنة الحالية وبندر جدة خراب نحو من ست سنين [٨٧] .

وفضلا عما ذكرناه فان الاسطول المملوكي الذى أعده الغورى في السويس لمواجهة البرتغاليين وحماية البحر الأحمر قد انتهى من اعداده في بداية عام ٩٢١ هـ/ ١٥١٥ م ، وكان حصيلة ذلك العمل بناء عشرين سفينة حربية [٨٨] .

وتتابعت الامدادات العسكرية الى قوات الأمير حسين الكردي ، حيث أرسل الغوري اسطولا آخر في حزيران من عام ٩٢٠ هـ/ ١٥١٤ م ، والحقه باسطول ثالث في تموز من عام ٩٢١ هـ/ ١٥١٥ م بقيادة سلمان الريس [٨٩] ، وتجمعت كل القوات التى أرسلت من السويس في ميناء جدة وظلت فيها طوال شهر رمضان ، ثم أبحرت بعد عيد الفطر وفي السنة نفسها بقيادة الأمير حسين الكردي ويساعده الأمير سلمان الريس [٩٠] .

لكن الحملة المملوكية التى كان هدفها ملاقاة البرتغاليين وطردهم من المنطقة واستعادة سيادتهم السياسية والاقتصادية في البحر الأحمر والمحيط الهندي قد فشلت وانتهى أمرها الى حدوث صراع مرير بين المماليك الجراكسة وبين السلطان اليمني عامر بن عبدالوهاب ، وفشل الاسطول المصري في التوجه الى الهند [٩١] .

ونتيجة لعوامل عديدة كانت قد واجهت

حملة المماليك وغيرت من سياستها وأهدافها وجعلتها تتوقف عند عدن دون ان تواصل هجومها الى الهند ، وتغير سياستها العسكرية من سياسة هجومية الى سياسة دفاعية ، والمتبصر في هذا الأمر يجد ان بعض المصادر التاريخية التى تحدثت عن هذه الحملة ، حددت بعض الاتجاهات التى أدت الى تلك النتيجة وأهم هذه الاتجاهات ما يأتي :

١ ـ تأكيد بعض المصادر التاريخية على ان السبب الرئيسي في عدم تحقيق الأمير حسين الكردي هدفه بالوصول الى الهند هو الخلاف الذى وقع بينه وبين سلمان الريس ، الذى أدى الى انقسام الاسطول المملوكي بحيث توجه سلمان الريس الى زيلع ومنها الى جدة في حين عاد الأمير حسين الكردي الى جدة ، بعد مروره بالموانيء اليمنية الواقعة على ساحل البحر الأحمر ، ومما يستدل على خيانة سلمان الريس ، انفراده بقيادة الاسطول المرابط في جدة وتنفيذه أوامر السلطان سليم بالقبض على الأمير حسين الكردي واغراقه في البحر الأحمر أمام ميناء جدة [٢٢] . وكان ذلك بعد استيلاء العثمانيين على مصر وقضائهم على دولة المماليك الجراكسة .

٢ ـ أما العامل الثاني فهو عدم تعاون السلطان اليمني عامر بن عبد الوهاب ، الذى استنجد بالمماليك في بداية الأمر وخاصة بعد هجوم البوكيرك على عدن سنة ٩١٩ هـ/ ١٥١٣ م [٢٣] ولكنه سرعان ما تراجع عن الوفاء بعهده للغورى بتقديم المساعدات الى الاسطول المملوكي ورفض ان يتخذ الاسطول المصري قواعده في اليمن وكذلك احتجاز السفن الواردة بالمؤن ومنعها من الوصول الى الاسطول المصري في كمران [٢٤] . ونتيجة للأسباب السالفة الذكر قام الغوري بتحقيق ما يريده عن طريق القوة حيث وجه قواته المعدة لمحاربة البرتغاليين للقيام بالسيطرة على بعض الموانىء اليمنية ، بعدها استطاعت هذه القوات السيطرة على المدينة بعد ان لاقت مقاومة عنيفة من سكانها ، مما اضطرها الى الانسحاب من عدن في العام نفسه .

وفضلا عما ذكر من العوامل والاتجاهات التى عرقلت المماليك عن أداء مهمتهم في مواجهة البرتغاليين في الهند فان بعض المؤرخين يشكون في نزاهة الأمير مرجان الظافري حاكم عدن ويتهمونه بالخيانة بسبب عقده الاتصالات مع البرتغاليين واجابته لمطالبهم والتواطؤ مع سواريز قائد الاسطول البرتغالي وتسهيل مهمة دخوله البحر الأحمر الى الحد الذى عرض عليه مفاتيح المدينة [٢٥] .

وخلاصة القول فان موقف المماليك في مصر تجاه الغزو البرتغالي كان ضعيفا بسبب جملة عوامل تعرضت لها دولتهم في بداية القرن السادس عشر الميلادي يمكن اجمالها بما يأتي :

١) اضطراب الأوضاع السياسية لدولة المماليك بسبب الصراعات الداخلية بين الأمراء أنفسهم وحدوث الثورات في الاقاليم التابعة لهم وتعرض السواحل الشمالية لهجمات القراصنة الأوروبيين وعلى رأسهم «فرسان القديس يوحنا» الذين كانوا في جزيرة (رودس) [٢٦] .

وأشار ابن اياس الى ذلك وأوضح بأن

قانصوة الغوري كان أثناء اعداده الحملة لمواجهة البرتغاليين في الهند قد أعد حملتين لاخماد ثورات العربان في الداخل . احداهما أرسلها إلى (الكرك) بالشام والأخرى ارسلها الى (ينبع) بالحجاز [٩٧] .

يضاف الى ما سبق ذكره من أسباب سوء الأحوال الاقتصادية لدولة المماليك بسبب تحول التجارة العالمية عن طريق البحر الأحمر والخليج العربي الى طريق رأس الرجاء الصالح وحرمان دولة المماليك من مصدر مهم من مصادر ثروتها .

٢) والعامل الثاني الذى أثر على موقف المماليك من الغزو البرتغالي هو ان دولة المماليك تمتاز بكونها دولة برية وليست بحرية اذ كان المماليك فرسانا وليسوا بحارة ، ولما كان الصراع بين الطرفين صراعا بحريا لذا استوجب من المماليك بناء اسطول حربي لمواجهة الموقف الجديد مع العلم ان دولتهم لم تكن تملك الأخشاب اللازمة لبناء هذا الاسطول ، بل كانت تجلب الأخشاب والفنيين والصناع من الخارج ، وبشكل خاص من دولة البندقية التى كانت تعاني هي الأخرى من الوجود البرتغالي بسبب انتقال مركز الثقل التجاري الى طريق رأس الرجاء الصالح وتأثر مصالحها التجارية من جراء ذلك [٩٨] .

ومن خلال ما تقدم يتضح للباحث أن الجهود المتواضعة التى بذلها المماليك المصريون في مواجهتهم للخطر البرتغالي كانت بدوافع اقتصادية ، اذ كان يدفعهم الى ذلك رغبتهم الشديدة في حماية تجارة الهند المارة عبر البحر الأحمر والتى كانوا يحصلون من وارداتها سنويا على أرباح طائلة وبشكل خاص تجارة التوابل .

## موقف اليمنيين من مواجهة الغزو البرتغالي

ان أهم القوى المسيطرة على البحر الأحمر والمحيط الهندي في مطلع القرن السادس عشر هي مصر في سواحل البحر الأحمر الشمالية واليمن في سواحله الجنوبية [٩٩] وقد تزامن وجود هاتين القوتين مع وصول البرتغاليين الى مياه المحيط الهندي والبحر الأحمر وتحويلهم تجارة الشرق الى طريق رأس الرجاء الصالح الذى أدى الى اضعاف دور البحر الأحمر التجاري والذى أضعف أيضا بدوره الاقتصاد المصري واليمني .

وعند دراسة موقف أهل اليمن من الغزو البرتغالي الذى هدد مصالحهم التجارية نجد ان هذا الموقف كان يتصف بالضعف والتهاون الى الحد الذى يوصف بأنه أقل ايجابية من موقف المماليك في مصر [١٠٠] .

ورغم ذلك فان اليمن اهتمت بالغزو البرتغالي ، ولكن امكانياتها البحرية كانت ضئيلة ، انها لا تملك اسطولا حربيا يقوى على مواجهة القوة البرتغالية [١٠١] . ولم يقف اليمنيون مكتوفي الأيدي تجاه الغزو البرتغالي ، فقد أعد السلطان عامر بن عبدالوهاب في عام (٩١٢ هـ/ ١٥٠٧ م) حملة بحرية على الرغم من ضعف امكانيات اليمن الحربية والمالية ، وكانت هذه الحملة مؤلفة من أربع عشرة سفينة تحمل على ظهرها ستمائة مقاتل [١٠٢] ، وتشير المصادر التاريخية الى ان بعض رجال الحملة كانوا من الفقهاء وطلبة العلم الذين تطوعوا للجهاد ضد البرتغاليين [١٠٣] . الا ان أخبار هذه الحملة البحرية لم يعرف عنها شيء

وأغلب المؤرخين يعتقدون بأن هذه الحملة الصغيرة وقعت فريسة سهلة للبرتغاليين في المحيط الهندي [١٠٤] ، غير ان المؤرخين يشيرون الى ان بعض سفن حملة عامر بن عبدالوهاب قد التحقت باسطول الأمير حسين الكردي في المحيط الهندي [١٠٥] ومن المرجح ان هذه الحملة المتواضعة قد دمرت من قبل البرتغاليين في عرض المحيط الهندي وذلك لأن سفن هذه الحملة كانت عبارة عن سفن نقل عادية لا تتناسب مع السفن البرتغالية الحديثة ، التى تحمل المدافع والأسلحة النارية [١٠٦] في الوقت الذى كان فيه اليمنيون يستعملون السلاح الأبيض في حروبهم حيث انهم لم يعرفوا بعد البنادق والرصاص [١٠٧] .

وبالنظر لأهمية ميناء عدن التجاري وموقعه من مدخل البحر الأحمر فقد عزم البرتغاليون على الاستيلاء عليه ثم السيطرة على جدة من بعده ومن ثم تحقيق التحالف مع الحبشة لكسر شوكة المسلمين هناك [١٠٨] . وخططوا لتحقيق اهدافهم العدوانية التوسعية للسيطرة على عدن بعد ان تمت لهم السيطرة على جميع مراكز تجارة التوابل من (ملقا) الى هرمز الى سوقطرة .

وفي عام ٩١٩ هـ/ ١٥١٣ وصلت السفن البرتغالية الى ميناء عدن حيث استولوا على السفن الراسية فيه وباشروا في قصف المدينة بنيران مدفعيتهم [١٠٩] وقد أخاف هذا العمل حاكم عدن وخشى تدمير البلاد فأرسل بعض الهدايا الى قائد الحملة وطلب منه عقد الهدنة الا ان البرتغاليين رفضوا طلب حاكم عدن مرجان الظافري وأنذروه بتسليم المدينة وهددوه بالاستيلاء عليها بالقوة [١١٠] لكن أهل عدن رفضوا الاستجابة للتهديد البرتغالي واستبسلوا استبسالا رائعا للدفاع عن بلدهم بالهجوم على البرتغاليين الذين تسلقوا أسوار المدينة حيث أجبروهم على الهرب منها والعودة الى سفنهم خائبين دون ان يحققوا هدفهم بالاستيلاء على عدن [١١١] .

وتشير بعض المصادر التاريخية الى ان السلطان عامر بن عبدالوهاب حاكم اليمن كان قد أرسل جنوده لمساعدة حامية عدن وان الأمير مرجان الظافري أمر بتحصين المدينة جيدا وكذلك طلب من اليمنيين عدم منازلة البرتغاليين في معركة بحرية نظرا لقوة الأساطيل البرتغالية [١١٢] وبعد ان فشل البرتغاليون في حملتهم هذه غطوا فشلهم بتدمير السفن الراسية في الميناء ثم انسحبوا بعدها نحو باب المندب [١١٣] .

وأورد ابن الديبع في حوادث ٩١٩ هـ/ ١٥١٣ م تفصيلات مهمة عن موقف أهل اليمن من الغزو البرتغالي حيث قال : «وفي أثناء المحرم من سنة تسع عشرة وتسعمائة ، وصل العلم الى مولانا السلطان بقدوم ثمانية عشر مركبا الى بندر عدن فيها جمع عظيم من الأفرنج ، فجهز السلطان عسكرا الى ثغر عدن وأمر بالتخطيط والتحرز فيه وفي سائر البنادر ، وأمر بالقنوت عليهم بالصلوات الخمس وفي خطبة الجمعة ... فركب مرجان ولم يكن بها فارس غيره ، فقاتلهم وقاتل معه أهل المدينة ، فنالوا من المسلمين ، ثم كانت الدائرة عليهم ، فهزموا هزيمة منكرة وقتل منهم جماعة ، فرجعوا منهزمين لا يلوون على أحد ، وانكسر جمعهم وأخذت دروعهم وسلاحهم وأصبح حزب الله هم الغالبون [١١٤] .

وبعد ان فشل البوكيرك في مهاجمة جدة عاد ثانية الى جزيرة كمران فبقى فيها أكثر من شهرين [١١٥] ، ولما تعذر عليه الاتصال بحلفائه الاحباش المسيحيين عمل خطته التدميرية في موانيء البحر الأحمر التى وصلها في عودته حتى وصل عدن ثانية فضربها بالمدفعية [١١٦] ، الا ان أهلها أبدوا بطولة رائعة وشجاعة فائقة وحماسا شديدا في الدفاع عنها ، وأكد ذلك ابن الديبع في الفضل المزيد بقوله : «... ثم انهم نزلوا ليلا في السنابيق ففطن بهم أهل عدن ، فخرجوا لهم خفية وثاروا عليهم فهزموهم وقتلوا منهم جماعة وجرحوا آخرين . فلما انقطع رجاءهم من المدينة وتحققوا ان حزب الشيطان لا يقاوم حزب الرحمن رحلوا خائبين ...» [١١٧] واستطرد ابن الديبع في وصفه شجاعة أهل اليمن وبطولتهم اذ قال : «وقد استعد أهل عدن بسلاحهم ورتبوا في الساحل ، فنزلوا من سنابيقهم الى العراء رجاله مستعدين للحرب بالسلاح وغيره ... فلما نزلوا بالساحل ثار عليهم المسلمون من كل جانب وضربت المدافع من البلد ومن مراكبهم وكانت صيحة عظيمة وفتنة قوية فنصر الله المسلمين ....» [١١٨] .

وعلى اثر هذه المقاومة التى نظمها الأمير مرجان الظافري ضد الغزو البرتغالي في عدن فقد خابت آمال البوكيرك وفشلت أهدافه العدوانية التى كان يسعى بموجبها الى التنكيل بالمسلمين من جهة وارضاء الأحباش الذين أراد ان يكونوا عملاء تجاريين في منطقة البحر الأحمر من جهة ثانية .

وكان لأهل عدن تاريخ يذكر في مقاومة الحملة البرتغالية التى قادها لوبو سواريز (Lopo Soares) عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م ، والتى استغل فيها البرتغاليون الصراع الذى كان قائما بين المماليك وحاكم اليمن ، كما انهم كانوا على علم بالأضرار البالغة التى لحقت بحامية عدن وبتحصيناتها الدفاعية من جراء هذا الصراع . فعند وصول حملة سواريز الى سواحل ميناء عدن أعلن انه جاء لمساعدة أهل اليمن ضد المماليك الجراكسة [١١٩] . وبعد ان وصل الى ميناء عدن ، اجتمع الأمير الظافري بوجهاء مدينة عدن وبعد التشاور معهم اتفقوا على تسليم المدينة للبرتغاليين حفاظا عليها من الدمار والخراب وكذلك لأرواح سكان عدن [١٢٠] واذا كان هذا القول صحيحا فان تفسيره يعزى لثلاثة أسباب لا بد من ذكرها .

١) استياء أهل عدن من المماليك الذين دمروا تحصينات المدينة بمحاولاتهم المتكررة لغزو عدن وتخريبها ، وانهم أرادوا من تحالفهم مع البرتغاليين ازعاج المماليك واغاظتهم ، كما ان هناك احتمالا ، مفاده ان أهل عدن كانوا يفضلون ان يجابهوا عدوا واحدا من ان يجابهوا عدوين قويين .

٢) ربما ان الأمير مرجان الظافري كان يعرف ان اهتمام البرتغاليين ليس بمدينة عدن فقط وانما الاندفاع داخل البحر الأحمر للوصول الى مدينة جدة وتدميرها لذلك عمد الى اتباع سياسة المهادنة لاستغلال الوقت واكمال تحصينات المدينة والاستعداد للدفاع عنها ، كما حصل فيما بعد .

٣) اما الاحتمال الأخير فهو أن مرجان

عرض تسليم عدن على البرتغاليين ليثير المصريين ويدفعهم الى القيام بهجوم قد يحطم قوى الطرفين أو على الأقل يحطم طرفا ويضعف الطرف الآخر فيستطيع مرجان ان يقاوم الطرف المنتصر بعد اعادة تحصينات عدن .

ومن جانب آخر تشير بعض المصادر التاريخية ان الظافري استقبل البرتغاليين والدموع في عينيه من الذل والقهر ، ولكن لوبو سواريز جعل المدينة بيد الظافري وأجل الاستيلاء عليها الى حين رجوعه من جدة [١٢١] . وفي هذه الأثناء استغل الأمير مرجان الظافري فرصة انشغال البرتغاليين في مطاردة الاسطول المصري داخل البحر الأحمر وعمل جاهدا على تقوية تحصينات الميناء واصلاح ما ضربه الاسطول المصري كما انه استطاع تعبئة رجال القبائل من المناطق المحيطة بعدن وتنظيمهم للدفاع عنها ، فضلا عن ذلك فقد وصلت النجدة العسكرية من مدينة الشحر .

وعند عودة سواريز الى عدن بعد فشله في مهمته طلب من الظافري تسليم المدينة الا ان هذا الأخير رفض طلب سواريز وهو واثق من قوة مواقعه الدفاعية ، لذلك غادر سواريز عدن الى ميناء بربرة الصومالية وأحرقها تغطية لفشله الذريع في حملته [١٢٢] .

يلاحظ مما تقدم انه تم للبرتغاليين خلال هذه الفترة السيطرة على مصادر التجارة في الهند ، جزر الهند الشرقية وساحل افريقيا الشرقية ، كما انهم نجحوا في نقل المعركة البحرية الى المناطق العربية نفسها سواء أكانت في الخليج أم في البحر الأحمر ، كما ان جهود هذه القوى المحلية من مماليك ويمنيين قد انتهت بالفشل في ايقاف النشاط البرتغالي البحري أو منع تحول التجارة الى طريق رأس الرجاء الصالح وانتهى صراع القوى المحلية الى فقدان مصر واليمن استقلالهما ووقوعهما تحت السيطرة العثمانية.

# الهوامش

(١) زين الدين المليباري : «تحفة المجاهدين في بعض أحوال البرتغاليين» (لشبونة ـ ١٨٩٨ هـ) ص٣٧ .
(٢) المصدر السابق ، ص٢٢ .
(٣) المليباري : المصدر السابق ، ص٣٧ .
(٤) صفوت بك : «وثائق تركية» ص٣ .
(٥) المصدر السابق ، ص١٦ .
(٦) محمود السمرة : «الصراع بين العرب والبرتغاليين في شرق افريقيا» مجلة العربي : الكويت العدد/٥٩ سنة ١٩٦٣ ، ١٣٢ .
(٧) صفوت بك : المصدر السابق ، ص١٦ .
(٨) جواد دى بروس : «الوثائق البرتغالية» العشارية الثانية ـ القسم الأول ص١ .
(٩) عبدالعزيز محمد الشناوي : «معالم الوجود البرتغالي في شرقي الجزيرة العربية» لجنة تدوين تاريخ قطر ـ حـ٢ ـ ١٩٧٦ ـ ص٦٢٥ .
(١٠) Serjeant : Ibid, p. 42
(١١) صفوت بك : المصدر السابق ، ص٦ ، أنظر أيضا عبدربه : المصدر السابق ص٣٠٧ .
(١٢) Serjeant, Op, Cit, p.169
(١٣) شهاب : «فن الملاحة عند العرب» ص٤٦ .
(١٤) Serjeant : Op, Cit, p.169
(١٥) الغول : المصدر السابق ، ص١٠٨ .
(١٦) محمود : المصدر السابق ، ٢٢١ .
(١٧) Serjeant : R.B : OP, Cit, p.14
(١٨) Ibid : P.11O
(١٩) Serjeant: R.B. Ibid,P.136

(٢٠) محمود السمرة : المصدر السابق ، ص١٣٣ .
(٢١) جوا دي بروس : «الوثائق البرتغالية» الفصل الثاني ص٩١ ـ ٩٤ ، ٩٥ ـ ١٢٢ .

(٢٢) Serjeant : R.B : Ibid, P. 110.
(٢٣) شارل ديل : «البندقية جمهورية ارستقراطية» ص١٤٨ - ١٤٩ .
(٢٤) شارل ديل : المصدر نفسه ، ص١٤٩ .
(٢٥) Serjieant : R.B : OP, Cit, P. 112.
(٢٦) سالم : المصدر السابق ، ص٥٣ .
(٢٧) أبو محزمة : «تاريخ عدن» حـ١ (ليدن - ١٩٣٦) ص١٢ - ١٣ .
(٢٨) المصدر نفسه ، ص١٦ - ١٧ .
(٢٩) أحمد دراج : «المماليك والأفرنج» ص١٥٥ .
(٣٠) Duarto Barbosa: Adesscription of the coast of East Africa and Malabar in the beginning of the Sixteenth century, Translated by Henry E.J. Stanley (London - 1918) P. 50.
(٣١) IBID, P, 51.
(٣٢) Serjeant : OP, Cit, P. 169.
(٣٣) صفوت بك : «الوثائق التركية» ص٨ .
(٣٤) سالم : المصدر السابق ، ص٧٣ .
(٣٥) صفوت بك : المصدر السابق : ص١٢ .
(٣٦) قاسم : المصدر السابق ، ٢١٦ .
(٣٧) Serjeant : R.B : Ibid, P. 169.
انظر كذلك محمود : المصدر السبابق ، ٢٢٣ .
(٣٨) قاسم : المصدر السابق ، ٢١٦ .
(٣٩) سالم : المصدر السابق ، ص٨٩ .
(٤٠) Serjeant, R.B OP, Cit, P. 170.
كذلك قاسم : المصدر السابق ص٢١٧
(٤١) Serjeant, R.B : Ibid, P. 170.
انظر ايضا : السمرة : المصدر السابق ص١٣٢
(٤٢) صفوت بك : المصدر السابق ص٣ .
(٤٣) Bell, OP, Cit, P. 415.
(٤٤) Serjeant, OP, Cit, P. 16.
(٤٥) Serjeant, Ibid, P. 16.
(٤٦) Bell : OP, Cit, P. 415.
(٤٧) الشناوي : المصدر السابق ، ص٦٣٥ .
(٤٨) Serjeant : OP, Cit, P. 2.
(٤٩) سونيا هاو : المصدر السابق ، ص١٠٧ .
(٥٠) شارل ديل : «البندقية جمهورية ارستقراطية» ص١٤٧ .

(٥١) ابن اياس : «بدائع الزهور» حـ٤ ، ١٩٨ .
(٥٢) دراج : المصدر السابق ، ١٣٧ .
(٥٣) سالم : المصدر السابق ، ٦٠ .
(٥٤) ابن اياس : المصدر السابق ، ١٩٨ .
(٥٥) المليباري : المصدر السابق ، ص٣٨ .
(٥٦) المليباري : المصدر السابق ، ص٤٠ أنظر أيضا Barbosa, OP, Cit, P. 47

(٥٧) النهروالي : المصدر السابق ، ص١٩ .
(٥٨) ابن اياس بدائع الزهور ، حـ ٤ ، ١٨٢ .
(٥٩) سالم : المصدر السابق ، ص١٦ .
(٦٠) ابن أياس : المصدر السابق ، ص٨٥ .
(٦١) النهروالي : البرق اليماني ، ص١٠ .
(٦٢) ابن اياس : المصدر السابق ، ص٩٦ .
(٦٣) المصدر نفسه ، ص٩٦ .
(٦٤) المصدر نفسه ، ص٨٤ ـ ٩٦ .
(٦٥) The Itinerary Ludovico de varthema of Bologna from 1502-1508, translated from the Original Italian, John Winter Jones (London - 1928 P.18).
انظر كذلك محمود : المصدر السابق ، ص٢٢٥ .
(٦٦) ابن أياس : «بدائع الزهور» حـ ٤ ، ص٩٦ .
(٦٧) أبو محرزمة : «البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة عليه» ص١٠٣ . أنظر كذلك ابن الديبع «قرة العيون بأخبار اليمن الميمون» حققه وعلق عليه محمد بن علي الخوالي (القاهرة ـ ١٩٧٧) حـ ٢ ، ص٢١١ .
(٦٨) سالم : المدر السابق ، ص٦٢ .
(٦٩) أبو محرزمة : المصدر السابق ، ص١٠٩ .
(٧٠) المصدر نفسه ، ص١٠٨ .
(٧١) النهروالي : البرق اليماني في الفتح العثماني ص٣٠ .
(٧٢) ابن اياس : «بدائع الزهور» حـ ٤ ، ص١٤٢ .
(٧٣) المليباري : المصدر السابق ص٤٠ ـ ٤١ .
(٧٤) فهمي : المصدر السابق ، ص٣٠ ـ ٩١ .
(٧٥) المليباري : المصدر السابق ، ص٤١ .
(٧٦) ابن اياس : «بدائع الزهور» حـ ٤ ص٢٨٦ . انظر كذلك احمد دراج : المماليك والإفرنج» ص١٣٧ ـ ١٣٨ . وسعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ص١٧٨ .
(٧٧) المليباري : المصدر السابق ، ص٤١ .

(٧٨) المصدر نفسه .

(٧٩) Barbosa : OP, Cit, P. 61.

(٨٠) Stripling, G., W.F: The Ottoman Turks and the Arabs, 1511-1574. U.S.A. Urpana, University, of Illinos Press, 1942, P.31.

(٨١) ابن اياس : «بدائع الزهور» حـ ٤ ، ص١٩١ ـ ١٩٢ .

(٨٢) ابن اياس : «بدائع الزهور» حـ ٤ ، ص١٩٦ .

(٨٣) ابن أياس «بدائع الزهور» حـ ٤ ، ص٢٠١ .

(٨٤) المصدر نفسه ، حـ ٤ ، ص٣٦٥ .

(٨٥) جوا دي بروس : «الوثائق البرتغالية» العشارية الثانية ـ الجزء الأول ، الفصل الثالث ، ص٢٤ ـ ٤١ .

(٨٦) ابن اياس : «بدائع الزهور» ، حـ ٤ ، ص٣٠٧ ـ ٣٠٨ ـ ٣١٠ .

(٨٧) المصدر نفسه ، حـ ٤ ، ص٣٥٩ .

(٨٨) ابن اياس : «بدائع الزهور» ، حـ ٤ ، ص٣٦٥ .

(٨٩) ابن آياس : «بدائع الزهور» حـ ٤ ، ص٤٦٦ .

(٩٠) صفوت بك : المصدر السابق ، ص٣ .

(٩١) ابن الديبع : «قرة العيون» حـ ٢ ص٢٢٤ ـ ٢٢٦ ، أيضا النهروالي البرق اليماني .

(٩٢) النهروالي : البرق اليماني ، ص٢٦ ـ ٢٧ .

(٩٣) سالم : المصدر السابق ، ص٨١ .

(٩٤) النهروالي : المصدر السابق ، ص٢٠ ـ ٢٣ .

(٩٥) صفوت بك : المصدر السابق ، ص٤ .

(٩٦) ابن اياس : «بدائع الزهور» ، حـ ٤ ص٢٢٠ . انظر أيضا سالم : المصدر السابق ، ص٧٦ .

(٩٧) المصدر نفسه ، حـ ٤ ، ص٨٢ .

(٩٨) Stripling : Op, Cit, P. 32.

(٩٩) Tome Pires : Op, Cit, P. 5.

(١٠٠) Mr, Abir : Ethiopa And The Bed Sea, London, 1980, P— 110.

(١٠١) Ibid : P. 112.

(١٠٢) ابن الديبع : «قرن العيون بأخبار اليمن الميمون» ص٢١١ .

(١٠٣) سالم : المصدر السابق ، ص٥٨ ـ ٥٩ .

(١٠٤) نفس المصدر والصفحة .

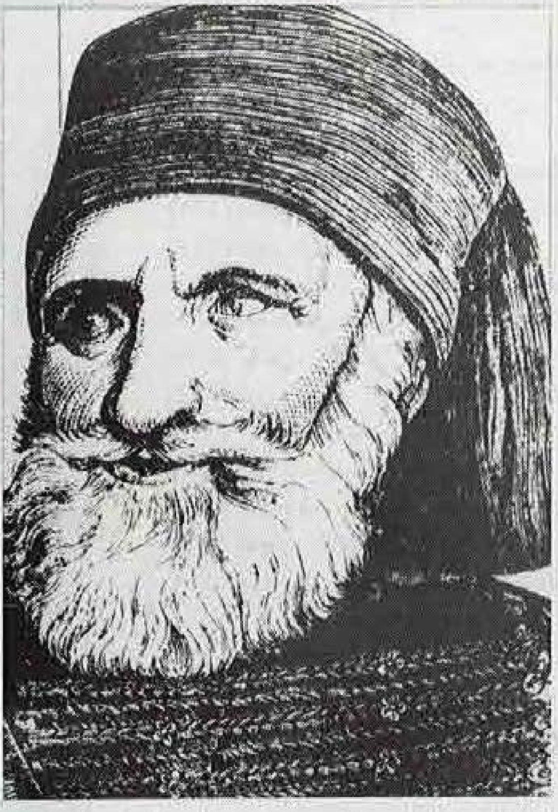
(١٠٥) Abir : OP, Cit, P. 112.

(١٠٦) سالم : المصدر السابق ، ص٥٩ .

(١٠٧) حمزة علي ابراهيم لقمان : ««تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية» دار مصر

للطباعة ، ١٩٦٠ ، ص١٢١ .
(١٠٨) شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية) ص١٤٩ .
(١٠٩) أبو محزمة : المصدر السابق ، ص١٢ ـ ١٣ .
(١١٠) المصدر نفسه ، ص١٦ ـ ١٧ .
(١١١) Tome Pires : OP, Cit, P. 15.
(١١٢) لقمان : المصدر السابق ، ص١١٧ .
(١١٣) نفس المصدر والصفحة .
(١١٤) أبو محزمة : المصدر السابق ، ص١١٩ .
(١١٥) Serjeant : OP, Cit, P. 170.
(١١٦) لقمان : المصدر السابق ، ١١٨ .
(١١٧) أبو محزمة : المصدر السابق ، ص١٢٥ .
(١١٨) المصدر نفسه : ١٢٦ .
(١١٩) شهاب : فن الملاحة عند العرب ، ص٤٨ .
(١٢٠) بامطرف : المصدر السابق ، ص٥٥ .
(١٢١) شهاب : المصدر السابق ، ٤٩ .
(١٢٢) بامطرف : المصدر السابق ، ص٥٦ .

# التوجه العثماني نحو الخليج العربي من خلال محمد علي



اعداد دكتور/
رأفت غنيمي الشيخ (مصر)

يرتبط التوجه العثماني من خلال محمد على باشا وأسرته نحو الخليج العربي بالتوجه العثماني بواسطة حملات محمد على وأبنائه على الحجاز ونجد والتي استغرقت الفترة من ١٢٢٦ ـ ١٢٣٤ هـ الموافق من ١٨١١ ـ ١٨١٨ م . وذلك أن الدولة العثمانية ضمت الحجاز الى ممتلكاتها بعد أن غزت مصر عام ٩٢٣ هـ ،




الموافق لعام ١٥١٧ م وان ظل يخضع لنظام الاشراف القائم هناك منذ القرن الرابع الهجري ، حتى نجح الأمير سعود الكبير في استخلاصه من سيطرة العثمانيين في عام ١٢١٨ هـ ـ١٨٠٣ م بالنسبة لمكة المكرمة وفي عام ١٢٢١ هـ الموافق لعام ١٨٠٦ م ، بالنسبة للمدينة المنورة .

وأما نجد فلم تدخلها قوات عثمانية حيث لم يكن بها من الاغراءات ما يشجع العثمانيين على اقتحامها ، بسبب صحراوية نجد وسيطرة النظام القبلي بها بالاضافة الى كونها منطقة داخلية لا توجد بها تجمعات سكانية الا حيث توجد المياه والمراعي وقد ظلت نجد تعيش في ظل نزاعات قبلية وعدم استقرار حتى نجح التحالف بين محمد بن عبدالوهاب ومحمد بن سعود في النصف الثاني من القرن

الثامن عشر الميلادي في توحيدها تحت حكم آل سعود وفي ظل دعوة التوحيد السلفية .

وبالنسبة للاحساء فقد دخلها جيش عثماني قادم من البصرة عام ٩٦٣ هـ ، الموافق لعام ١٥٥٥ م في عهد السلطان سليمان القانوني ثم استخلصها من العثمانيين براك بن غرير بن عثمان بن سعود آل حميد من بني خالد عام ١٠٨١ هـ الموافق لعام ١٦٧٠ م وطرد الحامية العثمانية منها وظلت السلطة في أيدي بنى خالد حتى دخلت الاحساء تحت حكم آل سعود في ظل دعوة التوحيد الاصلاحية عام ١٢٠٧ هـ الموافق لعام ١٧٩٢ م .

وهكذا نجد أن التوجه العثماني من خلال محمد علي وأسرته نحو الجزيرة العربية والخليج العربي جاء بعد أن أنتشرت دعوة التوحيد السلفية في الاحساء والحجاز ، ومن ثم كان على العثمانيين التعامل مع هذه الدعوة ورعاتها آل سعود .

وعندما فشل باشوات بغداد ودمشق في القضاء على دولة آل سعود الاولى نظرا لقوتها الروحية لجأ العثمانيون الى باشا مصر محمد على لكي يقوم بهذه المهمة وذلك منذ عام ١٢٢١ هـ الموافق لعام ١٨٠٦ م ، وكان هدف العثمانيين ضرب عصفورين بحجر واحد بالتخلص من محمد على الذي اختاره زعماء الشعب المصري التقليديين وأعنى بهم رجال الازهر والاعيان ، والتخلص من الدولة السعودية العربية راعية دعوة التوحيد السلفية .

وقد استمرت حملات محمد على باشا وولديه طوسون وابراهيم على الحجاز ونجد في الفترة من عام ١٢٢٦ـ عام ١٢٣٤ هـ الموافق لعام ١٨١١ ـ ١٨١٨ م كما ذكرنا ـ وانتهت بسيطرة محمد على ـ باسم السلطان العثماني ـ على كل من الحجاز ونجد وسقوط الدرعية عاصمة ملك آل سعود في يد ابراهيم باشا وانتهاء الدولة السعودية الاولى التي استمرت قرابة ٧٥ عاما من ١١٥٧ هـ الموافق لعام ١٧٤٣ م ـ وهو عام التحالف بين محمد بن عبدالوهاب ومحمد بن سعود ـ حتى عام ١٢٣٤ هـ الموافق لعام ١٨١٨ م.

كان لنجاح حملات محمد عليه في الحجاز ونجد في تحقيق مطالب السلطان العثماني بأسقاط دولة آل سعود في الجزيرة العربية عدة نتائج منها ما هو خاص بمحمد على نفسه حيث زادت مكانته واتسعت آماله في ضم الشام الى ملكه ، ومنها ما هو خاص بمشيخات الخليج العربي حيث تطلع الباشا العثماني حاكم مصر بأنظاره تجاه هذه المشيخات ، وهذا يؤكد ما ذهبنا اليه من أن التوجه العثماني من خلال محمد على نحو مشيخات الخليج العربي كان نتيجة

منطقية وثمرة من ثمار الوجود العثماني في الحجاز ونجد .

## لماذا التوجه العثماني نحو الخليج العربي

ان تساؤلنا عن لماذا حدث التوجه العثماني من خلال محمد علي نحو الخليج العربي يتطلب منا مناقشة الاهداف التي سعت اليها الدولة العثمانية في هذا الوقت المبكر من القرن التاسع عشر الميلادي ، ذلك أن الدولة السعودية الاولى نجحت قبل هذه السنوات في نشر مبادىء دعوة التوحيد السلفية في انحاء متفرقة من الجزيرة العربية .

ولم تكن الدولة العثمانية تهتم بما حدث داخل الجزيرة العربية حيث لم تكن لها ممتلكات هناك ، ولكن عندما امتد النفوذ السعودي الى شواطىء الخليج العربي وجنوب العراق ، بدأ القلق يحرك الدولة العثمانية نحو طموح الدولة السعودية فكلفت سليمان باشا الكبير (بيوق) والى العراق بمحاربة السعوديين فأرسل حملتين لمحاربة آل سعود في الاحساء عام ١٢١٧ هـ الموافق عام ١٨٠٢ م ، وحملة ثالثة ضدهم في القصيم .[١]

وعندما امتد نفوذ آل سعود الى الحجاز أوائل القرن التاسع عشر - كما سبق أن ذكرنا - في عهد الامير سعود الكبير ازداد قلق الدولة العثمانية خاصة وأن السلطان العثماني يتخذ لنفسه لقب خليفة المسلمين وحامي حمى الحرمين الشريفين (بمكة المكرمة وبالمدينة المنورة) .

وازاء القلق العثماني من الوجود السعودي بمنطقة الحجاز فقد كلف السلطان العثماني والي مصر محمد علي باشا بالتعامل مع السعوديين لكسر شوكتهم واستخلاص منطقة الحجاز منهم واعادتها مرة أخرى تحت السيطرة العثمانية .

كما أن التوسع السعودي في منطقة الخليج العربي دفع العثمانيين الى القلق من ناحية السعوديين . ذلك أن الأمير عبدالعزيز بن محمد بن سعود غزا الأحساء في عام ١١٧٦ هـ الموافق لعام ١٧٦٢ م حيث حقق من ورائها عدة مكاسب عسكرية ومالية ، ولكن الصراع استمر بين آل سعود وبين بعض زعماء الاحساء وجيش من باشوية بغداد ، كان النصر في النهاية لصالح آل سعود الذين أكدوا سيطرتهم على الاحساء حتى مجيء قوات محمد على باشا .[٢]

وأما قطر فان أهلها وخاصة من قبائل آل مسلم وآل حسن والمعاضيد وغيرهم رحبوا بدعوة التوحيد السلفية عندما قام القائد السعودي ابراهيم

بن عفيصان في عام ١٢٠٧ هـ الموافق لعام ١٧٩٢ م بغزو قطر ومعه جماعة من أهل الخرج والفرع .[٣]

كما رحب سكان واحة البريمي في عمان بدعوة التوحيد السلفية ، وقد لقيت قوات آل سعود المتجهة الى عمان التأييد من جماعتين : الجماعة الأولى بعض القبائل التي تقبلت تعاليم المذهب الوهابي (دعوة التوحيد السلفية) والجماعة الثانية الزعماء المعارضون لحكم دولة البوسعيد في عمان . وقد اعتنق مبادىء الدعوة الوهابية قبائل القواسم وبنى النعيم وبنى كعب وبنى قتب وان ظلت قبيلة بنى ياس متمسكة بمذهبها المالكي .[٤]

وعندما وصل ابراهيم بن سليمان بن عفيصان عام ١٢١٠ هـ الموافق عام ١٧٩٥ م رسول آل سعود الى البريمي رحبت به قبائل بنى النعيم حيث اعتبرت البريمي قاعدة ينطلق منها نشاط رسول آل سعود لنشر نفوذ الدولة السعودية في بقية مشيخات الخليج حتى جزر البحرين ، وان كان آل سعود قد فشلوا في اخضاع الكويت لسيادتهم بعد معارك بين الطرفين امتدت من عام ١٢٠٨ هـ الموافق لعام ١٧٩٣ م الى عام ١٢١٩ هـ الموافق لعام ١٨٠٤ .[٥]

وبالنسبة لعلاقة آل سعود بآل سعيد في مسقط ، فقد اتسمت بالعداء حيث دارت معارك دامية بين سلطان مسقط «سعيد بن سلطان» وبين قائد آل سعود وممثلهم في البريمي مطلق المطيري استغرقت السنوات من ١٢٢٦ - ١٢٢٨ هـ الموافق من ١٨١١ - ١٨١٣ م. واذا كان مطلق المطيري قد نجح في غزو سلطنة عمان واكتسح اقاليم مسقط وشرقي صحار وجعلان وضم الى جانب الدولة السعودية قبيلتين من القبائل الكبرى في شرقي عمان هما القواسم وبنو على بعد أن اعتنقت هاتان القبيلتان دعوة التوحيد السلفية ، فان هذه الانتصارات انتهت دون عائد كبير ، اذ لقى مطلق المطيري مصرعه في نهاية عام ١٢٢٩ هـ الموافق لعام ١٨١٣ م . كما توفي أمير الدرعية سعود الكبير عام ١٢٣٠ هـ الموافق لعام ١٨١٤ م وكان زعيما ذا كفاءات سياسية وادارية كبيرة .[٦]

أما البحرين فقد أرسل الأمير سعود الكبير جيشا بقيادة ابراهيم بن عفيصان لمساعدة آل خليفة في تخليص البحرين من صاحب مسقط ، وقد نجحت قوات ابراهيم بن عفيصان في استردادها من سعيد بن سلطان صاحب مسقط عام ١٢٢٤ هـ الموافق لعام ١٨٠٨ م ، ولكن هذا القائد السعودي لم يسلم زمام أمورها الى آل خليفة بل أعلن ضمها لسلطان آل سعود حتى عام

١٢٢٦ هـ الموافق لعام ١٨١٠ م عندما استرد آل خليفة البحرين من سيطرة آل سعود .(٧)

وعندئذ اضطر الأمير سعود الى اطلاق سراح المعتقلين من آل خليفة في الدرعية وسمح لهم بالعودة الى البحرين ، وبهذا نجد أن الدولة السعودية لم تتمكن من ضم البحرين الى ممتلكاتها .(٨)

وهكذا كان التوسع السعودي في منطقة الاحساء ومشيخات الخليج العربي وجنوب العراق ومنطقة الحجاز هو السبب في التوجه العثماني نحو الجزيرة العربية بدءا من سواحلها على البحر الأحمر حتى سواحلها على الخليج العربي ، وكان الهدف العثماني هو التخلص من هذه القوة العربية التي كان المأمول أن تسيطر على المنطقة العربية وتستخلصها من الحكم العثماني المتهاوي .

ومن ثم كان تكليف محمد علي باشا بالتعامل مع هذه القوة العربية الفتية ، ومن هنا وبهذا التكليف ، قام محمد علي وأبناه طوسون وابراهيم بما طلب منهم واستخلصوا الحجاز من آل سعود ثم غزوا نجد ، ومن هناك جاء التوجه الى منطقة الخليج العربي . ومما يلاحظ أن التوجه الذي قاده محمد علي في الجزيرة العربية كان عثمانيا في التخطيط والتنفيذ والأهداف ، ولم يكن لمصر البلد أو الشعب صلة بهذا التوجه سوى خروج الحملات العسكرية ـ العثمانية الصرفة ـ من أرض مصر وموانيها باتجاه الحجاز ونجد .

وكانت قيادة تلك الحملات تركية بل كان الضباط والجنود الذين شاركوا في هذه الحملات أتراكا من الأرناؤوط والانكشارية ممن تمردوا على محمد علي وأراد التخلص منهم .(٩)

ويؤيد ذلك تسمية هؤلاء الجند في كتب مؤرخي نجد باسم الترك والروم ولم يذكر اسم المصريين (١٠) ، ويذكر محمد بن عمر الفاخرى في كتابه الاخبار النجدية في تأريخه لسنوات ١٢٣١ هـ الموافق لعام ١٨١٥ م وما بعدها ما نصه :

وفيها سار عسكر الترك الذى في الحناكية فقدموا «الرس» و«الخبر» واستوطنوهما بموافقة أهلهما وملكوا ـ أطرافها وثبت القصيم وفي عام ١٢٣٣ هـ فملكها ـ أي الدرعية ـ العسكر صبيحة اليوم السابع ـ من ذي القعدة وبقى الطريف (مساكن آل سعود في الدرعية) فيه عبدالله بن سعود فحاربوا يومين ثم صالحوا وسلم عبدالله الى الباشا (ابراهيم بن محمد علي) وبقى عبدالله بعد ذلك يومين ثم سيره الباشا الى مصر ثم الى الروم وقتل هناك رحمه الله تعالى .(١١)

كما ذكر صاحب تحفة المستفيد أن الدولة التركية جمعت من آلات الحرب ومن المدافع والقنابل والذخائر والأموال عددا كبيرا من الجنود الى الديار المصرية وأمرت محمد علي باشا والى مصر بحرب الامام سعود .(١٢)

ويذكر ابن بشر أنه في سنة ١٢٢٦ هـ الموافق لعام ١٨١١ م أجمع أمراء الروم على المسير الى الحجاز وأعدوا جميع آلات الحرب من السفن والمدافع والقنابل والبنادق وجميع آلاتها وما يحتاجون اليه من الأموال والذخائر من الطعام وغيره . فاجتمع العساكر من اسطنبول ونواحيها وما دونها الى الشام ومصر والرئيس المقوم بهذا الأمر من جهة الروم صاحب مصر محمد على باشا ، فسير العساكر المذكورة برا وبحرا .(١٣)

على الرغم من سقوط الدرعية وانتهاء الدولة السعودية الأولى عام ١٢٣٤ هـ الموافق لعام ١٨١٨ م ، فان التواجد السعودي ما لبث أن استعاد شيئا من مكانته في نجد ومنطقة الخليج العربي ، فقد قام الأمير تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود بالدخول الى الدرعية عام ١٢٣٦ هـ الموافق لعام ١٨٢٠ م ، ثم الاستيلاء على الرياض واتخاذها عاصمة للدولة الجديدة ، واعترف بسيادة اسمية للدولة العثمانية ، وقد ساعده ذلك في السيطرة على نجد وامتداد نفوذه الى الخليج .(١٤)

وفي عام ١٢٤٤ هـ الموافق لعام ١٨٢٨ م وصل الى الرياض وفد من أهل عمان يطلب مساعدة عسكرية سعودية مقيمة في عمان وتعيين وال وقاض ، وقد استجاب الأمير تركي لهذه المطالب فأرسل عمر بن محمد بن عفيصان على رأس قوة كافية لينصب عبدالله بن سعود من «القويعية» واليا على الاقليم ، على أن يتخذ مركزه في البريمي وعين كذلك الشيخ محمد بن عبدالعزيز العوسجى قاضيا ، ولدى وصولهم الظاهرة استقبلتهم وفودها مع عناصر أخرى من «البطينة» الواقعة في المنطقة الساحلية من عمان بمظاهر الترحيب والتكريم .(١٥)

وعندما قتل الأمير تركي عام ١٢٥٠ هـ الموافق لعام ١٨٣٤ م تولى زعامة آل سعود ابنه الأمير فيصل الذي ما لبث أن أثار شكوك محمد على فبدأت الاشتباكات من جديد بين محمد على وفيصل ، وقرر محمد على ارسال حملة عسكرية عام ١٢٥٢ هـ الموافق لعام ١٨٣٦ م ، بقيادة اسماعيل أغا وأرسل معها الأمير خالد بن سعود الكبير شقيق الامام عبدالله بن سعود .

كان الأمير خالد بن سعود ضمن آل سعود الذين رحلوا إلى مصر عقب تدمير الدرعية وأمه جارية حبشية فنشأ في كنف محمد علي وجاء يحكم نجد حكما عصريا فنفر منه النجديون

(١٦) ، ولكنه حاز رضا الأتراك ووالي مصر فاندفع يحاول استعادة نفوذ الدولة السعودية في الخليج ، وأنها لحركة بارعة من محمد علي أن يشرك معه في مشروع الاغارة على نجد والامتداد الى الخليج شخصا يعتبره معظم النجديين الوارث الشرعي لأمجاد البيت الحاكم . (١٧)

ونتيجة لفشل حملة أسماعيل أغا ضد الأمير فيصل بن تركي أمر محمد علي واليه علي الحجاز خورشيد باشا بأن يتوجه الى نجد على رأس حملة عسكرية انتهت بقبول خورشيد باشا ما عرضه عليه فيصل بن تركي بأن يسلم نفسه بشرط أن يعفو القائد العثماني - خورشيد باشا - عن الأهالي ويؤمنهم على أرواحهم وأموالهم . وفي ٢٣ رمضان ١٢٥٤ هـ الموافق ١٠ ديسمبر ١٨٣٨ م سلم فيصل ما كان معه من عتاد الحرب إلى أهل الخرج ، ثم سلم نفسه إلى خورشيد باشا الذي بر بوعده إذ عفا عن الأهالي كما أحسن معاملة الأمير فيصل فاستصحبه إلى مصر وولى مكانه خالد بن سعود الذي إنفرد بزعامة آل سعود .(١٨)

وقد أقام خورشيد باشا احتفالا كبيرا بتنصيب الأمير خالد بن سعود رئيسا للدولة السعودية ، وخلع عليه ثوب الشرف ، وأكد محمد علي للدول الأجنبية أن وجود قواته في الجزيرة العربية إنما هو بقصد ضمان حقوق الأمير خالد الشرعية في الحكم ، وهذا لا ينفي أن خورشيد باشا تولى بنفسه إدارة شئون نجد وما وصل إليه نفوذ محمد علي في ساحل الخليج . (١٩)

وعندما عادت الاحساء الى سلطة الأمير خالد بن سعود ونفوذ محمد علي برحيل فيصل بن تركي الى مصر ، أرسل خورشيد باشا اليها - الى الاحساء - محمد أفندي لسن الضرائب وترتيب طرق الجباية التي لم تكن معروفة ولا مألوفة في تلك البلاد ، واستمر الحال على ذلك إلى شهر شعبان عام ١٢٥٥ هـ الموافق لعام ١٨٣٩ م . (٢٠)

ورغم انتشار قوات خورشيد باشا في موانىء القطيف وسيهات والعقير بساحل الخليج ، فقد ظل الأمير خالد رئيسا للدولة السعودية حتى قام عبدالله بن الثنيان وهو من أبناء عمومة الأمير خالد بن سعود بثورة ضد الأخير انتهت بالخلاص منه وقد وجد مساعدة من معظم أهالي نجد خاصة أنه أعلن بأن حكمه للبلاد سيكون نيابة عن الامام فيصل بن تركي . ومن ثم انتهى الأمر بفرار خالد بن سعود من الرياض إلى الاحساء عام ١٢٥٧ هـ الموافق لعام ١٨٤١ م.

وقد ساعد على نجاح عبدالله بن الثنيان انسحاب قوات محمد علي من شبه الجزيرة العربية بناء على اتفاقية لندن لعام ١٢٥٦ هـ الموافق لعام

١٨٤٠ م وفي ذلك يذكر صاحب الأخبار النجدية : «وفي سنة ست وخمسين ومائتين وألف سارت العساكر المصرية من نجد من «ثرمدا» والقصيم وارتحلوا شيئا فشيئا حتى ارتحل كبيرهم خورشيد باشا في ربيع الأول وبقى الأمر لخالد بن سعود . (٢١) ثم نجاح الأمير فيصل بن تركي من العودة من مصر عام ١٢٥٩ هـ الموافق لعام ١٨٤٣ إلى الرياض واعترافه بالسيادة الأسمية للأتراك .

ويستدعي حديثنا عن التوجه العثماني من خلال محمد على نحو الخليج العربي أن نتناول هذا التوجه في بعض أجزاء الخليج الطبيعية المعروفة لنقف على المدى الذي وصل اليه هذا التوجه، وموقف عرب الخليج منه.

### الأحساء :

تطلع إبراهيم باشا بن محمد على إلى إقليم الأحساء كمنفذ على الخليج العربي لاقليم نجد بعد أن سقطت الدرعية في يد قواته عام ١٢٣٤ هـ الموافق لعام ١٨١٨ م ، ومن ثم اعتمد على عدو سابق لآل سعود وهو «رحمة بن جابر» - وهو من الجلاهمة العتوب الذي كان يمارس مغامراته البحرية من خور حسان في قطر - في الاستيلاء على القطيف ميناء آل سعود في الاحساء في نظير مساعدة ابراهيم باشا له لكى يعود إلى الاستقرار في الدمام وفي إعادة بناء حصنه القديم الذي كان آل سعود قد دمروه ولكن تطلعات إبراهيم باشا تقلصت في هذا الوقت المبكر بانسحاب قواته من الأحساء والتمركز في عنيزة بوسط شبه الجزيرة العربية ، مع الاعتماد على شيوخ بنى خالد أعداء آل سعود للحصول على أموال الزكاة من قبائل الأحساء .

وفي عام ١٢٥١ هـ الموافق لعام ١٨٣٥ م عاد التوجه العثماني من خلال محمد على وأبنائه إلى الأحساء ، وتمثلت هذه العودة في وصول «عبدالله بن مشاري» التاجر البحريني إلى المنطقة حاملا رسائل من أحمد باشا حاكم الحجاز من قبل محمد على إلى كل من سلطان عمان وشيوخ البحرين وأمير السعوديين . (٢٢) . من أجل مساعدته باسم محمد علي على جمع الزكاة ، ورغم أن هذا المبعوث لقى الترحيب والمساعدة من سلطان عمان فانه ما لبث أن اختفى من القطيف أما تقدم قوات فيصل بن تركي أمير آل سعود الجديد التي وصلت إلى الاقليم .

ولكن خورشيد باشا قائد قوات محمد على في نجد قرر بعد أن أستقر له الوضع في الخارج واتخذ من «ثرمداء» قاعدة له أن يبدأ في تحقيق سياسة محمد على بالسيطرة على مناطق شرقي شبه الجزيرة العربية بدءا بالاحساء

بما في ذلك الكويت والعراق كي تلتحم هذه المناطق ببلاد الشام لتصبح وحدة واحدة تحت سيطرة محمد علي . (٢٣)

وقد تمكن خورشيد من تنظيم أمور الاحساء الادارية تحت حماية جانب من قواته عسكرت في كل من الهفوف والقطيف وسيهات والعقير وهي أهم مدن وموانىء الأحساء ، وتم تعيين محمد أفندي رفعت حاكما على إقليم الأحساء واتخذ من الهفوف مقرا ومركزا يباشر منه حكمه . (٢٤)

ومن ذلك أن خورشيد أعطى الأمان لعمر بن عفيصان ورؤساء الأحساء وأمرهم بالقدوم إليه وحفظ بيت المال ، فلما ركب أهل الأحساء إلى خورشيد باشا أمنهم وأذن لهم بالرجوع إلى بلادهم وذلك في شهر شوال ١٢٥٤ هـ الموافق لعام ١٨٣٨ م وبعد رحيل أهل الأحساء عين خورشيد باشا أحمد بن محمد السديري أميرا على الأحساء ومعه من العسكر مائة وثلاثون خيالا رئيسهم رجل من المغاربة يقال له «أبو خزام» ثم أرسل خورشيد بعد ذلك بحوالي شهر إلى الأحساء خمسين رجلا من العسكر والعرب رئيسهم رجل من المغاربة اسمه «محمد الفاخري» . (٢٥)

وأما محمد أفندي رفعت فقد كان مبعوث خورشيد إلى البحرين وفارس ، حيث حمل رسائل إلى آل خليفة بالبحرين ، ثم انتقل إلى فارس لشراء مواد غذائية (بر وشعير وغير ذلك) إلى القوات المتمركزة بالاحساء ، وعند عودته من البحرين ـ بعد اتفاق مع آل خليفة ـ إلى الاحساء عينه خورشيد أميرا على الأحساء بدلا من أحمد بن محمد السديري الذي أوكل إليه إدارة بيت المال ويعلق عثمان بن بشر على ذلك بقوله «هذه عادة ولاية الترك : أولها مطر وآخرها برد وصواعق» . (٢٦)

ولكن محمد أفندي رفعت أساء استخدام سلطاته في الأحساء حتى دبروا مقتله في غرة شعبان ١٢٥٥ هـ الموافق لعام ١٨٣٩ م ، ولما بلغ الخبر إلى خورشيد باشا جزع عليه جزعا شديدا وأمر أفندى عنده اسمه محمد شرمى وجهز معه عسكرا وأرسله بدله ، ثم جهز بعدهم عسكرا آخر فجلسوا بعسكرهم في الأحساء . (٢٧)

وقد ظلت الاحساء تحت سيطرة قوات محمد على بفضل التنظيم الذي وضعه محمد أفندي رفعت للأقليم وخاصة القطيف لقربها من جزر البحرين ولصلاحية مينائها للملاحة ، ومن ثم بدأ محمد رفعت وبأوامر من خورشيد باشا يخطط لتنفيذ المرحلة الثانية من سياسته الرامية للتوجه إلى البحرين . ولم يوقف هذا التخطيط سوى انسحاب قوات محمد على لا من الاحساء فقط بل ومن كل شبه الجزيرة العربية نتيجة لاتفاقية لندن

لعام ١٨٤٠ م .

وعند انسحاب قوات محمد علي من شبه الجزيرة العربية من الاحساء ونجد خاصة دعمت الأمير السعودي - الموالي لمحمد علي - ببعض الضباط الذين أسهموا في تدريب قــوة عسكـريــة منظمــة بلغت ٨٠٠ جندي تحت إمرة خالد [٢٨]، ولكن هذا الأمير لم يستطع الصمود طويلا بعد انسحاب قوات محمد علي حيث فر من الرياض أمام تقدم عبدالله بن ثنيان .

## البحرين :

ترتبط البحرين باقليم الأحساء ارتباطا وثيقا ، ومن ثم لا نعجب أن يكون من مخطط خورشيد باشا مد نفوذ محمد علي إلى البحرين عبر الاحساء وكان آل خليفة حكام جزر البحرين ، وكان على رأسهم في سنوات تخطيط خورشيد وخاصة بين سنتي ١٢٥٤ - ١٢٥٦ هـ / ١٨٣٨ - ١٨٤٠م الشيخ عبدالله بن أحمد آل خليفة.

جاءت علاقات خورشيد باشا مع الشيخ عبدالله آل خليفة عن طريق حاكم الأحساء ووكيل الباشا هناك محمد أفندي رفعت ، والذي زار جزر البحرين مبعوثا من خورشيد باشا في غـرة ذي الحجـة عــام ١٢٥٤ هـ الموافق ١٥ فبراير عام ١٨٣٨ م ، وقدم تقريرا حمل تاريخ ٨ ذي الحجة عام ١٢٥٤ هـ الموافق ٢٢ فبراير عام ١٨٣٨ م أوضح فيه أن البحرين ذات أهمية قصوى لاستقرار الأحـوال في الاحساء والقطيف ، فميناؤها هو الميناء الوحيد ذو الأهمية في المنطقة ولذلك اعتبرت جزيرة البحرين ميناء للأحساء والقطيف وسببا في رواج المنطقة اقتصاديا . [٢٩]

وعندما رأى الشيخ عبدالله نجاح قوات محمد على في شبه الجزيرة العربية وتوجه خورشيد باشا إلى جعل البحرين منطقة نفوذ لدولة محمد علي ، ومحاولة سلطان عمان ضم البحرين إلى سلطنته بطريقة مباشرة أو لحساب محمد على كأسلوب غير مباشر ، لجأ الشيخ عبدالله إلى الأنجليز في الهند ومقيمهم العام في منطقة الخليج لحمايته من هـذه الأطماع .

ولما لم يجد الشيخ عبدالله من حكومة الهند البريطانية وممثلها المقيم العام في الخليج كابتن هينيل أية استجابة عملية حتى شهر المحرم ١٢٥٥ هـ الموافق مارس ١٨٣٩ م فيما عدا ما يصرح به الانجليز عن عدم رضاهم عن تطلعات محمد على في الخليج ، ولادراكه أطماع الفرس في البحرين [٣٠] ومطالبهم المالية نظير وجود مبعوث فارسي هناك ، ولما كان الشيخ عبدالله آل خليفة يعاني من

مصاعب داخلية فانه استقبل محمد أفندي رفعت مبعوث خورشيد في عام ١٢٥٥ هـ الموافق مايو ١٨٣٩ م مزودا بتعليمات من خورشيد وواضعا في الاعتبار أهمية البحرين لاستقرار منطقة الأحساء بل ونجد أيضا إلى جانب رواج الناحية الاقتصادية في هذه المناطق وواضعا في الاعتبار أيضا مطامع الانجليز ومواقفهم المعادية لمشروعات محمد علي وكذلك مطامع حكام فارس وسلطنة عمان .

وبعد مفاوضات بين محمد أفندي رفعت مبعوث خورشيد باشا والشيخ عبدالله حول وضع البحرين وعلاقاتها في المستقبل مع دولة محمد علي ، تم الاتفاق بين الطرفين على تعهد حكومة محمد علي بتأييد ومساندة الشيخ عبدالله آل خليفة في حكم جزر البحرين مقابل أن يقدم زكاة تقدر بألفي «روبية» سنويا وبعض السفن لمساعدة قوات محمد علي العسكرية على الانتقال إلى ساحل عمان إذا احتاج الأمر إلى ذلك ، واشترط الشيخ عبدالله أن تبقى السلطة الداخلية في الجزر كلها بين يديه وألا يرسل خورشيد باشا ممثلا له يقيم في البحرين . (٣١)

وقد كتب الشيخ عبدالله بن احمد آل خليفة «رسالة إلى خورشيد باشا عقب توقيعه للاتفاقية مع محمد أفندي رفعت بتاريخ ٢٣ صفر عام ١٢٥٥ هـ الموافق ٨ مايو عام ١٨٣٩ م يؤكد فيها التزامه بما جاء في نصوصها بأن «نعادي من عاداكم ونوالى من والاكم وأنتم كذلك ، ونؤدي لجنابكم الزكاة ... وصار حالنا معكم حال واحد . (٣٢) وكتبت الاتفاقية في قلعة شيخ البحرين في خورحسان على ساحل قطر .

ومما يلاحظ أن الاتفاقية بنصها على عدم إرسال مبعوث يمثل محمد على مقيم في البحرين وترك أمورها الداخلية بيد شيخها ، تنفي الاتهامات البريطانية باتجاه تطلعات محمد علي إلى استعمار البحرين وإرسال قوات عسكرية لاحتلال تلك الجزر لحساب محمد علي ، وهو أمر كان بعيد الاحتمال ، لأن أي هجوم على الجزر في رأي لوريمر يعتبر عملا خطيرا في جرأته ، وكان احتمال أن تقوم به قوات محمد على احتمالا ضئيلا . (٣٣)

وقد تعرض اتفاق الشيخ عبدالله بن احمد آل خليفة مع خورشيد باشا لانتقادات عنيفة من جانب حكومة الهند البريطانية التي لم تسمح بنجاح أية محاولة أجنبية تهدف إلى فرض السيادة على البحرين محتجة في ذلك بمعاهدة عام ١٢٣٥ هـ / ١٨٢٠ م التي جعلت البحرين إمارة مستقلة مرتبطة ببريطانيا بتعهدات .(٣٤)

وما أعلن عن الاتفاق حتى وجهت الانذارات ومارست الضغوط ضد

الشيخ عبدالله الذي حاول تبرير موقفه بأنه لم يتلق تأكيدات بريطانية عندما طلبها ، وبأن هذا الاتفاق مقرر قبل التوقيع عليه بزمن طويل ، وبأن هذا الاتفاق ليس موجها ضد الحكومة أو المصالح البريطانية .

وقد وصل الكابتن «هينيل» المقيم العام البريطاني في الخليج الى البحرين في ١٥ جمادى آخر ١٢٥٥ هـ الموافق ٢٨ يوليو ١٨٣٩ م وسلم للشيخ عبدالله آل خليفة احتجاجا على هذه الاتفاقية ، ولم يقبل أبدا تبريرات الشيخ عبدالله ، وكان قد سبق للكابتن هينيل تقديم إنذار إلى خورشيد باشا في أول إبريل يحذره من الامتداد عسكريا إلى جزر البحرين . ولما لم ينجح هينيل في إقناع الشيخ عبدالله بنقض اتفاقيته مع خورشيد باشا ، ولما لم ينجح كذلك احتجاجه الذي قدمه لخورشيد باشا في فض عرى هذا الاتفاق ، وعندما ظل الشيخ عبدالله صامدا أمام تهديدات الانجليز إلى أن انسحبت قوات محمد علي من شبه الجزيرة العربية نتيجة لمعاهدة لندن عام ١٨٤٠ م ففقد بذلك سندا في مقاومة تهديدات ومؤامرات الانجليز . (٣٥)

عندما حدث كل ذلك اجتمعت اللجنة السرية لمديري شركة الهند الشرقية البريطانية وبحثت امكانية عزل شيخ البحرين (٣٦) . ومن ثم لا نعجب أن نسمع عن اضطرابات وفتن في البحرين منذ عام ١٨٤٠ م لا تهدأ إلا بعزل الشيخ عبدالله من حكم البحرين عام ١٢٥٩ هـ ، الموافق لعام ١٨٤٣ م ، أي بعد أن حققت المؤامرات البريطانية أهدافها .

وفي ذلك يقول عثمان بن بشر : وفي جمادي الاولى ١٢٥٨ هـ الموافق ١٨٤٢ م وقع بين عبدالله بن أحمد آل خليفة حاكم البحرين وابن أخيه اختلاف ثم وقع بينهما الحرب العظيم (٣٧)

## الكويت والعراق :

جاء التوجه العثماني من خلال محمد على الى الكويت في اطار نفس التوجه الى بقية مشيخات الخليج العربي وخاصة البحرين ، حيث سعى خورشيد باشا قائد قوات محمد على في نجد أن يرتبط مع الشيخ جابر آل صباح حاكم الكويت باتفاق يؤمن لقوات خورشيد الحصول على المؤمن والاعتدة باستخدام سفن الكويت ، وفي نفس الوقت التطلع من هناك الى جنوب العراق .

وعلى هذا فقد سجلت المصادر المعاصرة أن خورشيد بعث وكيلا له يدعى محمد على أفندي الى الشيخ جابر آل صباح توصل الى اتفاق شبيه بالاتفاق الذي عقد بين محمد رفعت والشيخ عبدالله بن احمد آل خليفة حاكم البحرين يقضي هذا الاتفاق بدفع زكاة لخورشيد باشا وتقديم التسهيلات في مياه وموانىء الكويت

لقوات خورشيد وخاصة استخدام السفن الكويتية لنقل الأسلحة الى ميناء القطيف بالأحساء حيث توجد قوات خورشيد ، وهذا في نظير عدم تدخل خورشيد باشا في الأمور الداخلية بالكويت وعدم وجود مبعوث لخورشيد مقيم بالكويت .

ونتيجة لهذه الاتفاقية استطاع محمد أفندي أثناء وجوده بالكويت أن يرسل من هناك عدة سفن محملة بالأغذية وخاصة الشعير ، كما استطاع أن يجمع معلومات عن الكويت والجنوب العراقي المطل على الخليج ، كما استطاع هذا المبعوث أن يحصل على تقدير حاكم الكويت حتى أنه كان يأخذ مكان الصدارة في مجالس الشيخ جابر آل صباح . كما استخدمت قوات خورشيد الموجودة بالأحساء سفن الاسطول الكويتي الكبير والمجهز تجهيزا جيدا في نقل شحنة من الأسلحة والاعتدة العسكرية من ميناء الحديدة باليمن الى ميناء القطيف بالأحساء في نوفمبر ١٨٣٩ م. (٣٨)

وكان من الطبيعي أن ينعكس هذا التقارب بين الشيخ جابر آل صباح ورجال محمد علي باشا على العلاقة بين الكويت وحكومة الهند البريطانية ، فيروى لنا لوريمر أن حاكم الكويت الشيخ جابر استقبل مبعوثا بريطانيا في نوفمبر ١٨٣٩ م بطريقة غير لائقة وغير متوقعة ، ويبرر لوريمر تصرف حاكم الكويت بأنه حدث بسبب فزع الشيخ جابر من نجاح قوات محمد علي في الجزيرة العربية ، وقد تناسى لوريمر أن محمد على كان آنذاك يعيش أزمة دولية ولم يكن في مخططاته القيام بعمليات عسكرية ضد حاكم الكويت أو أية مشيخة في ساحل الخليج . (٣٩)

ورغم استياء حكومة الهند البريطانية من استقبال الشيخ جابر آل صباح لمبعوث خورشيد المدعو محمد أفندي منذ عام ١٨٣٨ م ، وأنه لم يستقبل الملازم «إدموندز» مساعد المقيم العام البريطاني في الخليج الاستقبال الودى المعهود عندما وصل الى الكويت في نوفمبر عام ١٨٣٩ م كما ذكرنا ، فان البريطانيين لم يوجهوا إنذارا لشيخ الكويت على غرار الانذارات البريطانية لحاكم الشارقة ولشيخ البحرين ، بل التمسوا له العذر بأن مسلكه مع «إدموندز» لم يكن صادرا عن نوايا سيئة نحو البريطانيين لكنه كان يهدف إلى خداع مبعوث خورشيد عن حقيقة العلاقة القائمة بينه وبين السلطات البريطانية . (٤٠)

وقد ظل التعاون بين الشيخ جابر آل صباح ومبعوث خورشيد باشا رغم معارضة السلطات البريطانية في الخليج ، بل تروي الوثائق أن الشيخ جابر قدم التسهيلات اللازمة للقوات العثمانية التي هربت من البصرة تحت قيادة «محمود أغا المورة» وأرادت

الالتحاق بقوات خورشيد باشا في نجد ، حيث أركب هذه القوات سفينة وصلت بها الأحساء ورفض طلب سلطات البصرة بالقاء القبض على هؤلاء الهاربين واعادتهم اليها . (٤١)

وبالنسبة للعراق فقد جاء التوجه العثماني من خلال محمد على مختلفا حيث جاء اتجاه أنظار محمد علي إلى العراق عندما حدث الصدام بين محمد علي والدولة العثمانية ، ومن ثم أراد محمد علي أن يستكمل سيطرته على منطقة الهلال الخصيب بضم العراق بعد أن نجح في ضم كل بلاد الشام ، وبعد أن سيطرت قواته على معظم شبه الجزيرة العربية وامتد نفوذه الى بعض مشيخات الخليج العربي.

ولذلك عندما كانت قوات محمد علي قد استقرت في بلاد الشام سادت العراق بعض القلاقل والاضطرابات ، وانتهز محمد على فرصة هذه الاضطرابات ومارس ضغوطا من سوريا للوصول الى العراق بأن أخذ يساند القبائل العربية الثائرة في جنوب العراق ضد الباشوات العثمانيين من أجل ضم العراق الى الكتلة العربية التي حرص على أقامتها في المنطقة . (٤٢)

ورغم اهتمام خورشيد باشا بضرورة غزو جنوب العراق والاستيلاء على البصرة لتأمين قواته في الأحساء ونفوذ محمد علي في البحرين والكويت ، والحصول على المؤن والامدادات اللازمة لقواته ، فإن مناداته ليأذن له محمد علي في التقدم بقواته لغزو البصرة جاءت في وقت كان فيه الموقف البريطاني بصفة خاصة والدولي بصفة عامة معاديا لمشروعات محمد علي التوسعية ، وهذا يفسره اهتمام وزارة الخارجية البريطانية التي كان على رأسها اللورد «بلمرستون» Palmerston الذي ظهرت معارضته لمشروعات محمد علي في الخليج العربي وخاصة في الفترة من عام ١٨٣٨ م الى عام ١٨٤٠م (٤٣)

وهكذا بدأ التوجه العثماني من خلال محمد علي وأسرته في الجزيرة العربية بناء على طلب الدولة العثمانية خلال عشرين سنة تقريبا من ١٢٢٦ ـ ١٢٤٧ هـ الموافق لأعوام ١٨١١ م ـ ١٨٣١ م ، عندما بدأ الصدام بين محمد علي والدولة العثمانية على ارض الشام ، ومن ثم بدأ توجه محمد علي في الجزيرة العربية وفي ساحل الخليج العربي يأخذ اتجاها شخصيا لتحقيق أهداف محمد علي ولحساب ملكه هولا ملك الدولة العثمانية والسلطان العثماني .

وكان يمكن أن يقدر لتوجه محمد علي في الجزيرة العربية أن يستمر لولا موقف انجلترا بصفة خاصة التي سعت حتى أنهت كثيرا من مناطق سيطرته فانسحبت قواته من الشام ومن كل شبه الجزيرة العربية بموجب معاهدة لندن عام ١٨٤٠ م.

# مصادر البحث


١ ـ عثمان بن عبدالله بن بشر : عنوان المجد في تاريخ نجد جزءان . حققه وعلق عليه عبدالرحمن بن عبداللطيف بن عبدالله آل الشيخ الطبعة الرابعة ، مطبوعات دار الملك عبدالعزيز الرياض ١٤٠٣ ـ ١٩٨٣ م.

٢ ـ حسين بن غنام : تاريخ نجد ، تحقيق د . ناصر الدين الأسد القاهرة ١٣٨١ هـ ـ الموافق ١٩٦١ م.

٣ ـ لوريمرج ج : دليل الخليج ، القسم التاريخي ترجمة ديوان حاكم قطر الطبعة الاولى ٧ أجزاء الدوحة ١٩٦٧ م.

٤ ـ ارنولد ويلسون تعريب عبدالقادر يوسف : الخليج العربي ـ القاهرة د . ت .

٥ ـ د . محمد مرسي عبدالله : إمارات الساحل وعمان والدولة السعودية ١٧٩٣ ـ ١٨١٨ م. جـ ١ القاهرة ١٩٧٨ م .

٦ ـ د . مديحة أحمد درويش : تاريخ الدولة السعودية حتى الربع الأول من القرن العشرين طبعة ثانية جدة ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م.

٧ ـ د . رأفت غنيمي الشيخ : العرب دراسات في التاريخ الحديث والمعاصر ، القاهرة ١٩٨٣ م .

٨ ـ د . رأفت غنيمي الشيخ : في تاريخ العرب الحديث . القاهرة ١٩٧٥ م .

٩ ـ د . عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم : الدولة السعودية الاولى القاهرة ١٩٧٦ م .

١٠ـ عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم : محمد علي وشبه الجزيرة العربية جـ ٢ القاهرة ١٩٨١ م .

١١ـ خير الدين الزركلي : شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز ٤ أجزاء ١٩٧٠ م .

١٢ـ محمد بن عمر الفاخري دراسة وتحقيق وتعليق د . عبدالله بن يوسف الشبل : الاخبار النجدية مطبوعات جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية الرياض د . ت .

١٣ـ محمد بن عبدالله الانصاري : تحفة المستفيد بتاريخ الاحساء في القديم والجديد طبعة ثانية الرياض ١٩٨٢ م .

١٤ـ سنت جون فيلبى تعريب عمر الديرادي : تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفية الرياض د . ت .

١٥ـ امين الريحاني : تاريخ نجد الحديث وملحقاته طبعة ثانية بيروت ١٩٥٤ .
١٦ـ د . صلاح العقاد : التيارات السياسية في الخليج العربي القاهرة ١٩٦٥ م .
١٧ـ د . احمد ابو حاكمة : تاريخ شرقي الجزيرة العربية في العصور الحديثة القاهرة ١٩٦٨ م .
١٨ـ جون ب . كيلي : بريطانيا والخليج ، ترجمة محمد امين عبدالله ٢ جزء مسقط منشورات وزارة التراث القومي والثقافة بسلطنة عمان .
١٩ـ Haskins,: Back ground of the British Position in Arabia. London

# الهوامش

( ١ ) مديحة درويش : تاريخ الدولة السعودية ص ٣٥ .
( ٢ ) د . رأفت الشيخ : العرب دراسات في التاريخ الحديث والمعاصر ص ٧٧ .
( ٣ ) حسين بن غنام : تاريخ نجد ص ١٨٠ .
( ٤ ) د . محمد مرسي عبدالله : امارات الساحل وعمان والدولة السعودية الاولى . ص ١٤٢
( ٥ ) أرنولد : ويلسون تعريب عبدالقادر يوسف : الخليج العربي ص ٣٣١ .
( ٦ ) لوريمر : دليل الخليج القسم التاريخي جـ ١ ص ٣٠٤ .
( ٧ ) د . عبدالرحيم عبدالرحمن : الدولة السعودية الأولى ص ٨٨ .
( ٨ ) د . مديحة درويش : المرجع السابق ص ٣٩ .
( ٩ ) خير الدين الزركلي : شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز جـ ١ ص ٣٩ .
(١٠) عثمان بن بشر : عنوان المجد في تاريخ نجد جـ ١ ص ١١٧ .
(١١) محمد بن عمر الفاخري : دراسة وتحقيق د . عبدالله بن يوسف الشبل ، الاخبار النجدية ص ١٤٥ ـ ١٤٩ .
(١٢) محمد بن عبدالله الانصاري : تحفة المستفيد ص ١٣٨ .
(١٣) عثمان بن عبدالله بن بشر : المرجع السابق الطبعة الرابعة ص ٣٢١ ـ ٣١٢ .
(١٤) د . مديحة درويش : المرجع السابق ص ٥٨ .
(١٥) فيلبي تعريب عمر الديراوي : تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفية ص ١٨١ .
(١٦) أمين الريحاني/ تاريخ نجد الحديث وملحقاته ص ٩٤ .
(١٧) فيلبي : المرجع السابق ص ١٩٩ .
(١٨) أمين الريحاني : المرجع السابق ص ٩٥ .
(١٩) لوريمر : المرجع السابق جـ ٣ ص ١٦٣٨ .
(٢٠) محمد عبدالله الأنصاري : المرجع السابق ص ١٥٤ .
(٢١) محمد بن عمر الفاخري : المرجع السابق ص ١٧٥ .
(٢٢) لوريمر : المرجع السابق جـ ٣ ص ١٤٣٥ .
(٢٣) د . عبدالرحيم عبدالرحمن : محمد علي وشبه الجزيرة العربية جـ ٢ ص ٣١٧ .

(٢٤) د . رافت الشيخ : المرجع السابق ص ٨٩ .
(٢٥) عثمان بن بشر : المرجع السابق جـ ٢ ـ ص ١٧٣ ـ ١٧٩ .
(٢٦) نفس المرجع والصفحات .
(٢٧) نفس المرجع والصفحات .
(٢٨) لوريمر : المرجع السابق جـ ٣ ص ١٤٣٨ .
(٢٩) د . عبدالرحيم عبدالرحمن : المرجع السابق ص ٣٢٢ .
(٣٠) د . رافت الشيخ : المرجع السابق ص ٨٦ .
(٣١) د . صلاح العقاد : التيارات السياسية في الخليج العربي ص ١٣٦ .
(٣٢) د . عبدالرحيم عبدالرحمن : المرجع السابق ص ٣٢٨ .
(٣٣) لوريمر : المرجع السابق جـ ٣ ص ١٣٠٨ .
(٣٤) جون ب. كيلي : بريطانيا والخليج ترجمة محمد امين عبدالله جـ ١ ص ٨٨ .
(٣٥) ارنولد ويلسون : المرجع السابق ص ٣٩٦ .
(٣٦) لوريمر : المرجع السابق جـ ٣ ص ١٣١٠ .
(٣٧) عثمان بن بشر : المرجع السابق ص ٢٠٢ .
(٣٨) د . رافت الشيخ : المرجع السابق ص ٩٠ .
(٣٩) لوريمر : المرجع السابق جـ ٣ ص ١٥١٤ .
(٤٠) لوريمر : المرجع السابق ١٥١٤ .
(٤١) د . عبدالرحيم عبدالرحمن : المرجع السابق ٣٧٥ .
(٤٢) د . رافت الشيخ : في تاريخ العرب الحديث ص ٧٠ .
(٤٣) Haskins Back ground of the British Position in Arabia vol. i, p. 138 - 143.

# العثمانيون والروس في الخليج العربي

## دراسة في العلاقات السياسية بينهما ١٨٧٨-١٩٠٧

## العلاقات الروسية والعثمانية بعد عام ١٨٧٨

كان لروسيا ـ شأنها فى ذلك شأن كثير من الدول الأوروبية الأخرى ـ مصالح استراتيجية وسياسية واقتصادية فى الدولة العثمانية ، مستغلة فى ذلك ضعف هذه الأخيرة ، وحالة التنافس التى قامت حولها فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين . واجهت المطامع الروسية فى الدولة العثمانية ـ كما واجهت مطامع الدول الأخرى ـ أشكالا فى المعارضة والرضوخ ، وذلك تبعا لطبيعة السياسة الروسية وتطورها تجاه



**بقلم : الدكتور**
**طارق نافع الحمدانى (العراق)**

الدولة العثمانية من جهة ، وتماشيا مع حالة هذه الأخيرة من جهة أخرى .

ومن المعروف أن روسيا خلال القرن التاسع عشر ، وبالذات خلال النصف الثانى منه ، كانت تسعى وراء تحقيق أهداف معينة فى سياستها الخارجية ، فقد قال أحد وزراء خارجيتها لامز دورف بأن «السياسة العامة لروسيا القيصرية هى أولا وقبل كل شىء سياسة اسيوية» [١] ان هذا القول يكشف طبيعة المجال الحيوى الذى كانت تفكر فيه روسيا والذى كان يتضمن بشكل أساسى آسيا الوسطى وايران والقفقاس والشرق الأقصى ، بخاصة بعد فشل سياستها التوسعية فى أوروبا الشرقية والبلقان . لقد استقر النفوذ الروسى فى القفقاس منذ بداية القرن التاسع عشر ، وكان اشتداد الصراع بين روسيا وبريطانيا فى الشرق الأوسط قد دفع روسيا الى الاسراع فى ضم مقاطعات آسيا الصغرى مثل طاشقند فى ١٨٦٥ ، وبخارى وسمرقند فى ١٨٦٨ ، وخيفا فى ١٨٧٣ ، وتركستان وعشق أباد ومرو فى ١٨٧٣ . لقد سيطرت روسيا على مساحات واسعة فى آسيا الصغرى ، ولكن توغل الجيوش الروسية الى ما وراء بحر قزوين واقترابها من حدود أفغانستان قد أثار قلق بريطانيا باعتبار أن ذلك يهدد أمنها فى الهند ، فجرت المفاوضات بين بريطانيا وروسيا وانتهت بعقد معاهدة ١٨٨٥ التى ثبتت الحدود بين آسيا الوسطى وأفغانستان [٢] .

وإذا كانت هذه المعاهدة قد أنهت

النزاع بين الدولتين المذكورتين فى آسيا الوسطى ، فإن مجالا آخر للنزاع قد استجد بينهما فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين وذلك فى بلاد فارس والخليج العربى ، بعد بروز الأهمية الاقتصادية لتلك المناطق ، فضلا عن أهميتها الاستراتيجية والعسكرية ، ولم ينته هذا النزاع إلا بعقد معاهدة ١٩٠٧ .

وفى الوقت نفسه فإن الدولة العثمانية ـ خلال الفترة ذاتها ـ كانت قد وصلت الى مرحلة الانحطاط ، إذ كانت تراقبها الدول الأوروبية باهتمام ، وتسعى لاقتطاع أجزاء منها ، وكانت روسيا من بين هذه الدول تنتظر انهيارها ، وتساعد فى بعض الأوقات على ذلك . أما بريطانيا فقد كانت تتبع سياسة حماية الدولة العثمانية والمحافظة على تكاملها السياسى لاعتقادها بأن فى بقاء هذه الدولة بشكلها الضعيف حماية لوجودها فى الهند ، وذلك وفقا للشعار القائل «بأن الدفاع عن الهند يبدأ فى القسطنطينية (٣)» .

لقد كانت أهداف روسيا فى أراضى الدولة العثمانية ترمى الى تحقيق أمرين : أولهما توسيع الحدود الروسية باتجاه الجنوب على حساب الدولة العثمانية متى سنحت الفرصة ، وثانيهما ضمان حرية المرور لسفنها الحربية فى البحر الأسود عبر المضايق . ولتحقيق هذين الأمرين استعمل القياصرة الروس سياسة الضغط والقوة ، حيث أطلقوا التهديدات ضد القوى الأخرى للحصول على امتيازات فى عبور المضائق ، والتأثير على السياسة العثمانية ، وبرزت تلك الأهداف فى حادثتين مشهورتين هما حرب القرم عام ١٨٥٤ والحرب الروسية ـ التركية عام ١٨٧٦ .

كانت روسيا تعلق آمالا كبيرة فى الوصول الى المياه الدافئة على البحر المتوسط ـ عبر البحر الأسود والمضائق ـ أو الخليج العربى ، وهى الآمال التى كانت محط تخوف بريطانيا ومعارضتها ، وذلك لأن نمو اسطول روسى قوى فى البحر المتوسط يمكن أن يهدد مصر ويهدد مرور البواخر البريطانية المتجهة للهند عبر قناة السويس بعد ١٨٦٩ ، فضلا عن أهمية ذلك الوصول بالنسبة للطرق التجارية وتبادل السلع والبضائع مع بلدان الشرق الأوسط . ويبدو أن روسيا قد انتهزت فرصة حروبها مع الدولة العثمانية عام ١٨٧٧ لتحقيق ذلك الهدف ، ولكن الحكومة البريطانية عارضت ذلك بشدة ، ويتضح ذلك من تحذير بعث به اللورد دربى Derby الى شفيلوف Shevlov ـ السفير الروسى فى لندن ، بأن لا تنتهز روسيا فرصة حربها مع الدولة العثمانية للقيام بأى عمل عدائى إزاء قناة السويس والخليج

العربى [٤] وبالنظر لما لاقته روسيا من مقاومة ، فقد وجهت جل اهتمامها نحو فارس ، وذلك لما تمتعت به هذه البلاد من مكانة استراتيجية واقتصادية فى نظر السياسة الروسية ، بخاصة وأن كثيرا من موانيها تقع على الخليج العربى .

إلا أن الوضع تغير بصورة جذرية منذ ثمانينات القرن التاسع عشر ، ذلك أن بريطانيا لم تلبث أن تخلت بصورة واضحة عن سياستها التقليدية إزاء الدولة العثمانية ، حيث تسلمت قبرص من العثمانيين فى مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ ، واحتلت مصر عام ١٨٨٢ . وعلى أساس ذلك تغيرت سياسة الدولة العثمانية تجاه بريطانيا ، لأنها اعتبرت بأن احتلال مصر يمثل اعتداء على مملكتها ، فراحت تحارب المصالح البريطانية ـ بخاصة الاقتصادية ـ فى العراق وفى الخليج العربى [٥] .

ومع هذه التغيرات انتهجت روسيا سياسة جديدة تختلف عن سياستها السابقة تجاه الدولة العثمانية ، وهى تتمثل بالوقوف الى جانب الأخيرة والتصدى للمشروعات التى تهدف الى تقسيمها . من ذلك أن بريطانيا عرضت على روسيا مشروعا لاقتسام الدولة العثمانية أثناء زيارة القيصر الروسى نيقولا الثانى لها عام ١٨٩٦ بحيث تسيطر روسيا على مضيقى البسفور والدر دنيل مقابل سيطرة بريطانيا على أغلبية المناطق العربية [٦] وفى عام ١٨٩٨ رفضت الحكومة الروسية هذا الاقتراح ، ولعل السبب فى ذلك هو سيطرة بريطانيا على قناة السويس واستبعاد النفوذ الروسى عن المنطقة التى كانت تعدها روسيا احد منافذها الرئيسية نحو الشرق ، وهذا ما أشار اليه وزير خارجية روسيا لوبانوف روستوفسكى بقوله : «ان عقدة جميع الصعوبات الشرقية قائمة فى مصر عند قناة السويس» [٧] وهكذا نلاحظ الأهمية الكبيرة التى وجهها الروس نحو قناة السويس باعتبارها ، كما سنلاحظ ، كانت احدى الطرق التى استخدموها للوصول الى الخليج العربى ، مما جعلهم يعارضون بشدة سيطرة بريطانيا التامة عليها .

ومع أن السياسة الروسية هذه لا تمثل نهجا ثابتا إزاء الدولة العثمانية ، ولكن مثل هذا النهج قد أعطى روسيا صوتا مسموعا أكثر من ذى قبل فى العاصمة العثمانية ، وكان قناصلها يعملون فى كل من طهران واستنبول ـ بالتعاون مع فرنسا ـ لإثارة كل من فارس والدولة العثمانية تجاه المصالح البريطانية فى الدولة العثمانية بعامة وفى الخليج العربى بخاصة [٨] .

ونظرا لتطور النفوذ الروسى فى الدولة العثمانية ، فقد تقدم الكونت فلاديمير كابنست Count Valadimir

Kapnist وهو من رجال الأعمال والاقتصاديين الروس، وشقيق السفير الروسى فى فينا، وأحد الشخصيات ذات النفوذ فى البلاط الروسى، الى السلطان عبد الحميد الثانى بمشروع لمد خط حديدى من ميناء طرابلس السورى على البحر المتوسط الى أحد موانىء الخليج العربى، على أن تمتد منه فروع الى بغداد وخانقين، وهو المشروع الذى أحاله السلطان الى وزارة الأشغال العامة من أجل دراسته وتقديم تقرير عنه. إلا أن المشروع أهمل أخيرا بسبب معارضة السفيرين البريطانى والألمانى فى العاصمة العثمانية، حيث شجعا الباب العالى على رفضه، هذا فضلا عن عدم إمتلاك روسيا

الامكانات المادية لدعم المشروع من جهة، وتخوف العثمانيين من النفوذ الروسى فى ممتلكاتهم من جهة أخرى [٩].

## السياسة الروسية تجاه الخليج العربى :

## التطلعات وبواكير النشاط الفعلى :

لقد كانت بلاد الشرق، ومن بينها فارس والمشرق العربى، مثار اهتمام خاص من جانب السياسة التقليدية لروسيا، والخارطة الروسية ـ كما يقول أحد الباحثين ـ تعطينا أسبابا قوية لهذا الاهتمام، فالروس، وعلى الرغم من اتساع امبراطوريتهم وإشرافها على بحار ومحيطات مختلفة إلا أنها بحار غير مفتوحة وقسم منها داخلى مثل بحر البلطيق والبحر الأسود، وأما البحار الشمالية المفتوحة فهى مغلقة فى أغلب شهور السنة بسبب البرد حيث تتجمد مياهها ويصعب ان لم يكن يستحيل اجتيازها، أما سواحل المحيط الهادى فهى بعيدة جدا عن قلب روسيا لذلك لا يمكن الوصول الى المياه المفتوحة والدافئة كالمحيط الهندى إلا بصعوبة [١٠].

لم تكن لدى القياصرة الروس تطلعات واضحة تجاه الخليج العربى طيلة النصف الأول من القرن التاسع عشر، وأصبحت تلك التطلعات فى نهاية ذلك القرن تهدف الى ايجاد مراكز للروس على الخليج تؤدى الى مياه المحيط الهندى الدافئة. وعندئذ روجت الأوساط السياسية فى حكومة الهند بأن روسيا تحاول تحقيق حلم

القياصرة فى الوصول الى مياه الخليج العربى ، تنفيذا لما ورد فى المادة التاسعة من الوصية التى نسبت الى القيصر بطرس الكبير ، التى تشير «الى شن حروب مستمرة ضد الدولتين العثمانية والفارسية والتوغل فيهما حتى الخليج العربى» (١١) . ومع أن الدراسات التاريخية أثبتت زيف هذه الوصية ، إلا أن كثيرا من الناس اعتبروها صادقة زمنا غير يسير ، وكان لحرب القرم (١٨٥٤ ـ ١٨٥٦) ، وللحرب الروسية ـ التركية (١٨٧٦ ـ ١٨٧٨) ، أثر بليغ فى نشر الاعتقاد بين البريطانيين بأن قياصرة القرن التاسع عشر كانوا جادين فى تحقيق ما أنطوت عليه تلك الوثيقة من مآرب توسعية كبيرة (١٢) .

وعلى أية حال ، فقد استطاع الروس أن يضمنوا توسعهم حتى الثلث الأخير من القرن التاسع فى المناطق التى تمتد عبر أراضى الدولة العثمانية وفارس فأفغانستان ، فهيأوا بذلك القواعد الأساسية لإمكانية تقدم جديد فى المستقبل . وفى المرحلة التالية ، وبسبب وقوف الدول الاوروبية الجدي أمام التطلعات الروسية فى الدولة العثمانية فى مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ ، فقد اتجهت روسيا بشكل واضح نحو فارس ، وكان نجاحها الاقتصادى والسياسى فى هذه البلاد سببا فى تطلعها نحو الخليج العربى .

ومن المعلوم أن التطلعات الروسية فى الأقسام الشمالية من فارس قد خرجت من حيز النظريات وأصبحت واقعا عمليا ، بفعل سيطرة روسيا الفعلية على هذه المناطق . أما فى منطقة الخليج العربى ، بساحليها الشرقى والغربى ، فقد ظلت معظم التطلعات الروسية مشاريع نظرية ، ذلك لأن قدرات روسيا الذاتية وأوضاعها الداخلية المضطربة ، لم تكن تتناسب مع تطلعاتها تلك ، هذا فضلا عن أن منطقة الخليج العربى كانت قد أصبحت حكرا للنفوذ البريطانى منذ عام ١٨٢٠ .

ومهما يكن الأمر ، فإن التطلعات الروسية النظرية ، أو النشاطات الفعلية لها فى الخليج العربى فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، كانت انعكاسات للسياسة الروسية التى هدفت الى اقامة نفوذ سياسى واقتصادى لروسيا فى المنطقة ، وتبلورت فى اطارات مختلفة ، استراتيجية وسياسية واقتصادية .

## ١ ـ الاطار الاستراتيجى :

هدفت الاستراتيجية الروسية ـ فى اطارها النظرى ـ منذ نهاية القرن التاسع عشر الى ايجاد منافذ لها

للوصول الى المياه الدافئة ، دون شك .
ولكى يتحقق ذلك شرعت روسيا فى البحث عن قاعده استراتيجية - بحرية لها فى الخليج العربى ، وقد أدركت أن تلك القاعدة لن تكتسب أهميتها المرجوة ما لم يتم الاتصال بينها وبين روسيا نفسها عن طريق مد السكك الحديدية عبر الأراضى الفارسية . وتتوضح هذه الاستراتيجية فيما أعلنته الحكومة الروسية فى أثناء مفاوضاتها مع بريطانيا لعقد إتفاقية ١٩٠٧ بشأن تقسيم فارس «بأنه كان على روسيا - وحتى وقت قريب جدا - أن تضغط باستمرار للوصول الى الخليج العربى ، مما كان يستلزم إنشاء سكة حديد عبر فارس وإنشاء محطة نهائية محصنة على شواطىء هذا الخليج» (١٣) .

وعلى كل حال ، فقد بدأت الدعوة لربط الخليج العربى وإقامة قاعدة فيه عام ١٨٨٦ ، حين قدم أحد المواطنين الروس - سابنيزا Sapienza - مشروعا لربط بحر قزوين بالخليج العربى عن طريق السكك الحديدية . وقد ضخمت السلطات البريطانية فى الخليج العربى هذا المشروع الروسى ، حتى أشيع فى عامى ١٨٨٧ - ١٨٨٨ أن شاه فارس سيتنازل لروسيا عن أحدى جزر الخليج العربى ، ونفى الشاه هذه الاشاعة بشدة (١٤) .

لقد انتشرت شائعات عديدة خلال السنوات العشر التالية عن المناطق التى تسعى روسيا للحصول عليها ، حتى ظهرت مقالة هامة عام ١٨٩٩ فى جريدة «فيدو موستى» التى تصدر فى سان بطرسبرغ بقلم أحد المسئولين الروس ، تطالب صراحة بالحصول على ميناء بندر عباس الى جانب قشم (١٥) وهنجام ولارك وهرمز لتكون نهاية خط حديدى من روسيا عبر فارس . وأشار كاتب المقال بشكل خاص الى المزايا الكامنة لهذه المناطق ، مما يكشف عن أن المقال كان يستند الى معلومات دقيقة . وقد تأكدت تلك المعلومات فيما أعلنته بعض الصحف الصادرة فى اسطنبول ، وفى الدوائر السياسية فى العاصمة العثمانية عندما أبلغ وزير الخارجية البريطانية السفير البريطانى هناك : «أنه واثق من أن مفاوضات تدور بين الحكومة الروسية والحكومة الفارسية بشأن حصول روسيا على ميناء على الخليج يصبح هو نهاية لخط حديدى فارسى - روسى» (١٦) ومع أن الحكومة الفارسية أنكرت وجود مثل تلك المفاوضات ، إلا أن الأحداث التالية تجعل تأكيدات الحكومة الفارسية موضع شك .

تعززت التطلعات الروسية نحو الخليج العربى عن طريق إرسال العديد من الروس الى المنطقة للتعرف على أصلح المناطق التى يمكن لروسيا أن تتخذها قواعد للنفوذ الروسى . وظهر أول دليل على اهتمام روسيا بالخليج في الزيارة التى قام بها ضابط مهندس الى هرمز ـ عن طريق كرمان وبندر عباس ـ فى ربيع عام ١٨٩٥ ، حيث قام خلالها بمسح جزيرة هرمز ، وصرح قبل عودته منها أن روسيا ستقيم مستودعا للفحم هناك [١٧] .

على أن التوجهات الروسية لم تكن مقصورة على الساحل الشرقى فى الخليج العربى ، وإنما كان هناك ما يماثلها فى الجانب الغربى منه . ففى عام ١٨٩٨ اتخذ القنصل الروسى فى بغداد إجراء فيما يخص مشروع بناء قاعدة بحرية روسية فى الخليج ، وكانت الكويت على ما أظهرته الوقائع التاريخية ، هى المنطقة التى وقع عليها اختيار الروس فى الجانب الغربى [١٨] .

ظلت التطلعات الروسية طوال السنوات القادمة تقوم على وصول النفوذ الروسى الى الخليج العربى ، إلا أن إتفاقية عام ١٩٠٧ بين روسيا وبريطانيا حول فارس ، أنهت امكانية قيام الروس بانشاء مراكز لهم فى الخليج العربى ، تلك المراكز التى كانت جزءا من تطلعات السياسة الروسية التقليدية . فقد صرح مدير المالية الروسية كوكوفتسوف Kokovtsov عام ١٩٠٦ بأن تلك الفكرة ـ الوصول الى منفذ على الخليج العربى ـ «إذا كانت فيما مضى فوق طاقتنا ، فهى الآن مستحيلة إطلاقا» [١٩] ومع ذلك كله ، لم يوقع وزير الخارجية الروسية «ازفولسكى» ، على البند الخاص بالخليج العربى ، الذى أرادت الحكومة البريطانية إدراجه فى المعاهدة . وجاء التحفظ الروسى بحجة أن الاتفاقية بشكلها الحالى أمر لا يخص روسيا وبريطانيا وحدهما ، ولكنه يخص دولا أخرى مثل الدولة العثمانية وفرنسا وألمانيا .

## ٢ ـ الاطار الدبلوماسى :

الى جانب التطلعات الروسية فى إقامة قواعد لها فى الخليج العربى ، فقد قامت روسيا بنشاطات دبلوماسية من أجل إقامة قنصليات عديدة فى مناطق الخليج العربى ، واستخدامها وسيلة للاتصال بالقوى المحلية والتأثير عليها . ففى العراق مثلا كان إفتتاح أول قنصلية روسية فى بغداد هو سنة ١٨٨١ . ثم ما لبثت أن أغلقت بعد فترة قصيرة ، وأعيد فتحها مرة أخرى عام ١٨٨٩ ، وأنشأت لها فى الوقت نفسه قنصلية فى البصرة .

وفي عام ١٩٠١ رفعت درجة التمثيل الدبلوماسي في بغداد الى قنصلية عامة [٢٠].

لقد عمل القنصل الروسي في بغداد كروجلو Krouglow بصورة جدية لتحقيق السياسة الروسية في منطقة الخليج ، وقد قام بنفسه بزيارة الكويت خلال الأزمة التي حدثت بين شيخ الكويت والسلطات العثمانية عام ١٩٠١ ، وذلك على ظهر الباخرة الروسية «جيلياك» Gilyak حيث قابل الشيخ مبارك الصباح وحاول التفاهم معه بهذا الشأن ، لكنه فشل في هذا المسعى بسبب الاتفاقية التي عقدها الشيخ مع بريطانيا [٢١].

وفي الوقت الذي كانت تتطور فيه النشاطات السياسية للقناصل الروس في الساحل الغربي من الخليج ، بذلت الحكومة الروسية اهتمامات مماثلة لانشاء قنصليات لها في الساحل الشرقي للخليج . ففي عام ١٨٩٩ حاول دابيجا Dapiga القنصل الروسي في اصفهان وبوشهر ، أن يؤسس وكالات قنصلية في بندر عباس ومسقط والمحمرة . وأشيع في الوقت نفسه أن دابيجا هذا سيقوم بمسح هرمز ليرى امكانية صلاحيتها مخزنا للفحم الروسي في الخليج العربي . وحذرت بريطانيا الروس من مغبة الأمر ، وهذا ما دفع الحكومة الروسية الى ابلاغ السفير البريطاني في بطرسبرغ في ١٨ نيسان عام ١٨٩٩ ، «بأنه ليس لها أي مخططات لبلوغ الخليج العربي ، وأنها لا تنوي بأي حال من الأحوال أن تضيف الى أعبائها ومسئولياتها الحالية مسئولية حيازة ميناء بعيد أو محطات يتطلب الدفاع عنها في أوقات الحرب جهدا أسطوليا» [٢٢].

وعلى أية حال ، فإن نفي روسيا محاولة إنشاء قاعدة بحرية لها في الخليج العربي ـ سواء في ذلك الوقت أو بعده ـ لم يكن يعني نهاية لنشاطهم السياسي ، ذلك لأن القنصليات الروسية في الجانب الشرقي للخليج هي التي كانت تقوم بالدور الأكبر في التحرك السياسي ، حتى أن القنصل الروسي في بوشهر يقوم في عام ١٩٠٢ باستخدام احدى السفن الحربية الروسية لزيارة الكويت ، لنجه ـ على الساحل الشرقي للخليج ـ وبندر عباس لاقامة قنصلية روسية في تلك الموانيء [٢٣].

## ٣ ـ الاطار الاقتصادي :

عملت روسيا على إيجاد مصالح إقتصادية لها في الخليج ، غير أن هذا الأمر لم يكن بالامكان تحقيقه دون إقامة قواعد ووكالات تجارية ، وهذا ما سعت اليه في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . واتخذت

هذه الرغبة ـ في بادىء الأمر ـ شكل الدعوة الى إيجاد أسواق للبضائع الروسية في المنطقة ، ومنافسة القوى الأخرى ـ بخاصة بريطانيا ـ في هذا الميدان ، وإرسال البعوث التجارية الى موانىء الخليج العربي المختلفة من أجل إقامة العلاقات التجارية معها وتحسينها .

ففي الميدان الأول ، أخذت الصحف والمجلات الروسية تركز اهتمامها على منطقة الخليج العربي في العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر ، باعتبار أن لروسيا مصالح إقتصادية فيها . ووجهت في الوقت نفسه النقد اللاذع للسياسة البريطانية ، لعقد معاهدة مع الكويت عام ١٨٩٩ ، وقالت مجلة «روسكى مسك» . «ان لروسيا مصالح تجارية مهمة في الخليج العربي ، ولهذا فإن مثل هذه المواقف وضرب المصالح العثمانية والألمانية والروسية في المنطقة يجب أن يجابه بالمقاومة الشديدة» [٢٤] . وأشارت صحيفة روسية أخرى ، الى أن الحكومة الروسية ستتخذ خطوة مباشرة عن طريق إرسال سفينة حربية الى بندر عباس . إلا أن ناطقا باسم وزارة الخارجية الروسية أعلن بأن حكومته «ليس لها أي نية أو رغبة في إتخاذ أي عمل في الخليج أو جنوب فارس ، وأنها تحاول فقط إيجاد أسواق للبضائع الروسية» ، وهي غير مسئولة عن التصريحات المثيرة للصحافة الروسية [٢٥] .

أما في الميدان الثاني ، فقد جرى إرسال عدة بعوث تجارية علنية وسرية ، الى منطقة الخليج العربي فأعدت التقارير عن الأوضاع التجارية فيها ، وطبيعة النشاطات الاقتصادية التي تنوي السياسة الروسية تحقيقها في المنطقة . من ذلك البعثة التي أوفدت الى الخليج العربي عام ١٩٠٠ ، لدراسة تنشيط التجارة الروسية في المنطقة ، وكانت برئاسة كل من مستر «سروميانينكوف» Saro-miatinkoff ومستر «بيلنبرغ» pel-lanberg اللذين وصلا من بومبي الى بوشهر ، وزارا بندر عباس والمحمرة والبصرة وبغداد ، وجاء في التقارير بأن «سروميانينكوف» جاء الى هذه المناطق بهدف دراسة إمكانية الاتجار مع موانىء الخليج [٢٦] وقد حددت التعليمات الى مستر «سروميانينكوف» باعداد تقرير عن رحلته تلك ، وقام بتنفيذ المهمة ، حيث قدمه الى مستر «دى ويت» وزير المالية الروسي وجاء فيه :

> **«أن ثمة مجالا لتصريف المنتجات الروسية في جنوب إيران ، كالسكر**

والصوف والحبوب والمشروبات الروحية ، غير أنه في رأيه أن تحظى تلك التجارة بعون رسمي لتستطيع منافسة التجارة البريطانية المزدهرة ، كما يمكن رجوع السفن الى روسيا محملة بالأرز والتمر ، واقترح «سرومياتينكوف» فتح مصرف روسى في إحد موانىء الخليج ، وإقامة مخازن للفحم في بوشهر والبصرة ، وإفتتاح وكالات قنصلية روسية هناك ، على أن تحرس بقوة كبيرة وأن

تبقى على الأقل سفينة حربية روسية بشكل دائم في منطقة الخليج [٢٧] .

وعين وزير المالية الروسية لجنة خاصة لدراسة التقرير تضم ممثلين عن مختلف الأجهزة الادارية والهيئات التجارية ، وأقرته في السنة نفسها مع بعض التعديلات الطفيفة . ومنذ هذا الوقت لم تعد السياسة الروسية مجرد أفكار نظرية ، وإنما تبلورت بصورة فعلية حيث إزداد النشاط الروسى البحرى ـ التجارى منه والعسكرى ـ وأصبح وصول السفن الروسية الى الخليج العربى ـ كما سنرى ـ أمرا تنظمه الحكومة الروسية وتدعمه .

## السياسة العثمانية إزاء الخليج العربى وعلاقتها بالقوى الأجنبية :

### ١ ـ السياسة العثمانية في الخليج وموقفها من بريطانيا :

إتسمت سياسة الدولة العثمانية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بمحاولة استعادة نفوذها الاسمى على السواحل الشرقية للجزيرة العربية ، بعد أن فقدته منذ القرن السابع عشر . وقد اقترنت تلك السياسة بمحاولة تقوية النفوذ العثمانى الادارى والسياسى والعسكرى في المنطقة ، حيث اختار العثمانيون ولاة ذوى كفاءة عالية في البصرة ، ومنحوهم صلاحيات عالية بحيث يكونون مسئولين ـ في اغلب الأحيان ـ مسئولية كاملة عن شئون الخليج ، وأصبحت البصرة وفقا لذلك القاعدة العسكرية والسياسية للنشاط العثمانى في المنطقة . ومع ذلك كله ، فإن سلطات والى البصرة ، كما تؤكده وثائق قصر يلدز العثمانية ، كانت

تتعرض لتقلبات كثيرة وشديدة ، فأحيانا نراه مسيطرا على قطر ويتدخل فى البحرين ويصدر الأوامر الى الاحساء ، وأحيانا يتقلص نفوذه الى حد كبير جدا (٢٨) .

أظهر العثمانيون إهتماما جديا بالخليج العربى من خلال حملة مدحت باشا عام ١٨٧١ ، التى استهدفت عودة النفوذ العثمانى الى المنطقة . وأدى ذلك الى تدخل ولاة بغداد والبصرة في أحداث الخليج ، وتحدثت الوثائق العثمانية عن «قطع خليج البصرة» بدلا من الأقاليم والأقطار واعتبرتها جزءا من ولاية البصرة ، كما هو الحال بالنسبة لقطر ودبى مثلا (٢٩) .

غير أن الوجود العثمانى الفعلى فى مناطق خارج ولاية البصرة لم يكن سهلا ، بخاصة وأن بريطانيا كانت صاحبة الكلمة العليا فى الخليج العربى منذ عام ١٨٢٠ ، وأن الامارات العربية على الساحل الغربى للخليج ، مثل الكويت وقطر والبحرين ، التى أدعى العثمانيون حقوق السيادة عليها ، كانت تمارس نوعا من السياسات التى تهدف الى الحفاظ على استقلالها مستغلة في ذلك الخلافات الدولية الموجودة فى منطقة الخليج العربى ، ومن بينها الخلافات العثمانية ـ البريطانية (٣٠) .

وعلى الرغم من أن الدولة العثمانية لم تكن تمتلك غير السيادة الاسمية على مناطق الخليج العربى ، غير أن بريطانيا سعت منذ نهاية القرن التاسع عشر وحتى عام ١٩١٣ الى تجريدها من هذه السيادة . وما إتفاقية عام ١٩١٣ المعقودة بين بريطانيا والدولة العثمانية إلا صيغة لتنازل الأخيرة عن سيادتها الاسمية فى مناطق قطر والبحرين ، وبذلك استطاعت بريطانيا تحويل طابع السيادة العثمانية لصالحها من صيغة الأمر الواقع de fact الى صيغة الطابع الشرعى de Jure (٣١) .

وفى ضوء ذلك لم تكن السياسة العثمانية على وفاق تام مع السياسة البريطانية ، وهذا ما سنحاول التعرض له من خلال ايراد بعض الحوادث التاريخية . ففى عام ١٨٨٧ ، أعلن نظيف باشا والى البصرة العثمانى الجديد ، أثناء مقابلة المستر روبرتسون Robertson الوكيل السياسى البريطانى فى البصرة ، بأن مهمته هى تقوية العلاقات التركية مع إمارات الخليج العربى بدون استثناء بما فى ذلك آل خليفة فى البحرين الذين لم يترددوا فى وضع العلم العثمانى فوق جزيرتهم (٣٢) . وبعد حوالى عشر سنوات من ذلك ، صرح رئيس الوزراء التركى فى تموز عام ١٨٩٨ «بأن السيادة التركية على مناطق الخليج العربى تمتد جنوبا الى القطيف ، وهدد الرئيس التركى بأن أية إدعاءات انجليزية مماثلة ستؤدى الى

مصاعب دبلوماسية على النطاقين الأقليمى والدولى (٣٣) .

رافق هذه التصريحات التركية استعدادات عسكرية ، حيث تم تعزيز القوات العسكرية العثمانية فى البصرة ، وإرسال الطراد «زحاف» الى ساحل القطيف ، الذى أجبرته السفن البريطانية على التراجع الى مياه البصرة .

لم تمر حادثة «زحاف» دون أن تترك تأثيرات عديدة على سياسة القوى المختلفة فى الخليج العربى . فمن ناحية احتج السفير العثمانى فى لندن على الاجراءات الحربية التى اتبعها الأسطول البريطانى فى الخليج . ومن ناحية أخرى ، فقد أجرى زينوفيوف ـ السفير الروسى فى اسطنبول ـ إتصالا مع توفيق باشا ـ وزير الخارجية التركية ، وطلب منه أن يقنع السلطان عبد الحميد بخطورة إرسال الطراد «زحاف» الى الخليج العربى فى الظرف الراهن (٣٤) .

وعلى أية حال ، فالذى يبدو أن الحكومة العثمانية لم تأخذ برأى السفير الروسى بمسألة إرسال الطراد التركى الى الخليج العربى ، الذى أصبح عرضة للتهديد البريطانى . وهنا تدخلت روسيا فى الأمر حيث صرح مسئول فى السفارة الروسية فى اسطنبول «بأن بلاده تستنكر الاعتداءات البريطانية على ممتلكات السلطان ، سواء فى مصر أو فى قبرص أو فى الخليج العربى» . وقد قامت السفارة الروسية ـ كما يقول الدكتور الداود ـ بتوجيه نظر السلطان الى الخطر البريطانى فى منطقة الخليج (٣٥) .

وأظهرت حادثة أخرى ، وهى حادثة الكويت عام ١٩٠١ ، وقوف الروس الى جانب العثمانيين ، بوجه النفوذ البريطانى ، ففى تلك السنة قام أحد الضباط الانجليز بإنزال العلم التركى من مقر الشيخ مبارك ونصب علما جديدا محله سمى بعلم الكويت ، والقيام باعلان الحماية على ممتلكاته مما أدى الى انتشار حملات السخط فى الصحافة الروسية ، حتى أن زينوفيوف ـ السفير الروسى فى اسطنبول ـ أشار على الباب العالى بمراجعة محكمة لاهاى الدولية (٣٦) .

وعلى كل حال ، لم تشجع روسيا مرة أخرى السلطات العثمانية على القيام باجراءات عسكرية ضد الكويت ، وذلك خشية إزدياد النفوذ البريطانى فى الكويت ، ولهذا طلب السفير الروسى فى اسطنبول من السلطان عبد الحميد أن لا يقوم بأى عمل يؤدى الى تعكير الجو السياسى فى هذه المنطقة . ويظهر أن السلطان العثمانى لم يأخذ بنصيحة السفير الروسى هذه (٣٧) .

تأتى هذه التحذيرات لاعتقاد

الروس بأن إثارة قضية الكويت تؤدى الى تقوية النفوذ البريطاني ، واضعاف علاقة الكويت بالدولة العثمانية ، ويمكن أن نلمس هذا فى التقرير الذى بعث به السفير الروسى فى اسطنبول الى القنصل الروسى فى البصرة «أداموف» فى ٣١ آب سنة ١٩٠١ والذى جاء فيه : «إن من

**واجباتنا الأساسية مساندة الحالات التى تثير المتاعب لبريطانيا وتؤدى الى اضعاف موقفها . وإذا أتيحت لكم الفرصة يجب أن تفهموا وتوضحوا للحكام المحليين فى المنطقة بأن من مصلحتهم أن لا يتأثروا أو يهتموا بالمساندة الخارجية وأن لا يثيروا المشاكل والمصاعب أمام السلطة العثمانية فى شبه الجزيرة العربية . وإذا كان بامكانك ـ يقصد أداموف ـ مقابلة الشيخ مبارك فيجب أن توصيه بأن لا يسىء علاقته بالدولة العثمانية ولا يعطى مجالا لتدخل بريطانيا لأن ذلك التصرف يفسح لها المجال لأن تضع يدها على كل سواحل الخليج العربى . أن ضعف الدولة العثمانية يعتبر خطرا كبيرا بالنسبة للمقاطعات العربية المستقلة وأن هذا يساعد بريطانيا على تحقيق مشاريعها التوسعية فى بسط نفوذها على أكبر جزء ممكن من هذه المنطقة** [٣٨] .

لقد تطور النفوذ الروسى والألمانى فى الباب العالى على حساب النفوذ البريطانى ، وهذا ما تكشفه تقارير السفارة البريطانية فى اسطنبول ، بحيث أدى الأمر الى حدوث تنافس شديد بين هذه القوى الثلاث . ومهما يكن من أمر ، فقد نظر العثمانيون بحذر شديد تجاه النفوذ البريطانى المتزايد فى الخليج العربى والمناطق المتاخمة له ، غير أنهم لم يظهروا عداءهم الصريح له ، لعدم امتلاكهم من الوسائل السياسية والعسكرية ما يمكنهم من مواجهته . وهذا ما ينطبق أيضا على ادعاءاتهم بالسيادة على الامارات العربية الواقعة على الخليج ، دون أن يفرضوا نفوذهم الفعلى عليها . ففى رسالة بعث بها السلطان عبد الحميد الثانى فى ٤ ايلول ١٨٩٩ الى السفير البريطانى فى اسطنبول ، جاء فيها :

«بأن تركيا سوف لن تسمح لأى دولة أوروبية (ما عدا بريطانيا) بالحصول على امتيازات فى مياه الخليج العربى ، ولكنها غير مستعده للتنازل عن البصرة أو الكويت أو البحرين أو القطيف» (٣٩) .

وعلى أية حال فإن مراقبة النفوذ الأجنبى فى منطقة الخليج لم تكن مقصورة على السفن البريطانية ، بل هناك ما يشير الى نشاط السلطات المحلية فى ولاية البصرة لمراقبة تحركات السفن الأجنبية فى المنطقة ، ومن بينها السفن الفرنسية والروسية . فقد أوردت وثيقة عثمانية خبر وصول احدى السفن الروسية الى الكويت ، وقالت : «أن ظهور السفن الحربية الأجنبية فى سواحل الكويت من الأمور غير العادية ، لهذا يرجى إجراء التحقيقات اللازمة حول التحركات البحرية الاخيرة فى المنطقة» (٤٠) .

## ٢ ـ السياسة العثمانية والنشاط الروسى فى الخليج العربى :

بدأ الروس يتحركون نحو الخليج العربى فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، مستغلين فى ذلك الروح العدائية التى تولدت لدى السلطان عبد الحميد الثانى ضد البريطانيين ، وقد شجعهم على ذلك إدعاءات العثمانيين بالسيادة على كثير من المناطق فى الخليج العربى .

بذلت السلطات العثمانية فى العراق بعض التسهيلات للروس ، من ذلك أنها اختصرت فترة نظام الحجر الصحى للطراد الروسى «جيلياك» ، الذى وصل الى البصرة فى آذار عام ١٩٠٠ من عشرة أيام الى خمسة أيام تكريما له . وعندما اعترض البريطانيون على ذلك وسع هذا الاستثناء ليشمل جميع السفن الحربية الأجنبية المتجهة الى البصرة (٤١) .

وترددت كثير من الشائعات عن التسهيلات التى منحتها الدولة العثمانية للروس ، بشأن التنازل لهم عن بناء خط حديدى من طرابلس الى الكويت ، وإقامة محطة للتزود بالفحم على الخليج العربى ، وربما الكويت أيضا . من ذلك ما أشار اليه أحد التقارير البريطانية التى رفعها المقيم السياسى فى المنطقة فى ٢٢ كانون الأول ١٨٩٧ ، حيث قال :

وهناك ، على أية حال ، مسألة لفتت نظرى فى الآونة الأخيرة ، فمنذ عدة أشهر تروج الشائعات حول نشاط روسيا وعملائها فى الخليج ... الأمر الذى يؤكد هذه الشائعات الى حد ما ، وزيادة على ذلك ، فقد أدركت من المعلومات التى حصلت عليها أن

الكويت هى الموقع الذى تتركز عليه أعين روسيا» (٤٢) . ولما كان الروس تواقين لمعرفة المزيد عن الكويت ، فقد لجأوا الى السلطات العثمانية فى البصرة أو السلطات المركزية فى اسطنبول ، وذلك من أجل السماح لمبعوثيهم بزيارة المنطقة ، مغلفين مهمتهم بنوع من الكتمان والسرية ومتظاهرين بالرغبة فى التجارة أو مكافحة الطاعون (٤٣) . وتشير الوثائق البريطانية الى ان هؤلاء المبعوثين الروس لم يكونوا تجارا فى معظمهم ، إنما جاءوا لمهمات استطلاعية وسياسية ، ومع ذلك فقد حصلوا على اذن السلطات العثمانية فى العراق بالمرور الى الكويت . من ذلك أن روسيين هما أفانيسوف Ovanessof وعباس عليوف Abbas Aliof ذهبا الى الكويت عام ١٨٩٩ عبر البصرة ، وهما يحملان أمرا من الحكومة التركية الى الشيخ مبارك بأن يمنحهما كل مساعدة ممكنة» (٤٤) . وتشير تلك الوثائق أيضا ، الى أن روسيا أخر قد عبر لتوه من البصرة الى الكويت ، «وهو يحمل توصية من الوالى العثمانى بشراء الجلود ، وذكر بأنه أرمنى ويعمل تاجرا فى بغداد» (٤٥) والظاهر أن هؤلاء المبعوثين كانوا على علاقة وثقى بالمشروعات الروسية التى ترمى الى ايجاد قاعدة للروس فى الخليج العربى ، ومحطة للتزود بالفحم فى المنطقة ، وقد أظهر القناصل البريطانيون تخوفهم من أن تتنازل الدولة العثمانية لهم عن ذلك (٤٦) .

ومن الدلائل على وجود تسهيلات عثمانية للروس فى الخليج العربى ، مسألة الحجر الصحى ، التى حاولت كل من الدولة العثمانية وروسيا الاستفادة منها . فبالنسبة للدولة العثمانية حاولت اتخاذ بعض التدابير لاحكام سيطرتها على مداخل الخليج العربى ، بينما حاولت روسيا الاستفادة من الأمر لزيادة نشاطها فى أجزاء فارس الجنوبية ، فضلا عن الجزء الغربى من الخليج .

وأصل مسألة الحجر الصحى تعود لانتشار وباء الطاعون فى الهند عام ١٨٩٦ ، وامتداده الى بلدان أخرى ، وانعقاد عدة مؤتمرات عالمية لبحث الأمر . وفى المؤتمر الصحى الذى انعقد فى فينيسيا عام ١٨٩٧ طرحت مقترحات لاقامة مركز صحى بالقرب من البصرة وآخر فى جزيرة هرمز أو قشم عند مدخل الخليج العربى ، على أن تكون هذه المراكز تحت سيطرة مكتب الصحة فى العاصمة العثمانية . وقد واجهت هذه المقترحات معارضة بريطانية ، وذلك لاعتقادهم بأن اقامة مثل هذه المراكز

سيمنح الدولة العثمانية سيطرة بحرية فى الخليج العربى . ومهما يكن من أمر ، فقد قبلت بريطانيا قسما من تلك المقترحات فى العام التالى ، على الرغم من ابداء بعض التحفظات حولها (٤٧) .

وقد لا نجانب الصواب إذا قلنا بأن مسألة الحجر الصحى تأخذ طابعا سياسيا ، وذلك لأن روسيا بدأت منذ عام ١٨٩٧ إرسال عدد من الأطباء لدراسة الطاعون فى منطقة الخليج ، هذا مع العلم بأن المرض لم يظهر فى المنطقة إلا فى عام ١٨٩٩ ، وقد قام هؤلاء الأطباء بزيارات متكررة لبندر عباس والبصرة ، ولكن تقارير المقيميات البريطانية فى المنطقة كانت تستبعد عنهم هذه الصفة . فقد أشار لوتش ، المقيم السياسى البريطانى فى الجزيرة العربية «أن المدعو أداموف Adamoff الذى اصطحب طبيبين روسيين فى مهمة خاصة بمكافحة الطاعون فى العام الماضى ، زار بغداد فى شهر آب بعد أن قام بجولة فى الخليج ، ولكن أداموف هذا ليس طبيبا» (٤٨) .

والظاهر أن جميع هؤلاء الأطباء كانوا يقومون بزيارات استطلاعية لمنطقة الخليج ، وأن زياراتهم تلك كانت مرتبطة بالمخططات الروسية الخاصة بالكويت ، إلا أن الحكومة العثمانية لم تعط هذا الأمر أية أهمية ، على الرغم من الزيارات المتكررة التى كانوا يقومون بها للبصرة ، وكان هذا المنحى عاملا مشجعا للنشاط الروسى فى المنطقة .

وإذا كان العثمانيون قد قدموا التسهيلات للروس فى منطقة الخليج العربى ، فإن الأخيرين كانوا يدعمون المواقف السياسية العثمانية ، سواء فى العاصمة العثمانية أو فى منطقة الخليج نفسها . من ذلك أن السفارتين الروسية والألمانية فى العاصمة اسطنبول - كما تلمح الوثائق البريطانية - كانتا تشجعان الحكومة العثمانية على اتخاذ عمل ضد الشيخ مبارك ، باعتبار أنها تمتلك «حقوق السيادة على الكويت» (٤٩) .

غير أن الأهم من ذلك أنه بدأت تظهر عام ١٩٠١ فى الأوساط الروسية بعض الآراء الداعية الى ضرورة المساهمة فى المشكلة الكويتية عندما اشتد الخلاف بين شيخ الكويت والسلطات العثمانية ، ومحاولة الأخيرة إرسال جيوشها الى المنطقة . وأصبحت هذه النظرة موضوع مطالبة الصحف الروسية آنذاك . وعلى أية حال ، فقد شعر القياصرة الروس بأن زيادة النفوذ البريطانى فى الخليج العربى من شأنه أن يقوى ذلك النفوذ فى جنوب فارس أيضا . ولذلك فقد

اقترح زينوفيوف ـ السفير الروسى فى اسطنبول ، «بأنه فى حالة اقدام الحكومة البريطانية على احتلال الكويت أو أى جزء يقع بالقرب من الخليج العربى ، فإن روسيا القيصرية بدورها تكون غير ملزمة أو أنها تعلن بطلان مفعول المعاهدة الروسية البريطانية حول أفغانستان» (٥٠) ، عام ١٨٨٥ .

وعلى هذا فإن إرسال الطراد الروسى «فرياج» Varyag الى المياه الكويتية ، وفتح قنصلية روسية فى البصرة وفى ميناء بوشهر ، وتأسيس شركة للملاحة البحرية بين موانىء البحر الأسود ـ خاصة ميناء أوديسا ـ وموانىء الخليج العربى ، تقع جميعها ضمن إطار الخطة الروسية الجديدة لا خارجها .

ومن ناحية أخرى قام الروس بدور الوساطة من خلال الأزمة التى حدثت بين شيخ الكويت والسلطات العثمانية عام ١٩٠١ . ففى هذا العام اتصل الشيخ مبارك مع القنصل الروسى العام فى بغداد ، لأمر يصفه لوريمر «بأنه مجهول» (٥١) إلا أن الوثائق البريطانية تكشف عن طبيعة هذا الأمر ، مؤكدة بأنه تم عن طريق بعض المواطنين الروس الذين كانوا يترددون ما بين بغداد والكويت ، وبالذات عن طريق اوفانيسوف وعباس عليوف ، اللذين وصفتهما تلك الوثائق فى عدة مواضع «بأنهما رجلان مثقفان ثقافة جيدة ، ويعرفان الروسية والتركية والعربية ، غير أنهما يظهران ارتباطهما بالأعمال التجارية» (٥٢) أما غرض الاتصال فتشير اليه وثيقة بريطانية أخرى قائلة : «أن عباس عليوف ، الموجود الآن فى البصرة (١٩٠١) ، يحمل رسالة موجهة من القنصل الروسى العام فى بغداد الى الشيخ مبارك . مفادها أن السفير الروسى كان قد اتصل بالسلطان عبد الحميد بشأن علاقته مع الدولة العثمانية» (٥٣) .

ومما لا شك فيه ، فإن الروس كانوا قد اتصلوا بالشيخ مبارك عدة مرات ، وعرضوا عليه تقديم مساعدتهم لتحقيق استقلاله ، إلا أنه رفض تلك العروض ، كما سنرى . وجددوا اتصالهم به فى ١٢ أيلول ١٩٠٤ ، إلا أنهم فى هذه المرة عبروا عن استعدادهم لضمان مكانته فى الكويت «إذا ما تصالح مع الأتراك واستقبل القناصل الروس والفرنسيين» (٥٤).

وصفوة القول ، أن السلطات العثمانية فى البصرة ، ساعدت الى حد كبير تحركات الروس فى منطقة الخليج العربى ، وقد عمل هؤلاء ـ وفقا للسياسة الروسية العامة ـ على

التوسط فى بعض القضايا التى تخص العثمانيين ، بخاصة فيما يتعلق بالكويت ، مما أفسح المجال لمزيد من النشاط الروسى قبل عام ١٩٠٧ .

## الطرق التي اتبعتها روسيا للوصول الى الخليج العربي :

لم يسلك الروس طريقاً للوصول الى الخليج العربي ، وإنما سلكوا عدة طرق كان قسم منها يقع ضمن مناطق النفوذ العثماني الرسمى ، مثل طريق العراق ، وطريق الكويت ، وطريق قناة السويس . ويوجد هناك طريق أخر مهم سلكه الروس ألا وهو طريق فارس ، الذي تقع ضمنه منطقة الأحواز التي ظلت موضع نزاع بين الدولتين العثمانية والفارسية طيلة الفترة التي نقوم بدراستها . ولما كان الروس قد اطمأنوا الى جانب الدولة العثمانية كما اسلفنا ، فقد سلكوا هذه الطرق جميعها من أجل زيادة نشاطهم ونفوذهم في الخليج العربي ، كما سنوضح ذلك .

### ١ ـ طريق فارس ـ الخليج :

يعد طريق فارس من أقدم الطرق التي وضعها الروس نصب أعينهم بإعتباره يمثل أقصرها في الوصول الى الخليج العربي . وقد سبق لنا أن بينّا بأن الروس قد وضعوا فارس ضمن مخططاتهم الاستراتيجية قبل عام ١٩٠٧ ، وحاولوا أن يتخذوا أحد موانئها قاعدة لوجودهم في الخليج العربي ، ومحاولة ربطها بخطوط السكك الحديدية القادمة من الشمال . على ان ما ذكرناه يمثل أفكارا نظرية ، سرعان ما تحولت الى واقع عملي حينما أوفد الروس ، ومنذ عام ١٨٨٧ ، عددا من ضباطهم الى أماكن معينة في فارس مثل اصفهان وشيراز وبوشهر وبندر عباس لدراسة امكانية اتخاذها محطة للتزود بالفحم(٥٥) .

تركزت أنظار الروس منذ عام ١٨٩٩ نحو ميناء بندر عباس ، بما فيه الجزر الواقعة في مضيق هرمز ، من أجل أن يكون المحطة التي ينشدها الروس . وقد عزز الروس ذلك عن طريق ارسال الطراد «جيلياك» الذي زار ميناء بندر عباس عام ١٩٠٠ ، وتكررت زيارات السفن الروسية

الحربية لهذا الميناء في السنوات التالية ، مما يدل على انها استهدفت اغراضا سياسية في المنطقة[٥٦] .

كانت مسألة مد السكك الحديدية عبر الأراضي الفارسية ، مهمة للروس بقدر أهمية ايجاد قاعدة بحرية لهم على الخليج العربي . ذلك لأن السكك الحديد كانت هي اداة الربط بين الأراضي الفارسية من جهة ، والقاعدة المنشودة في الخليج من جهة أخرى . غير ان هذا الأمر لم يكن من الأمور السهلة ، بخاصة وان البريطانيين في فارس كانوا يقفون في وجه هذه المشروعات ، لأنها تشكل في نظرهم ، تهديدا لوجودهم السياسي والتجاري في المنطقة .

يعد عام ١٩٠٠ نقطة انطلاق لمشروعات الاستطلاع الروسية الرامية الى معاينة المناطق التي يمتد اليها مشروع الخط الحديدي الذي يربط بين الأقسام الشمالية في بلاد فارس وموانىء الخليج العربي ، وبخاصة بوشهر وبندر عباس . فقد وصلت بعثة روسية الى طهران في آذار ١٩٠٠ ، ومنها اتجهت الى اصفهان وشيراز ، ثم ما لبثت ان اتجهت الى أربعة مواقع مختلفة على الخليج ، وهي بوشهر والمحمرة وبندر عباس وشاهبار .

وقد وصف القناصل الروس هذه البعثة بأنها «بعثة جغرافية» ، ولكن الصحف الروسية وصفت رئيس البعثة بأنه «مدير السكك الحديدية» ، وأثبتت الدلائل بأن رجال هذه البعثة كانوا من المهتمين بالسكك الحديدية ، وقد اوفدوا الى فارس لاختيار أفضل الطرق لمد خط حديدي عبر القوقاز يقطع فارس في اتجاه الخليج ، لكن اعضاء البعثة أظهروا تخوفهم من أن يتقاطع هذا الخط الحديدي مع الخط الألماني في بغداد ، ومع شبكة السكك الحديدية الهندية[٥٧] . وعلى أية حال ، فقد كانت مشاريع السكك الحديدية الروسية تثير المتاعب لبريطانيا ، لأنها كانت مشغولة آنذاك بحرب البوير في جنوب افريقيا (١٨٩٩ ـ ١٩٠٢) ، إلا أن بريطانيا استطاعت أن تضع حداً لتلك المشروعات باتفاقية عام ١٩٠٧ .

ومن الجدير بالذكر ، انه رافق هذه المشروعات الروسية جهود كبيرة لاقامة قنصليات روسية في بلاد فارس ، وقد أثمرت تلك الجهود عن فتح وكالة قنصلية في بندر عباس ، وقنصلية عامة في بوشهر منذ عام ١٩٠١ ، وعين لها اوفسينكو Offseenko ، الذي قام بدور كبير في النشاطات الروسية على الساحل الشرقي للخليج وغربيه .

## ٢ ـ طريق العراق ـ الخليج :

كان العراق الطريق الآخر المهم الذي عمل الروس على استخدامه للوصول الى الخليج ، وذلك عبر وسائل مختلفة . فقد سعت روسيا الى تأسيس مصالح ملاحية لها في العراق ، إذ بذل سفيرها باسطنبول ـ بحكم العلاقة الطيبة مع الدولة العثمانية ، جهودا للحصول على امتيازات مماثلة لتلك التي كانت تتمتع بها شركة لينج البريطانية . ويعتقد ان القرار الذي اتخذته الحكومة العثمانية في سنة ١٨٨٣ ، القاضي بايقاف الشركة البريطانية عن العمل ، كان بتحريض من روسيا(٥٨) .

ووقع العراق في حيز السكك الحديدية ، التي كان الروس يزمعون مدها في الدولة العثمانية . فقد حصل تانكريد Tancred على امتياز من الحكومة العثمانية في آذار ١٨٨٣ لمد سكة حديدية من طرابلس على البحر المتوسط عبر حلب ـ بغداد فالبصرة . غير ان هذا المشروع لم يخل من الاحلام السياسية ، فقد اراد تانكريد أن يخرج اليهود من روسيا ويوطنهم على جانبي السكة الحديد ، لكن معارضة الحكومة العثمانية لمثل هذا المشروع ووفاة تانكريد نفسه أديا الى قبر المشروع(٥٩) . كما ان مشروع كابنست ، الذي سبق ذكره ، كان من المؤمل أن يبدأ من ميناء طرابلس في بلاد الشام حتى الكويت ، على أن يمر أحد فروعه ببغداد وخانقين ، وآخر بكربلاء . غير ان مشروعا كهذا كان مصيره الفشل أيضا ، ذلك لأن روسيا لم تكن تمتلك الوسائل المادية الكافية التي تمكنها من انجاز مثل هذا المشروع ، فضلا عن معارضة بريطانيا والمانيا له(٦٠) .

وعلى الرغم من الاحباطات التي تعرضت لها روسيا في هذه المجالات ، فقد استمرت في سعيها لتطوير مصالحها التجارية في العراق ، وذلك عن طريق تصريف بضائعها فيه واستيراد بعض السلع العراقية . إذ تشير تقارير القناصل البريطانيين الى ان روسيا تقوم بتصريف كثير من بضائعها في العراق مثل البترول (الكيروسين) والأخشاب والأقمشة والأواني الزجاجية والخزفية . وقد بلغت واردات العراق من تلك السلع عام ١٩٠٧، (٥١,٠٠٠) صندوق من البترول ، (٣١,٨٢١) قدما مكعبا من الأخشاب ، و(١٢٦) بالة أقمشة ، و(٣٧٠) صندوقا من الأواني الزجاجية و(٢١٥) صندوقا من الخزفيات(٦١) . وفي الوقت نفسه ، فقد كانت روسيا تستورد بعض المنتجات العراقية ، بخاصة التمور

والجلود . وقد بلغت صادرات العراق الى روسيا سنة ١٩٠٧ (٤,٤٥٣) طنا من التمور[٦٢].

ولعل من بين المجالات التي حقق الروس فيها نجاحا زيادة نشاطهم القنصلي في العراق ، والدور السياسي الفعال الذي قاموا به من خلال قناصلهم في المنطقة ، بخاصة الاتصال بشيخ الكويت لعدة مرات ، وتحريض السلطات العثمانية ضد النفوذ البريطاني المتزايد في العراق وفي الأحواز. وفي المجال الآخر بالذات ، قامت كل من بريطانيا وروسيا بدور غير قليل في مسألة الحدود القائمة بين العراق وفارس ، حيث كانت الأخيرة تخترق سيادة امارة الأحواز. ونظرا لأن كلا من بريطانيا وروسيا كانت لهما مصالحهما الخاصة ، السياسية والاقتصادية ، في هاتين المنطقتين فقد حاولتا وضع حد للمنازعات بين العراق وفارس ، وذلك ابتداء من معاهدة ارضروم الثانية عام ١٨٤٧ وحتى بروتوكول الاستانة عام ١٩١٣[٦٣] .

## ٣ ـ طريق الكويت والسواحل الشرقية لشبه الجزيرة العربية

يعد الكويت من الطرق الرئيسية التي اراد الروس النفاذ منها الى الخليج العربي ، بخاصة وان هذه المنطقة كانت محط أنظارهم كقاعدة للتزود بالفحم ، ونهاية لمشروعات سكك الحديد الروسية الى الخليج ، وهي الموضوعات التي اسلفنا الاشارة اليها . على ان المخططات الروسية هذه كانت الأساس لكثير من الاتصالات التي أجراها الروس مع شيخ الكويت من أجل عقد معاهدة معه ، وان لم تصب هذه الاتصالات نجاحا . وفي هذه النقطة بالذات سوف لا يكون اعتمادنا على الوثائق والمصادر البريطانية التي استخدمها الباحثون كثيرا ، وإنما على بعض المؤلفات الروسية التي اعتمدت على الوثائق الروسية ذات الصلة بالموضوع .

فالنسبة لمعاهدة ١٨٩٩ المعقودة بين حكومة الهند البريطانية والكويت ، اشارت المصادر الروسية ، بخاصة مؤلفات بونداريفسكي ، الى الظروف التي اتخذتها بريطانيا كوسيلة لعقد هذه المعاهدة ، والتي كان من بينها تخويف حاكم الكويت الشيخ مبارك بالخطر العثماني من جهة ، والخطر الروسي الرامي الى اخضاع مشيخة الكويت من جهة أخرى[٦٤] . وازاء ذلك ، فإن هذه المصادر ارادت التشهير بالمؤلفات التي كتبها المؤرخون البريطانيون الذين يرون بأن المبادر لعقد معاهدة

١٨٩٩ ليس بريطانيا ، بل مبارك ، شيخ الكويت ، الذي كان يبحث عن وسيلة تحميه من «الخطر الروسي»[٦٥] .

وفي الوقت الذي تأزمت فيه العلاقة بين الدولة العثمانية والكويت ووصلت عام ١٩٠١ حدا عرفت فيه في المصادر الروسية «بمشكلة الكويت» ، قام الروس بدور واضح في التأثير على سياسة الدولة العثمانية من جهة ، ومحاولة تحقيق ما يماثلها في مشيخة الكويت من جهة أخرى . ففي هذه الأزمة ، ارسل الطراد الروسي «فارياج» الى موانىء الخليج العربي في بداية شهر كانون اول عام ١٩٠٠ ، مما دعا «اداموف» ، القنصل الروسي في المنطقة ، الى أن يبعث برسالة الى «زينوفيوف» - وزير خارجية روسيا - أظهر فيها تخوفه من مثل هذا الاجراء لاعتقاده ان اثارة المشكلة الكويتية مجددا غير ملائم في هذه الفترة . بيد أن «زينوفيوف» لم يأخذ بهذه الاقتراحات وأصر على تنفيذ رحلة الطراد الى موانىء الخليج العربي ، كما أبرق الى «اوفسينكو» ، القنصل الروسي في بوشهر ، طالبا منه ان يكون على ظهر الطراد وأن ينزل الى الأراضي الكويتية ، ويقابل الشيخ مبارك ويلفت نظره الى ان بريطانيا أكثر خطرا على الكويت من الدولة العثمانية ولهذا فعليه أن يحسن علاقته مع الأخيرة[٦٦] ومع اننا لا نعلم اذا كان القنصل الروسي قد نفذ تلك التعليمات أم لا ، ولكن يستنتج من التقرير الذي قدمه الى «زينوفيوف»، بعد زيارته للكويت بأن المقابلة كانت جيدة وان شيخ الكويت لم يكن مرتاحا جدا الى الطلبات والتسهيلات التي ارادها البريطانيون منه[٦٧] .

ولكن الوضع الجديد لم يخل من مفاجآت ، وهذا ما يشير اليه المؤرخ الروسي «بونداريفسكي» ، حيث يقول بأنه عثر على النسخ الأصلية لثلاث رسائل كان قد وجهها مبارك في نيسان ١٩٠١ الى «كروغلوف» القنصل الروسي العام في بغداد ، وتضمنت هذه الرسائل «طلبا ملحا الى الحكومة الروسية بأن تحمي الكويت من دسائس الانجليز ، حتى ان مبارك اقترح رفع العلم الروسي فوق الكويت»[٦٨] .

ومع اننا لسنا بصدد انكار صحة هذه الرسائل ، ولكن الذي يمكن قوله ، انه في ظل التنافس الدولي حول الكويت ، فإن الشيخ مبارك لم يحدد موقفه تماما من الأطراف المتنازعة في بادىء الأمر ، ولهذا استقبل قناصل بريطانيا وروسيا والمانيا ، وقد قبل صداقة هؤلاء جميعا دون قيود[٦٩] .

وصفوة القول ، فإن المصادر

الروسية ارادت الوصول الى نتيجة رئيسية ، وهي ان الروس في اتصالاتهم المستمرة مع شيخ الكويت لم يرغبوا في استغلال هذه القضية لصالحهم ، ولكنهم ارادوا اتخاذها وسيلة للوقوف في وجه الزحف البريطاني الى الأقسام الشمالية من الخليج العربي ، غير انهم فشلوا في هذا المضمار لتركز النفوذ البريطاني هناك .

لم تقتصر اتصالات الروس على الشيخ مبارك وحده ، إذ اتصلوا بالأمير عبدالعزيز بن متعب بن الرشيد أمير نجد ، كما اتصلوا بالأمير عبدالعزيز بن سعود عقب نجاحه في استرجاع الرياض من عامل ابن الرشيد عليها . وكانت اتصالات الروس متزامنة مع رغبة العثمانيين في استعادة نفوذهم في الجزيرة العربية ، وذلك من خلال تقديم العون لابن الرشيد ضد ابن سعود . ولعل من أقدم هذه الاتصالات ، تلك الزيارة التي قام بها «ادوارد نولدي» الموظف الروسي الذي كان في الأصل المانيا من ساحل البلطيق . وقد توجه عن طريق بيروت ودمشق الى حائل ، وزار مخيم مشيخة ابن رشيد في شمالي الرياض ، ثم توجه الى طرابزون عن طريق العراق (كربلاء ـ بغداد ـ الموصل) ، والأناضول الشرقية . ولمذكرات هذا الموظف الروسي أهمية كبيرة جدا ، ذلك لأنه يشير فيها الى الوضع السياسي في شبه الجزيرة العربية وزيارته لأبن رشيد ، الذي كان في حالة عداء مع السعوديين(٧٠) ومهما يكن من تفسير لهذه الزيارة ، فإنها كانت في الواقع ذات أغراض سياسية بخاصة وان الشخص الذي قام بها كان موظفا لدى الحكومة الروسية ، وقد زار أحد الأطراف المتنازعة في الجزيرة العربية ، وترك لنا انطباعاته عن الأوضاع في المنطقة . ومما يدل على ذلك ، ان الروس وبعد أن أصيبوا بخيبة أمل في اتصالاتهم مع الشيخ مبارك حتى عام ١٩٠١ ، فقد حاولوا ان يقيموا علاقات مع عدوه الرئيسي ابن رشيد(٧١) .

وعلى هذا النحو اراد الروس أن يتدخلوا في النزاعات القائمة في شمال وشرقي الجزيرة العربية . فعلى اثر الزيارة التي قام بها «أوفسينكو» القنصل الروسي العام في بوشهر ، لشيخ الكويت مبارك الصباح ، التقى بأحد امراء ابن سعود ، تصادف وجوده وقتذاك بالكويت ، حيث تؤكد الوثائق البريطانية بأن القنصل الروسي قد عرض عليه تقديم المساعدات من مال وسلاح(٧٢) وفي الوقت نفسه ، تحتفظ الوثائق البريطانية بنسخة من رسالة

عبدالرحمن بن فيصل بن سعود ، الموجهة الى المقيم السياسي في الخليج ، مؤرخة في ٥ صفر ١٣٢٠هـ/ ١٤ مايو ١٩٠٢ ، وهي تشير الى الاتصال الذى أجراه الأمير السعودي مع القنصل الروسي في الكويت ، الى أن تقول : «وطلب مني - أي عبدالرحمن - ان اكتب له رسالة واصفا فيها المعاملة السيئة التي وجهها الاتراك لي ، والمساعدة التي قدموها لأبن رشيد ضدي(٧٣) .

تلك هي الظروف التي احاطت بالاتصالات الروسية مع ابن سعود ، التي دأبت الوثائق البريطانية على تصديقها ، ولكنها اعتبرتها «تكتيكا» Tactic اراد الطرفان استغلالها لتحقيق مصالحهما الخاصة ، فابن سعود اراد اثارة البريطانيين للوقوف الى جانبه ضد ابن رشيد ، في حين ارادها الروس وسيلة لاظهار نشاطهم ومطامحهم في المنطقة ، التي كانوا تواقين للوصول اليها(٧٤) .

وتطلع الروس نحو البحرين حيث زار بعض مواطنيهم هذه البلاد عام ١٩٠٢ ، وكان من بينهم المدعو «سربيانيكوف» "Serebianikoff" الذي ادعى انه اتى المنطقة سائحا ، والتقط عدة صور لأماكن متفرقة في البحرين ، وقال بأنه سيرسل هذه الصور وسيكتب انطباعاته للصحافة الروسية(٧٥) . وفي العام نفسه ، زارها المستر «بوغوبا فلينسكي» العالم الروسي المتخصص في الاحياء المائية ، حيث امضى فيها اسبوعين في مهمة علمية ، التقى خلالها بشيخ البحرين . ويؤكد لوريمر ، بأن هذا الشخص «كان عالما بالفعل لا شأن له بالمصالح السياسية(٧٦) ، إلا ان المعلومات التي تحفظها الوثائق الروسية تظهر عكس ذلك ، إذ انها تشير الى بعض كتابات هذا العالم ، وبعض التصريحات التي نقلها عن حاكم البحرين ، وجميعها تدل على اهتماماته السياسية . ومن بين تلك الكتابات قوله «هناك رغبة قوية عند شعوب المنطقة في ايجاد علاقة متينة مع روسيا»(٧٧)كما انه ينقل لنا تصريحا لشيخ البحرين عند زيارته له جاء فيه :

**«ليس هناك أي شك في ان العرب يخشون (الأصل يخافون من) الانجليز . الانجليز هنا منذ مائة عام ، والكل يعلم انهم يملكون المدافع والبواخر الحربية ، وليس هناك دولة اوربية جاءت الى هذه المنطقة يمكنها ان تساعد العرب فيما اذا رفضوا العمل حسب رغبة**

**الانجليز . فإذا استمر الروس في المجيء الى هنا فإن العرب ستقل مخاوفهم بصورة تدريجية من الانجليز[٧٨] .**

فلا غرو بعد هذا ، أن لا يستبعد المرء طبيعة المهمة السياسية ، وربما العلمية ايضا ، التي هدف اليها «بوغوبا فلينسكي» من زيارة البحرين ، بخاصة وانها جاءت في وقت زاد فيه النشاط السياسي الروسي في المنطقة .

## ٤ . طريق قناة السويس . الخليج .

يعد طريق قناة السويس من أكثر الطرق أهمية ، إذ وصلت بواسطته كثير من السفن الروسية الحربية والتجارية من أجل ارساء النفوذ الروسي في الخليج العربي ، وتم هذا بعد افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ .

يرتبط هذا الطريق مع مجمل النشاطات الروسية الأخرى ، ذلك لأنه في الوقت الذي كان يجري فيه البحث عن نهاية للسكة الحديدية المزمع اقامتها في الخليج العربي في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ظهرت في الوقت ذاته الدعوة لانشاء خطوط ملاحية تربط البحر الأسود بالخليج العربي ، عبر قناة السويس ، واقامة المحطات التجارية المناسبة في المنطقة . وعلى هذا الاساس ، زارت البعوث التجارية مختلف موانىء الخليج العربي لفتح الوكالات فزارت الكويت والبحرين ومسقط وقطر والمحمرة ، وأخيرا اتخذت الشركة الملاحية مركزا لها في بوشهر بعد ان رفضت الموانىء العربية قبولها ، غير ان الروس حاولوا افتتاح وكالات لهذه الشركة في كل من مسقط وجاسك وبندر عباس ولنجة والمحمرة والبصرة[٧٩] .

زاد الروس نشاطهم السياسي والتجاري في الخليج العربي عن طريقين ، وهما المظاهرات البحرية الروسية التي استهدفت اغراضا سياسية ، وانشاء الشركات الروسية للملاحة البخارية . فبالنسبة للطريق الأول ، زار عدد من الطرادات الحربية الروسية ـ في بداية القرن العشرين ـ موانىء الخليج العربي ، مثل «جيلياك» عام ١٩٠٠ ، و«فارياج» عام ١٩٠١ ، و«اسكولد» عام ١٩٠٢ ، و«بويارين» عام ١٩٠٣ . ويمكننا ان ندرج أهداف هذه الزيارات في الآتي :

١ ـ الحصول على معلومات هامة حول الوضع بالخليج والمناطق التي يستحسن للبواخر الروسية ارتيادها

والتماثل فيها .

٢ - الفات نظر الدوائر السياسية البريطانية ، والتلويح بأن بريطانيا ليست وحدها صاحبة النفوذ في المنطقة .

٣ - اظهار الاتفاق بين السياستين الروسية والفرنسية تجاه الخليج العربي ، وهذا ما تعكسه زيارة الطراد الروسي «بوبارين» بصحبة الطراد الفرنسي «لانغرتيه» ، لمسقط وقيام قائدا الطرادين بمقابلة السلطان معا(٨٠) .

٤ - تعريف سكان المنطقة بالروس ونشاطهم إذ كان يسمح للمواطنين أحيانا بالصعود الى السفن الروسية ومشاهدتها . وقد أثارت هذه السفن ، وبالذات «فارياج» سكان موانىء الخليج وذلك لاستخدامها الانارة الكهربائية الحديثة التي تفتقر اليها السفن الحربية البريطانية الموجودة في مياه الخليج العربي . ولكي يغطي البريطانيون على ذلك فقد جاءوا بالمولدات الكهربائية الى جميع قواعدهم في الخليج ، كما ارسلوا الى مياه الخليج الطراد الحديث «امفيتريد» الذي يشبه الطراد الروسي «فارياج» في أجهزته الكهربائية(٨١) .

ويبدو ان زيارات السفن الروسية تركت أثرا كبيرا في نفوس الناس الموجودين في المنطقة ، بحيث اثار الأمر انزعاج القنصل البريطاني في البصرة . وفقد لوريمر صوابه بحيث وصفها بعبارات لاذعة حيث يقول : «وكان يميز زيارات هذه السفن المتتابعة لموانىء الخليج حفاوات زائدة ، وتحيات رسمية وبحرية ، ومجاملات واسعة ، بل واحيانا كانت السفن نفسها تسمح للدهماء - كذا من العرب والايرانيين بالصعود اليها ومشاهدتها»(٨٢) .

ولكي يقيم الروس لهم مصالح ثابتة ومستقرة في الخليج ، فقد عملوا على تسيير خط من البواخر الملاحية اليه ، وهذا ما أوحت به اللجنة التي ألفها «دي ويت» ، وزير المالية الروسي ، حيث دعت في تقريرها الذي اصدرته في أواخر عام ١٩٠٠ الى اقامة خط ملاحي من ميناء أوديسا على البحر الأسود الى كل من البصرة وبوشهر خلال شهرين ، فكان وصول الباخرة الروسية «كورنيلوف» Korniloffl الى الخليج العربي في أذار ١٩٠١ بمثابة تدشين لهذا الخط .

لقد توسعت التجارة الروسية في الخليج العربي بسرعة كبيرة حتى قدر عدد السفن التي ارسلت خلال الاعوام من ١٩٠٣ - ١٩١٤ بحوالي ستين باخرة روسية كبيرة محملة بالأخشاب والنفط والخزف الصيني والزجاج والسكر والطحين والمكائن

والاقمشة والكبريت والمشروبات والمربات ، وفي طريق عودتها الى روسيا كانت تقل التمور والتبغ والسمسم والجلود[٨٣] .

وهكذا يبدو لنا ان الروس ، منذ مؤتمر برلين عام ١٧٨٨ ، بدأوا ينتهجون سياسة المحافظة على الدولة العثمانية بدلا من اقتسامها ، على العكس من السياسة البريطانية التي بدأت تنتهج سياسة مغايرة . وعلى هذا الاساس ، ولما كان للعثمانيين نفوذ اسمي في منطقة الخليج العربي ، سواء في البصرة أو في الامارات العربية ، فقد حاول الروس الاستفادة من هذا النفوذ . بخاصة وان العثمانيين سعوا الى احيائه في سبعينات القرن التاسع عشر ، وكرروا الامر في أواخر القرن المذكور واوائل القرن العشرين . لقد عمل الروس على ايجاد قواعد بحرية لهم في الخليج سواء في الجانب الشرقي منه أو الغربي ، ولقى الروس العون من السلطات العثمانية المركزية منها والمحلية في ولاية البصرة ، ومع ذلك ظلت معظم المشروعات الروسية نظرية ولم تخرج الى حيز الوجود ، رغم الوسائل السياسية والاقتصادية والعسكرية التي اتبعتها روسيا ، ويعود سبب ذلك الى استقرار النفوذ البريطاني في المنطقة منذ عام ١٨٢٠ وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى .

وعلى أية حال ، فإن المخططات الروسية تجاه الخليج العربي قد انتهت باتفاقية عام ١٩٠٧ بين روسيا وبريطانيا ، ذلك لأن الأخيرة قد حالت فيها بين الوجود الروسي في شمال بلاد فارس وبين الأماكن التي كانت محط انظار الروس في الخليج . على ان قبول روسيا بهذا الأمر لم يكن طوعا ، وإنما بفعل الأوضاع المضطربة التي كانت عليها روسيا ، بسبب اندحارها في الحرب مع اليابان عام ١٩٠٥ ، وقيام الثورة الفرنسية في العام نفسه .

ولكن الأهم من ذلك كله ، ان الروس اذا كانوا قد فشلوا في تحقيق نفوذ سياسي مستقر لهم في الخليج ، بسبب النفوذ البريطاني القوي ، فإنهم نجحوا في المحافظة على تجارتهم في المنطقة دون انقطاع ، وبخاصة عن طريق ميناء البصرة ، ومنه الى بقية انحاء العراق ، والأقسام الداخلية في فارس .

# الهوامش

## هوامش البحث :


١ ـ دريك هولدر ، السياسة السوفيتية تجاه الشرق الأوسط في : دراسات في الاقتصاد والسياسة والقانون ، مجموعة المحاضرات التي القيت في الندوة الديبلوماسية التي نظمتها وزارة خارجية دولة الامارات العربية المتحدة في ابوظبي لعام ١٩٧٨ ، ص ١٥٤ .

٢ ـ روتشين ، العلاقات الدولية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين (موسكو ، ١٩٦٠) ص ٥٧٩ (باللغة الروسية) ، نقلا عن : الدكتور نوري عبدالبخيت ، الصراع بين روسيا وبريطانيا حول فارس والخليج العربي في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، مجلة الخليج العربي ، (جامعة البصرة) ، العدد السادس (١٩٧٦) ص ٥٧ .

٣ ـ بونداريفسكي ، سياستا ن ازاء العالم العربي (دار التقدم ، موسكو ، ١٩٧٥) ص ٥٦ .

٤ ـ الدكتور جمال زكريا قاسم ، دراسة لتاريخ دولة الامارات العربية المتحدة ١٨٤٠ ـ ١٩١٤ (دار البحوث العلمية ، الكويت ، ط ٢ ، ١٩٧٤) ص ٣٩١ .

٥ ـ الدكتور عبدالكريم غرايبة ، وثائق يلدز كمصدر لتاريخ البصرة وخليجها والنشاط الاوربي في تلك المناطق في : بحوث المؤتمر الدولي للتاريخ (مطابع دار الحرية ، بغداد ، ١٩٧٥) ص ٦٩٥ .

٦ ـ W.L. Langer, The Diplomacy of Imperialism (New York, 1956), pp. 466-7.

٧ ـ بونداريفسكي ، المصدر السابق ، ص ٥٧ .

٨ ـ قاسم ، المصدر السابق ، ص ٣٩٩ .

٩ ـ Edward Meaa Earle, Turkey, the Great powers, and the Baghdad Railway (Russell and Russell, New York, 1966), p. 58.

١٠ـ محمد عدنان مراد ، صراع القوى في المحيط الهندي والخليج العربي : جذوره التاريخية وابعاده (دار دمشق للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٨٤) د ص ٣٤٠ .

١١ـ انظر نص الوصية في كتاب برسي سايكس Sir Percy Sykes, A History of Persia (Macmillan and Co. Ltd. London, 1963), Vol. II, pp. 244-6.

١٢- الدكتور زكي صالح ، بريطانيا والعراق حتى ١٩١٤ : دراسة في التاريخ الدولي والتوسع الاستعماري (مطبعة العاني ، بغداد ، ١٩٦٨) ص ١٤٣ .
١٣- روز لويس كريفس ، المعاهدة الانجليزية الروسية ١٩٠٧ - ١٩١٤ :
بعض وجوهها ومدى تاثيرها في فارس ، ترجمة الدكتور محمد وصفي ابو مغلي ، مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة ، السلسلة الخاصة - ٣٩ - (١٩٨٤) ص ٩ .
١٤- India office, L/P s/20/c. 277. Russian activities, in P.G.
نقلا عن : د. عبدالعزيز عبدالغني ابراهيم ، سياسة الأمن لحكومة الهند في الخليج العربي ١٨٥٨ - ١٩١٤ : دراسة وثائقية (مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز ، الرياض ، ١٩٨٢) ص ٢٨٧ .
١٥- ج. ج. لوريمر ، دليل الخليج ، القسم التاريخي ، مطبوعات علي بن علي ، الدوحة ، قطر ، ط ٢ د. ت) ، ج ١ ص ٥٢٣ .
١٦- المصدر نفسه .
١٧- سير ارنولد ويلسون ، تاريخ الخليج ، ترجمة محمد امين عبدالله - سلطنة مسقط ، وزارة التراث القومي والثقافة ، ط ٢ ، ١٩٨٥ ، ص ١٨٥ .
١٨- المصدر نفسه .
١٩- كريفس ، المصدر السابق ، ص ٨ .
٢٠- لوريمر ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٥٧٦ ، وج ٧ ص ٣٩٥٤ .
٢١- المصدر نفسه ، ج ١ ص ٥٧٥ .
٢٢- د. عبدالعزيز عبدالغني ابراهيم ، السلام البريطاني في الخليج العربي ١٨٩٩ - ١٩٤٧ : دراسة وثائقية (دار المريخ ، الرياض ، ١٩٨١) ص ٨١ .
٢٣- لوريمر ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٥٧٥ .
٢٤- البروفيسور بونداريفسكي ، الدبلوماسية الروسية ومشكلة الكويت سنة ١٩٠١ ، ترجمة وتعليق الدكتور نوري عبدالبخيت ، مجلة كلية الآداب (جامعة البصرة) ، العدد ١٢ ، السنة العاشرة (١٩٧٧) ص ١٣٠ .
٢٥- Sir C. Scott to the Marquess of Lansdown, St. Petersburg, Dec. 25, 1907, Quoted in: Robin Bidwell, the Affairs of Kuwait 1896 - 1905, Vol. I. 1896 - 1907 (Frank Cass and Company, London, 1917). Vol. I, p. 163.
٢٦- ابراهيم ، السلام البريطاني في الخليج العربي ، ص ٨٢ .
٢٧- لوريمر ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٥٣١ .
٢٨- غرايبة ، المصدر السابق ، ص ٦٩٣ .
٢٩- عبدالكريم غرايبة ، الخليج العربي في العهد العثماني في : دراسات في التاريخ والسياسة والقانون والاقتصاد ، مجموعة محاضرات الندوة الدبلوماسية التي نظمتها وزارة خارجية دولة الامارات العربية المتحدة في

ابوظبي (١٩٨٠) ص ١٦٨ .
٣٠- أحمد العناني ، دراسة مقارنة بين الوثائق التركية والبريطانية ، الشيخ قاسم بن محمد بن ثاني ومشكلات الزعامة المحلية في الخليج خلال القرن التاسع عشر ، ابحاث الحلقة الرابعة للمراكز والهيئات المهتمة بدراسات الخليج العربي والجزيرة العربية (مناقشة الدكتور محمود علي الداود) ، (ابوظبي ، ١٩٧٩) ، ص ٢٣٧ .
٣١- لوتسكي ، تاريخ الاقطار العربية الحديث (دار التقدم ، موسكو ، د . ت) ص ٤٢٤ .
٣٢- From Robertson to the Political Resident in Turkish Arabia, No. 207 14 Dec. 1887, F.O. 78/5108.
٣٣- الداود ، المصدر نفسه ص ١١٨ .
٣٤- بوندار يفسكي ، الدبلوماسية الروسية ومشكلة الكويت سنة ١٩٠١ ، ص ١٢٣ .
٣٥- العلاقات الدولية في الخليج العربي ، ص ١١٤ .
٣٦- لوتسكي ، المصدر السابق ، ص ٤٢٣ - ٤ .
٣٧- نفس المصدر.
٣٨- بوندار يفسكي ، الدبلوماسية الروسية ومشكلة الكويت ، مقتبس من ارشيف سياسة روسيا القيصرية الخارجية ، وثيقة ١٦١٥ ، ورقة ٣٦٥ .
٣٩- الداود ، المصدر السابق ، ص ١٢٣ مقتبس من :
Enclosed In O'connor to Foreign office, No. 4424, Sept. 1899. F.O. 78/5114.
٤٠- الباب العالي/ نظارة الشئون الخارجية ، برقية من توفيق باشا الى منير بك ، باريس ، الرقم ٧/٤٥٦١٥ في ٨ يناير ١٩٠٢ نقلا عن : د . نجاة عبدالقادر القناعي اهمية الوثائق العثمانية في دراسة تاريخ الخليج العربي الحديث وشبه جزيرة العرب الحديث ، دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد ، الثلاثون ، السنة الثامنة ، (ابريل ١٩٨٢) ص ١٨٠ .
٤١- لوريمر ، المصدر السابق ، ص ٢٢٥٣ .
٤٢- الدكتورة فتوح الخترش ، التاريخ السياسي للكويت في عهد مبارك : دراسة وثائقية مقارنة بالمؤرخين المحليين ، تأليف ج . ج سلدانها ، عن كتاب شئون الكويت ١٨٩٦ - ١٩٠٤ (الكويت) ط ، ١ - ١٩٨٥ ، ص ٦٢ .
٤٣- د . بدر الدين الخصوصي ، النشاط الروسي في الخليج العربي ١٧٨٧ - ١٩٠٧، دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد الثامن عشر ، السنة الخامسة (نيسان ، ١٩٧٩) ، ص ١١٩ .
٤٤- Government of India to Lord G. Hamilton, Feb. 14, 1899, Bid Well, op. cit, vol. 1, p. 40.

٤٥- Sir N. O'conor to the Marquess of Salisbury, constantinople, Feb. 25, 1899.

٤٦- Foreign Office to Admiral Beaumont, Foreign Office, Feb. 16, 1898, Bidwell, Op. Cit, Vol. 1, P. 27.

٤٧- للمزيد من مسالة الحجر الصحي تلاحظ الوثائق البريطانية التي جمعها بدويل Bidwell وانظر ايضا ، القناعي ، المصدر السابق ، ص ١٦١ - ٠٦٦.

٤٨- الخترش ، التاريخ السياسي للكويت في عهد مبارك ، ولكنها تذكر اسم الروسي الذي اصطحب الطبيبين خطا باسم «ادموان» ، انظر نص التقرير ايضا في : Bidwell, The Affairs of Kuwait, Vol. 1, 1896 - 1901, Government of India to Lord G. Hamilton, Feb. 9, 1898, P. 27.

٤٩- Foreign Office (Confidental), October, 30, 1901, P. 13; N. O'Conor to the Marquess of Lansdowne, Therapia, August 21, 1901, Quoted in: Bidwell, Op. Cit, Vol. 1, P. 78.

٥٠- ارشيف سياسة روسيا الخارجية ، وثيقة ٣٦٤ ، ورقة ٥٣٣ نقلا عن : بوندار فيسكي ، الدبلوماسية الروسية ومشكلة الكويت سنة ١٩٠١ ، ص ١٢٧ - ٨ .

٥١- دليل الخليج ، ج١ ص ٥٧٥ .

٥٢- Sir N. O'Conor to the Marquess of Salisbury, Constantinople, March 18, 1899, Quoted in, Bidwell, Op. Cit, Vol. 1, P. 47.

٥٣- Consul Wratislaw to Sir N. O'Connor, Bussorah, May 15, 1901, Quoted in Bidwell, Op. Cit. Vol. 1, P. 54.

٥٤- Bidwell, Op. Cit, Vol. 7, (Introduction);, P. XLV.

٥٥- الدكتور بدر الدين الخصوصي ، الخليج العربي والمطامع الأستعمارية ، مجلة كلية الاداب والتربية (جامعة الكويت) ، العددان الثالث والرابع ، حزيران وكانون الاول (١٩٧٣) ص ٢٤٣ .

٥٦- لمزيد عن زيارات السفن الروسية الحربية لمنطقة الخليج العربي يلاحظ : لوريمر ، المصدر السابق ، ج١ ص ٥٢٣ - ٥٢٥ .

٥٧- المصدر نفسه ، ج١ ص ٥٢٧ - ٩ .

٥٨- المصدر نفسه ، ص ٢٢٥٢ .

٥٩- الدكتور لؤي بحري ، سكة حديد بغداد (شركة الطبع والنشر الاهلية ، بغداد ، ١٩٦٧ ، ص ٢٠ .

٦٠- المصدر نفسه ، ص ١٨ - ٩ .

٦١- British Parliamentary Papers, Report on the trade of the Wilayet of Basra, 1908, CXVI, P. 8: نقلا عن : جاسم محمد حسن ، العراق في العهد الحميدي ١٨٧٦ - ١٩٠٩ ، رسالة ماجستير غير منشورة ، مقدمة الى كلية الاداب ، جامعة بغداد (١٩٧٥) ، ص ٤٠٢ .

٦٢- المصدر نفسه .
٦٣- انظر الدكتور جابر ابراهيم الراوي ، الحدود الدولية ومشكلة الحدود العراقية - الايرانية : دراسة قانونية وثائقية (مطبعة دار السلام ، بغداد ، ١٩٧٥) ص ٢٤٨ .
٦٤- بوندار يفسكي ، سياستان ازاء العالم العربي ، ص ٦٦ .
٦٥- المصدر نفسه ص ٦٧ .
٦٦- ارشيف سياسة روسيا الخارجية ، وثيقة ٣٦٥ ، ورقة ١٣ ، نقلاً عن بونداريفسكي الدبلوماسية الروسية ومشكلة الكويت سنة ١٩٠١ ص ١٢٩ ، سياستان ازاء العالم العربي ، ص ٦٧ ، المؤلف نفسه ، التوغل البريطاني في جنوب وادي الرافدين ومحاولات احتلال الكويت في بداية القرن العشرين - ترجمة الدكتور نوري السامرائي ، مجلة الخليج العربي ، (جامعة البصرة) ، العدد الثالث (١٩٧٥) ص ٥٣ .
٦٧- المصدر نفسه.
٦٨- بونداريفسكي.
٦٩- قاسم ، المصدر السابق ، ص ٢٦٧ .
٧٠- ب . م . دانتسيغ ، الرحالة الروس في الشرق الاوسط ، ترجمة وتعليق الدكتور معروف خزنة دار (المركز العربي للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٨١) ص ٣٣٨ .
٧١- Bidwell, Op. Cit, Vol. 1, P. XIV (Introduction).
٧٢- في برقية للادميرال داي . هـ . بوسانكويت ، سلدانها ، عن شئون الكويت ١٨٩٦ - ١٩٠٤ ، ص ١٦٦ .
٧٣- Foreign Office, from C.A. Kemball Officiating Political Resident in the Gulf, to the Secretary of the Government of India, حيث نجد في هذه الوثيقة الترجمة الانكليزية لرسالة عبدالرحمن بن فيصل بن سعود باللغة العربية .
٧٤- Consul Wratislaw to Sir N. O'Connor (Confident) Bussorah, June 8, 1901, Quoted in: Bidwell, Op. Cit, Vol. 1, P. 61.
٧٥- ابراهيم ، السلام البريطاني في الخليج العربي ص ١٠٠ .
٧٦- دليل الخليج ، ج١ ص ٥٦٨ .
٧٧- عبد البخيت ، الصراع بين روسيا وبريطانيا حول فارس والخليج العربي ، ص ٦٢ .
٧٨- ارشيف سياسة روسيا القيصرية الخارجية ، نقلا عن عبدالبخيت ، المصدر نفسه ، ص ٦٢ .
٧٩- مراد ، المصدر السابق ، ص ٣٤٥ .
٨٠- الوثائق الفرنسية ، جمع الانسة ايزابيل بالو ، عمان وفرنسا صفحات من التاريخ ، ترجمة السيد خزعل (طبع بمطابع شركة تيب ، د . ت) ص ٢٢٢ .

٨١- ارشيف سياسة روسيا القيصرية الخارجية ، F. 550, L. 16 ، نقلا عن عبدالبخيت ، الصراع بين روسيا وبريطانيا حول فارس والخليج العربي ، ص ٦٢ .

٨٢- دليل الخليج ، ج١ ص ٥٢٧ .

٨٣- Charles Issawi, The Economic History of the Middle East, 1800 - 1914 (Chicago, 1966), P. 352.

# العناصر التراثية..
# في شعر علي بن المقرب العيوني

## ٥٧٢هـ - ٦٣٠هـ - ١١٧٦ - ١٢٣٢م

بقلم الدكتور:
أحمد موسى الخطيب

إبن المقرب العيونى شاعر بحرينى ولد عام ٥٧٢ هـ وهو أحد أبناء الدولة العيونية التى حكمت البحرين فى الفترة بين ٤٥٠ ـ ٦٥٠ هجرية أى حوالى ٢٠٠ عام .. وابن المقرب شاعر متميز يجتمع فى شعره الابداع الفنى والتسجيل التاريخى ومن هنا جاءت قيمة الشاعر وشعره من الناحية التاريخية إذ يعتبر دون مبالغة المصدر الأساسى لتاريخ الدولة العيونية ذلك لأنه حرص خلال شعره على تسجيل أسماء ملوك هذه الدولة وأبرز الأحداث التى مرت بها .

لهذه الأسباب نقدم هذه الدراسات عن الشاعر فى الوثيقة .





إختلف أصحاب التراجم ، ونساخ ديوانه ، وبعض المعاصرين من الباحثين فى إسمه ، ولقبه ، وكنيته ، وفى ترتيب آبائه ، حتى الجد الأعلى للعشيرة . ولكن ما انتهينا اليه ورجحناه مطمئنين أن شاعرنا هو «على بن المقرب بن منصور بن المقرب بن الحسن بن عزيز بن ضبار بن عبد الله بن على بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم بن محمد العبدلى ، العامرى ، اللكيزى الربيعى ، البحرانى ، العيونى ، الاحسائى ، أما عن لقبه وكنيته ، فقد لقبه المؤرخون بخمسة القاب هى : جمال الدين ، وكمال الدين ، وموفق الدين ، ومهذب الدين ، ونور الدين ، ولكنه اشتهر بالأولى منها .

كما كنوه بأربعة كنى : أبى عبد الله ، وأبى الحسن ، وأبى المنصور ، وأبى القاسم . وقد اشتهر بالكنيتين الأوليين .

وربيعة جد شاعرنا الأعلى ، وقبيلته فخذ من قبيلة عبد القيس العدنانية ذات الأمجاد ، والذائعة الصيت فى الجاهلية والاسلام .

ويطلق على عشيرته (آل عبدل) نسبة الى جدهم عبد الله بن على ،

مؤسس الدولة العيونية . ويقال لعشيرته (آل ابراهيم) نسبة الى الجد الأعلى ابراهيم بن محمد .

وعرف قومه (بالعيونيين) نسبة الى بلدة «العيون» بالاحساء ، وبهذه الأخيرة عرف التاريخ دولتهم وتحدث عنهم .

## نشـــأته :

وليس بين أيدينا من الأخبار والروايات فى كتب الأقدمين ما ينير جوانب حياة ابن المقرب ، فيبدد الظلمات التى تكتنف نشأته ، ويصف تقلبه فى الدنيا طفلا ، وفتى ، وكهلا ، ثم يكشف عن أثر البيئة فى نفسه ، وما كان لقبيلته من أثر فى فصاحته ، وما أفاده فى بلده قبل أن يرتحل عنه ، وما أفاده من حلقات العلماء هناك ، فى نمو معارفه ، وعمق مداركه ، ونفاذ بصيرته .. وإنما هى نتف أوردها القدماء فى كتبهم .

يذكر ابن الشعار ان ابن المقرب قد ولد عام ٥٧٢هـ فى بلده العيون من نواحى الاحساء ، وبين أهله وعشيرته ترعرع ، وعاش طفولة مجهولة كالكثير من الشعراء ، وزاد أنها مجهولة تماما . ويفهم من شعره أنه قضى أيام شبابه وصباه فى ربوع البحرين ، ويبدو أنها كانت أياماً عذبة . كما أمضى شطرا من أيام شبابه اللاهى فى (الحجر) قصبة اليمامة و (إجلة) من نواحى اليمامة أيضا ، قبل أن تذهله صروف حياته عن متع الدنيا وملذاتها .

ويدهشنا الشاعر لغياب أسرته فى ديوانه ، فلم يذكر والده سوى فى موضعين ، وكذلك أمه . والشىء الذى لا شك فيه أن والده من آل ابراهيم العيونيين ، ومن رجال الصف الثانى أو ما بعد ذلك ، لا خطر له بينهم ، ومثله كثيرون فى أى أسرة حاكمة فى كل زمان ومكان . وأن أمه من بكر بن وائل .

ويخلو ديوان ابن المقرب تماما من رثاء أمه وأبيه ، مما يجعلنا نرجح - مطمئنين - أنهما قد ماتا وهو صغير ، فعاش يتيما محروما من عطف الأب ، وحنان الأم . ويبدو أنه الابن البكر والوحيد لهذين الأبوين لخلو ديوانه من ذكر أخ أو أخت له .

## ملامح شـخصيته

يرى العقاد أن تمام الطبيعة الفنية «أن تكون حياة الشاعر وفنه شيئا واحدا ، لا ينفصل فيه الانسان الحى من الانسان الناظم ، وأن يكون موضوع حياته هو موضوع شعره ، وموضوع شعره هو موضوع حياته ، فديوانه هو ترجمة باطنية لنفسه ، يخفى فيها ذكر الأماكن والأزمان ، ولا يخفى فيها ذكر خالجة

ولا هاجسة ، مما تتألف منه حياة الانسان ، ودون ذلك مراتب يكثر فيها الاتفاق بين حياة الشاعر وفنه أو يقل»

والقارىء لديوان ابن المقرب تطالعه شخصيته واضحة الملامح ، وكأنه يعوض بذلك ما لحقه من تقصير مؤرخي الأدب ، وإهمالهم له ، فحفظ لنا شعره - بكل أمانة - معالم شخصيته ، فقد كان عزيز النفس ، سامي الهمة ، طموحا الى المجد :

يظنُ نُحولى ذو السفاهةِ والغبا
غراماً بهندٍ واشتياقاً الى دَعْدِ
ولم يدرِ أنى ماجد شفَّ جسمهُ
لقاءُ هُمومٍ خيلُها ابداً تَرْدى
قليلُ الكرى ماضٍ على الهول مُقدمٌ
على الليل والبيداء والحَرِ والبردِ
عدِمتُ فؤاداً لا يبيتُ وهمّه
كِرامُ المساعى وارتقاءٌ الى المجدِ

أما رفضه الضيم والخنوع ، فقد كان من أبرز ملامح شخصيته ، وكلفه هذا الهجرة عن الوطن ، حيث يقول :

خليليّ ما دار المذلّة فاعْلَما
بداري ولا من ماءِ أعدادها وردى

كما كان صاحب عزيمة متوقدة ، وحماسة لاهبة ، وحكمة تحفل بالكثير من هذه المعانى ، كما أن فخره ينمّ على أنه من أنصار القوة فى الحياة ، ويرى القوة هى السبيل لمواجهة تحديات الحياة :

بالسّيف يُفتح كلُ بابٍ مُقفلِ
وتُحلُ عُقدةُ كلِ خطبٍ مُشْكلِ

والسيف (وهو رمز القوة عنده) يعد اللغة المثلى للتفاهم مع الأعداء ، ولا سبيل سواها ، وهو يؤمن بسياسة القوة سبيلا «لاستعباد» الناس . وكل شعره دعوة للحرب ، وحشد الجند ، ورفع السلاح ، وكأنابروح أبى الطيب تطالعنا فى ثنايا العديد من قصائده . فهو لا يميل الى التعلق بأوهام الحياة وسراب أمالها الخادع ، وتعاف نفسه استمراء الراحة ، فنفسه العظيمة فى طراد دائب .

وكان جريئاً فى إعلان رأيه ، مخلصاً فى نصحه ، عفيفاً فى لومه ... ولأمر ما يُنكب ، ويُلقى به فى السجن ، ويُنفىَ باختياره الى العراق ، ومع ذلك يظل جلدا صابرا :

مُنيت من الزمان بعنقفير
قليل عندها حَرُّ الشفار
فراقُ احبةٍ وذهابُ مالٍ
وضيمُ اقارب واذاةُ جارِ
فلا والله ما وجْدُ كوجدى
ولا صَبرُ اصطبارٍ كاصطبارى

ويبدو أنه قد واجه تحديات واقعة ولم يكن قد بلغ سن الحلم ، حيث يقول :

فقد كلّفتنى خططاً اشابتْ
قذالى قبل خطٍ فى عذارى

وعلى الرغم من أن قومه قد ضايقوه

فى عيشه ، وناصبوه الريب والحذر إلا أنه كان لهم اللسان المنافح عنهم ، المعبر عن أمجادهم :

لقد بذلوا المجهودَ فيما يسوءنى
وقد كنتُ ارمى دونهمْ واجالدُ

هذا ومع ارتحاله بعيدا عنهم ، إلا أنه كان حفياً بأنبائهم ، يسائل الركبان عنهم ، حيث يقول :

وإنّى حفىّ عنهُمُ ومُسائلٌ
بهمْ حيث يَنْوى السُفْر او ينزل الركبُ

وهذه الأخلاق النبيلة التى فاضت بها نفسه ، والتزم بها طوال حياته ، شيمٌ عربية أصيلة ، ومرتكز أساسى للفخر القومى فى أدبنا العربى .

وكان ابن المقرب قد عزم ألا يمدح سوى أمراء بيته العيونى ، فلا يليق بمثله أن يمدح ويتكسب :

وإنّى لأشنا المدْحَ فى غير سيّدٍ
أبوه أبى لوزاحَمَ النجمَ كاهلُه

ولكن أرزاء الدهر كانت أقوى - على ما يبدو - من كبرياء نفسه ، فاضطر لأن يمدح ويطلب النوال ، ويرجو .. ولكن ما يغفر له أنه لم يمدح من رجالات العراق إلا من عرف بخطر سياسى أو اجتماعى أو علمى .. من أمثال الخليفة العباسى الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ) ، والخليفة المستنصر بالله (٦٢٣ - ٦٤٠ هـ) ، وشمس الدين باتكين أمير البصرة ، وبدر الدين لؤلؤ أمير الموصل (ت ٦٥٧ هـ) والملك الأيوبى الأشرف (ت ٦٣٥ هـ) والنقيب العلوى تاج الدين اسماعيل ، والعالم الجليل أبى البقاء العكبرى .

عاش ابن المقرب فى بيئة شهدت قدرا غير قليل من الانحلال والتفسخ ، ومع ذلك أبى لنفسه - صيانة لعرضه - أن يشينها ، أو يعطى الشانئين فرصة للنيل منها ، فهو يقول :

واكبرتُ نفسى ان اجالس قينةً
ودُفّاً ومزماراً وعوداً واعبدا
وان اجعل الأنذال حزباً وشيعةً
ولو جار فى الدهر ما شاء واعتدى
فلستُ ببِدْعٍ فى الكرام وهذه
سبيل ذوى الأفضال والباس والندى

وكان الشاعر شديد الاعجاب بنفسه ، معتداً بها ، لا ينساها حتى إذا مدح ، حيث كانت تغيب أو تذوب ذوات الكثير من شعرائنا ، وكان يرى أنه خير أبناء قومه ، وفتاهم الأول . ولعل هذا الإعجاب بالنفس تعويض عما لقيه من ظلم ذويه ، وإهمالهم له ، وإلا فما الذى يدفعه لأن يقول :

فإن لم يكن لى ناصر من بنى ابى
فحزمى وعزمى يغنيانى عن الحشد
وإن لم يدرك العليا همام بقومه
فنفسى تناجينى بإدراكها وحدى

وأول ما يخطر بذهن قارىء هذه الأبيات ومثيلها فى ديوانه روح أبى

الطيب ، ونفسه العظيمة ، ولم لا ، ففيه من أبى الطيب شموسه واباؤه ، وعلو همته ، وسمو أمله ، وكلاهما من أنصار القوة فى الحياة ، ولم يكونا من أصحاب الحظوظ السعيدة ، حاربتهما المطالب ، وحاربهما المجتمع ، وكان اعتدادهما الشديد بالنفس أحد العوامل الهامة التى حالت دون تحقيق ما كان يطمح كل منهما اليه .

وكما كان شديد الاعتداد والإعجاب بذاته ، فقد كان مزهواً بشاعريته ، ويرى أن نظمه يفوق شعر أقرانه وأنداده ، وتردد هذا فى مواضع عديدة من ديوانه ، ومنه قوله :

وغريبُ نظمٍ فاق اشعار الورى
فيكُمْ بساحةِ كلّ ارضٍ ينشدُ
وإليكها يابا علىّ مِدْحةً
من فضلها انىّ عليها أحسدُ
جاءتْ نسيجةَ وحدِها فى عصرها
إذ انت فى هذى البريّة اوحدُ

وما بين أيدينا من أخبار قليلة عن الشاعر ، لا ينفعنا فى تصور ملامحه وسماته ، لإغفالها أوصافه ، وشعره أيضا لم يسعفنا بشىء من ذلك ، اللهم إلا إشارته فى موضعين من ديوانه لنحوله ، والذى كان - كما يبدو - سمة ظاهرة ، لافتة للنظر بل وللتساؤل والتوهم :

يظنُّ نُحولى ذو السفاهةِ والغبا
غراما بهندٍ واشتياقاً الى دعد

وتتكرر هذه الاشارة ، وبالمعنى نفسه ، فى قصيدة له يمدح فيها الخليفة الناصر لدين الله عام ٦١٤هـ ، ولكن صفة النحُول هنا تصاحبها صفة الاصفرار :

ظننتَ نُحولى واصفرارى من الهوى
وذلك مما يقتضيه التوهَمُ

ولا يترك الشاعر من يشغلهم أمر نحوله واصفراره يخبطون فى وهمهم كما يشاءون ، بل يفصح لهم عن علّة ذلك .

لعمرك مابى من هوى غير انني
بغُرّ المعالى يا إبنة القوم مُغرمُ
وقد عرضتْ من دون ذاك فاحرضَتْ
امورٌ لها يُستهلكُ اللحمُ والدَمُ

ومن كان على شاكلة ابن المقرب فى حدة طبعه ، ورهافة حسه ، وسمو هدفه ، وعانى مثله اضطهاد ذوية ، وإنكار مجتمعه له ، فالنحول صفة لازمة له ، أما الصفرة التى بدت على محيا شاعرنا عام ٦١٤ هـ ، فلعلها أثر لهمه الذى لا يزايله ، حتى وإن بدا ساكناً :

إن ترى شخصى لأمر ساكناً
فلعمرى إن قلبى فى طراد

فهو همّ مقلق لمضجعه :

قليل الكرى ماضٍ على الهولِ مُقدمٌ
على الليل والبيداء والحرّ والبردِ

وربما كان اصفراره ناجماً عن مرض مزمن قد أصابه ، وبدأت أعراضه تظهر عليه ، وأدى الى وفاته

فى سن مبكره ، فقد توفى وهو في السابعة والخمسين من عمره .

## ثقافته

ويخلص قارىء ديوان ابن المقرب الى أنه قد ألم من ثقافة عصره بما يعينه على أن يكون شاعراً متمكناً من أدواته الفنية ، من ثراء فى الألفاظ ، وقوة فى الصياغة ، وسلامة فى البناء ، وغنى فى الإيقاع ، بالاضافة الى ثقافته الدينية والفلكية ، وعلمه بالأنساب ، وإحاطته بأيام العرب ، وبتاريخ قبيلته فى الماضى والحاضر ، ووقوفه على دقائق تاريخ دولتهم منذ نهوضها ، وحتى تقوض سلطانها .

## وفاته

فى البحرين ، وعلى أرض الاحساء التى ناضل دونها ، وارتحل عنها من أجلها ، لفظت تلك النفس الكبيرة أنفاسها الأخيرة ، مشيعاً بما أخلص من نية ، وأحسن من عمل ، وبذل من جهد ، وأبدع من قول .

وقد أجمع من ترجموا له على أنه ولد فى العيون عام ٥٧٢هـ ، أما وفاته فقد اختلفوا فى تحديد زمانها ومكانها . ولكن ما نطمئن اليه أنه قد توفى بالبحرين أواخر المحرم عام ٦٣٠ هـ .

توفى ابن المقرب ، ولا نعرف كم ترك من البنين ، فقد ورد فى شعره ما يفيد أنه كان متزوجاً ، وأباً يسعى لتحقيق حياة كريمة لأسرته ، بعد أن جار عليها الزمن ، فمن قصيدة له يمدح فيها الأمير محمد بن على العيونى عام ٦٠٥ هـ يقول :

فُصن حُرَّ وجهى عن سؤالٍ فإنه ... علىَّ ولو عاش ابن زائدةٍ صعبُ
ورُدَّ كثيراً من يسير تَقُتُّ به ... فراخاً قد استولى على ربْعها الجدبُ

***

كان هذا عرضا لابد منه لحياة الشاعر وشخصيته وننتقل الآن الى الجزء الرئيسى من هذا البحث :

منذ أن أخذت تجربة الشعر الجديدة تفرض نفسها على الساحة الأدبية ، بدأت تتتابع مجموعة من الدراسات الجادة لتقويم هذه التجربة الجديدة ، واستأثرت صلتها بالتراث بالحظ الأوفر من جهود المؤيدين لها أو الرافضين ، وتخصصت بعض الدراسات فى الكشف عن قيم التعبير والتصوير عند الشاعر المعاصر من خلال توظيفه لعناصر التراث توظيفا ايحائيا رمزيا .

والسؤال الذى يطرح نفسه : هل استخدم على بن المقرب العيونى ، شاعر الاحساء (٥٧٢ ـ ٦٣٠ هـ) فى هذه المرحلة المتأخرة عناصر التراث للتعبير عن آفاق تجاربه الفنية ؟ والى أى مدى استخدمها ؟ وكيف تعامل

معها فى شعره ؟

**وهذا البحث محاولة للاجابة عن هذه الاسئلة :**

لا يستطيع أى أديب أن يفلت واعيا أو غير واع من تأثير عاملين اساسيين لهما سطوتهما على ابداعه ومصادر إلهامه :

الأول : هو الواقع الذى يعيش فى اطاره بتأثيراته الانسانية والطبيعية فالانسان فنانا أو غيره ـ لا يعيش في فراغ ، وإنما هو إفراز محدد لواقع معين يرسم له كثيراً من خصاله وصفاته الانسانية والنفسية ، ويصوغ له ـ الى حد ما ـ مواقفه الفكرية ومفاهيمه الجمالية إزاء حركة البشر فى عالمه .

والثانى : هو التراث وتقاليد النوع الفنى الذى يبدعه فالأديب فى ظل أية مرحلة ، وتحت أية مدرسة ليس إلا حلقة متواضعة فى سلسلة تاريخية فارعة الطول [١] .

فخبرة الشاعر الجمالية ـ إذن ـ تتشكل من خلال معايشته الطويلة لصياغة تراثه الشعرى ، ووقوفه على كيفية استثمار سابقيه لطاقات اللغة وامكاناتها اللامحدودة فى العطاء والدلالة ، والخبرة اللغوية عند الشاعر يتوقف ثراؤها وعمقها على كيفية تعامله مع التراث القديم ، ومدى قدرته على الافلات من سطوته وتجاوزه ، وصولا الى كيفية جديدة تفى بمطالب واقع معاصر يعايشه ويعبر عنه ، (والشاعر بخاصة لا يعيش حياة منفصلة عن الماضى ، بل يستأنف حياته فى نفس الدروب التى سلكها أسلافه ، وقد أخذه التعب والنصب ، وفى باطنه حافز يحفزه على تحمل كل المشقات وتجشم كل الصعاب ، هو الأمل فى أن يكون أديبا مكملا لسابقيه) . [٢] ويتطلب أمل التواصل هذا الوقوف ـ بصبر واناة ـ على ما خلفته أجيال الشعراء من تراث فنى ، وما أحدثوه عبر رحلتهم الطويلة والشاقة من اضافات أو تثوير فى بنية التشكيل أو فى بنية المعنى . فالفن اضافة ولا يحدث الشاعر عملا أصلا بدون ثقافة عميقة لموروثه الشعرى فهو الرحم الذى يتخلق فيه ، والنهر الذى منه يغترف ، وعلى ضفافه تترعرع مواهبه وملكات ابداعه . وقد الح الناقد العربى القديم على حاجة الشاعر المحدث الماسة الى الرواية والحفظ ، صقلا لمواهبه ، وسموا بحسه الفنى .

إذن فصلة المتأخرين بأسلافهم هى صلة طبيعية ، وتظهر هذه الصلة عند الشعراء بعامة ، ولكنهم يتفاوتون فى مدى الخضوع لسلطانها ، فهناك شعراء يمتلكون التراث ، وآخرون يمتلكهم التراث ، فالضرب الأول منهم

يكون الشاعر فيه انسانا ينتج شعرا متميزا ، وذلك بعد أن هضم التراث ووعاه ، واستطاع بعد ذلك أن يصل الى كيفية خاصة فى التعامل مع أداة عامة ، والشاعر من هذا المستوى يتجاوز التراث عادة ، فيضيف اليه جديدا . أما الضرب الثانى منهم (فقد يمتد تقديره لموروثه الشعرى من مفردات اللغة وقواعدها الى تراكيبها وأمثـالـهـا ، الى تشبيـهـاتـهـا واستعاراتها ، حتى ينتهى الى فن الشعر بكل ما يشتمل عليه من أوزان وموضوعات وأخيلة ومعان) (٣) .

وحين يحصر الشاعر المحدث نفسه فى أغراض أسلافه وموضوعاتهم ، ويفرض عليه الالتزام بأساليبهم فى التعبير ، فلابد من أن يضيق المجال أمامه . وقد أفصح (ابن طباطبا) عن معاناة شعراء عصره بقوله : (والمحنة على شعراء زماننا فى أشعارها أشد منها على من كان قبلهم ، لأنهم قد سبقوا الى كل فن بديع ولفظ فصيح ، وحيلـة لطيفـة ، وخـلابـة ساحرة ..) (٤) .

فإذا كان الشاعر الجاهلى يقول :

مـا أرانـا نقـول إلا مـعـاراً
أو مُـعـاداً مـن قـولنـا مكـرورا

فما بالك بمن تلاهم من الشعراء الذين كانوا ينظرون بعين التجلة والاعجاب والتقديس لذلك الموروث الشعرى ، وتقاليده الفنية الثابتة فى البناء والتشكيل . واينـا لا يذكـر استهجان الذوق الفنى العربى حين تجاوز أبو نواس تلك القيم الفنية ، وأعلن ثورته على بناء القصيدة ، والتى تمثلت فى خروجه على المطلع الطللى التقليدى ، ودعوته الى الرجوع للطبع لا الى التقليد ؟ أو حين تجاوز أبو تمام تلك القيم الفنية المألوفة فى تشكيل الصورة الشعرية ، فعد الأول شعوبيا ! وتأخرت ـ حينئذ ـ شاعرية الثانى ، فقدم عليه معاصروه من النقاد من هو دونه من شعراء العصر !

ويمكن القول بأن الشاعر العباسى قد سلك أحد طريقين : الأول التكرار الساذج الذى يسقط قيمته كشاعر مطالب بالابتكار ، والآخر التوليد الذى يخرجه من مأزق التكرار الى أفـاق أرحب فيما يسمى (بحس الاتباع) وهو أن يأتى المتكلم الى معنى اخترعه غيره فيحسن اتباعه فيه ، بحيث يستحقه بوجـه من وجوه الـزيادات التى تـوجب للمتأخـر استحقاق المعنى المتقدم على أن سالك هذا السبيل ـ سبيل التوليد ـ يحتاج الى ألطاف الحيلة ، وتدقيق النظر فى تناول المعانى واستعارتها وتلبيسها حتى تخفى على نقادها البصراء بها ، فينفرد بشرفها كأنه غير مسبوق اليها (٥) .

إن علاقة الشاعر العربى بتراثه علاقة قديمة قدم الشعر العربى ذاته ، فهذه العلاقة وان وهنت فى بعض العصور أو تغيرت صورها أو طبيعتها من عصر الى عصر ، فهى لم تنقطع أبدا ، حيث لم يكف الشاعر العربى فى أى عصر من العصور عن استرفاد تراثه واستلهامه على نحو من انحاء الاسترفاد والاستلهام ، ولم يكف نقدنا العربى أيضا منذ أقدم عصوره عن دراسة بعض صور هذه العلاقة فى اطار أو آخر .. وتحت عناوين متعددة مثل (السرقات الأدبية) و (المعارضات) و (التشطير والتربيع والتخميس) وغيرها .. وكل هذه نماذج لعلاقة الشاعر العربى بموروثه الشعرى والأدبى بعامة ، وهى كلها نماذج لمحاكاة التراث والأخذ منه ، دون محاولة لتطويره أو تنميته .. حيث كان التراث فى إطار هذه الصور من صور العلاقة هو النموذج المثالى الذى لا ينبغى للشاعر أن يتجاوزه [٦] .

وفى دراسة قيم التقليد عند الشاعر على بن المقرب العيونى (٥٧٢ - ٦٣٠ هـ) على مستوى التعبير والتصوير والايقاع [٧] . نقف على طبيعة علاقة الشاعر بموروثه الشعرى ، ونلاحظ فى تناولنا لقيم التعبير التقليدية أنه قد صدر فى نتاجه الفنى متأثرا بإطار ثقافى واسع يمتد قرابة سبعة قرون ، تأثر فيه بشعر الفحول من أسلافه ، بعد أن قرأ أشعارهم ووعاها ، وقد أسهمت هذه القراءة أو الاحاطة - دون شك - اسهاما حسنا ملحوظا فى تكوين شاعريته ، وفى تحديد أبعادها ... كما أن المعانى والصور التى أخذها ، هى من المعانى والصور الهامة التى تلتقطها الذاكرة باهتمام ، وتصهرها ، وتختزنها لتصبح جزءا من لا شعور الشاعر . كما جاء بعضها من قبيل توارد الخواطر بين الشاعر وسابقيه بحكم كرور الأيام وتشابه المناسبات ، ولا سيما (أن الشعر العربى - حتى عصر الشاعر - لم يتغير فى موضوعه ولا فى صورته ولا فى نوعه ، ولم يتغير فى لفظه ومعناه الا تغيرا قليلا جدا ، فقد بقيت القصيدة معتمدة على وحدة الوزن والقافية ، معنية بوحدة المعنى ، وبقى موضوع الشعر كما كان مدحا وهجاء ورثاء وغزلا ، وإنما تحددت هذه الموضوعات دون أن تتغير) [٨] .

وحين أمعنا النظر فى صور شاعرنا الفنية ، وجدناه يشكلها وفق نمط قديم موروث أرسى قيمه شعراؤنا الأول ، وليس هذا مدعاة للدهشة نظرا لثبات الأغراض التى طرقها شعراء بنى العباس ، كما طرقها أسلافهم ، ونجم

عن هذا الثبات استمرار الشكل النمطى الفنى ، (مما ساعد الشاعر على الاستمرار ـ دون حرج ـ فى نقل صور القدماء ابتداء فى ذلك من اعتماده على صورة الطلل فى مقدمة القصيدة ، وانتهاء بدوافعه الشعرية الى أغراض بعينها) (٩) .

لذا ظلت أشباح الصورة التقليدية الموروثة تلاحق ابن المقرب فى أغلب موضوعاته الشعرية ، وامتد تقديره للتراث من مفردات اللغة الى تشبيهاتها واستعاراتها ، حتى انتهى فيه الى رسم الصورة العامة . (وقد يمتد تقدير الشاعر للتراث بشكل طبيعى ، حتى ينتهى الى فن الشعر بكل مقوماته) (١٠) .

لذا وجدنا أن بعض الموضوعات القديمة ما زالت سائدة فى شعر العصر العباسى بسبب التقليد والمحاكاة فى الغالب واتجه الشاعر الى معالجة تلك الموضوعات على طرق المتقدمين ، فلطلل صورته النمطية ، وللناقة والرحيل عليها صورها المتشابهة ، وكذا فى وصف الرحيل وما ينشأ عنه من مثلهم العليا كالكرم والشجاعة والنجدة والوفاء وغيرها من مكارم يصور الشاعر اضدادها فى الهجاء .

ويعد معظم شعراء بنى العباس ـ من حيث مذاهبهم فى النظم والأغراض الشعرية ـ امتدادا لاسلافهم من شعراء الجاهلية (لأن نهوض الأدب العربى لم يكن نوعا من النسيان للماضى أو التنكر له ، أو الغض من شأنه ، فالأمر واضح ، حيث ظل الشعراء يصطنعون لغة الاطلال ، ويبكون الديار ، ويذكرون منازل الأحبة بعد انقضاء العصر الجاهلى ، وظلت المادة التى يصنع منها الشعراء خيالهم متشابهة أو كالمتشابهة ، فالشمس والنجوم والجبال والوديان وانماط الشجر والظباء والأبقار والناقة والفرس والبحر والسفن ، كل أولئك وغيره كثير ، ظل مادة تفكير أدباء العربية عصورا طوالا ، فقد أرسى شعراء العصر الجاهلى دعائم هذه المادة الفكرية والجمالية (١١) .

ولم يقف تقدير ابن المقرب لتراث أسلافه عند محاكاتهم فى تعبيرهم وتصويرهم بل تجاوز ذلك الى موسيقاهم الظاهرة المتمثلة فى اطرهم الايقاعية وقوافيهم (١٢) ، فإذا به ينظم أكثر شعره فى بحر الطويل ، والبسيط ، والكامل ، والوافر ، وقد ظلت هذه البحور الأربعة ـ مضافا اليها بحر الخفيف موفورة الحظ فى كل العصور ، يطرقها كل الشعراء ، ويكثرون النظم فيها ، وتألفها أذان الناس فى بيئة اللغة العربية (١٣) ، كما نظم بقية شعره فى بحور يمكن ـ مع قليل من التسامح ـ أن تعد من

الأوزان المألوفة التى كانت الآذان تستريح اليها (١٤)

كما نلاحظ أنه قد نظم أكثر شعره فى حروف كثر دورانها وشيوعها فى الشعر العربى وهى : الميم ، واللام ، والباء ، والدال ، والنون ، والراء ، والعين .

وبعد أن المحت الى طبيعة علاقة ابن المقرب بتراثه الشعرى ، والتى ليست مدار حديثى فى هذا البحث ، أود أن أتوقف مليا عند جانب آخر من صلته بتراثه بعامة ، (وهى صلة لا تقل أهمية عن تلك العلاقة الضيقة التى دأب الدارسون على الوقوف إزاءها عندما يتصدون لدراسة شاعر عربى قديم ، بغية جلاء قيم التقليد والتجديد فى شعره . وكثيرا ما استوقفتنى تلك العناصر التراثية فى شعر ابن المقرب ، وهالتنى كثرتها أثناء دراستي لشعره ، وبعد فراغي منه . وكلما قرأت دراسة جديدة فى توظيف التراث العربى فى شعرنا المعاصر ، تداعت الى ذاكرتى تلك العناصر التراثية فى شعره) التى استمدها من مصادر عدة تاريخية ، وأدبية ، ودينية ، وصوفية ، واسطورية ، وأدركت أن ثقافة الشاعر لا تقف عند حدود استيعابه لتجارب اسلافه الشعرية على مستوى التعبير والتصوير والايقاع ، ووعيه بالتاريخ الفنى عند الجماعة للنوع الأدبى الذى يبدعه ، بل لابد له من وعى واستلهام معطيات تراثه التاريخية والفكرية والأدبية والروحية ..

فالمتأمل لشعر ابن المقرب يدهشه شيوع تلك العناصر التراثية فى فنه ، وكثرة دورانها والالحاح عليها ، مما لايدع مجالا للشك فى أن هذا الشاعر قد ألم بمصادر الثقافة العربية والاسلامية سواء فى بيئته (الاحساء) أو من خلال رحلاته المتكررة الى حواضر العراق واتصاله ببلاط الخلفاء والأمراء ، واحتكاكه بعلمائها . كما لا يفوت المتأمل لشعره تقدير الشاعر للطاقات الايحائية فى تراثه ، وادراكه لقدرة معطيات تلك العناصر التراثية على الايحاء بمشاعره وأحاسيسه ، وقدرتها على التأثير فى نفوس المتلقين ، حيث تعيش تلك المعطيات فى وجدانات الناس وأعماقهم تحف بها هالة من القداسة والإكبار لأنها تمثل الجذور الأساسية لتكوينهم الفكرى والوجدانى والنفسى . (والشاعر حين يتوسل الى الوصول لوجدان أمته بتوظيفه لبعض مقومات تراثها يكون قد توسل الى هذا الوجدان بأقوى الوسائل تأثيرا عليه) (١٥) .

فحين أراد ابن المقرب أن يصور تجربته مع أبناء عمومته ، حين أوجسوا خيفة من سمو همته ،

وتــأبيــه ، ورفضــه لسيــاستهم الضعيفة ، فأساءوا اليه ، وزهدوا فيه ، وسجنوه ، وجردوه من أملاكه ، ونفوه الى العراق ، قــال شاكيــا معاتبا : (١٦) .

فإنْ ساءنى منهم عـلى القُرب معشرٌ
واصبـح مـن تلقـائهـم مـا اكـابـدُ
فقـد بـاعتِ الأسبـاطُ قبـلى اخــاهُمُ
ببخسٍ وكـلٌ منـهـمُ فيـه زاهـدُ

فهو يوظف معطيات الآية القرآنية الكريمة (٢١) من سورة يوسف (وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين) .

ونجده فى موضع آخر يلجأ الى أحداث التاريخ العربى ليجعل من بعضها تجارب موازية لتجربته مع قومه ، ويتخذ منها عـزاء لنفسه فيقول : (١٧) .

فـلا تحسبُ الأعداءُ انى لـمـاجـرى
تَضَعْضَعْتُ او اعطيتُ حبلى مُشَاغبا
فقبلى قضى النُّعمان فى السِّجن نحبَهُ
وغُـودرَ مسلوبـاً وقـد كـان سـالبـا
وعاش ابنُ ذى الجدين فى الغلِّ بُرهةً
ليـالى يـدعـو قـومَـه والعصـائبـا

فهو يشير هنا الى تجربة النعمان بن المنذر (أبو قابوس) ـ وهو من أشهر ملوك الحيرة فى الجاهلية ـ مع كسرى (ابرويز) حين نقم عليه فعزله ونفاه الى خانقين ، فسجن فيها الى أن وافته منيته . ويكرس هذه الموازاة برسم خط آخر مستلهما تجربة أخرى ، وهى تجربة بسطام بن قيس بن مسعود الشيبانى ، سيد شيبان ، وهو من أشهر فرسان العرب فى الجاهلية ، أدرك الاسلام ولم يسلم ، وذكره الجاحظ فى حديثة عن الفارس يبلغ الغاية والشهرة ولا يرزق ذلك الذكر ، والتنويه ببعض من هو أولى منه ، ثم يقول : وهم يضربون المثل بعمرو بن معد يكرب ولا يعرفون بسطام بن قيس .

وفى معرض شكواه وعتبه ونصحه يتكىء على بعض العناصر التراثية التى استقرت فى وجدان الجماعة متصلة بأمثالهم الشعبية الدارجة ، فانظر اليه كيف يعبر عن ندمه على مدائحه التى دبجها فى أبناء عمومته ، وأدرك أنـه قد وضعهـا فى غير موضعها ، فيقول : (١٨) .

فـآه مـن زفـراتٍ كلمـا صَـعَـدَتْ
فى الصَّدر كادتْ تورِّى النارَ من ضِلَعِى
يسـوقُهـا اسفُ قـد ثـارَ من نـدمٍ
يُرْبِى على نَـدَمِ المغبونِ من كُسَعِ

ويتنكر أبناء عمومته لما بينهم وبينه من قربى وصلة رحم ، فيقول : (١٩) .

ارحـامُنـا مـن يـومِ غُيِّبَ جَـدُّكُمْ
فى رمسـه مقطـوعـةٌ لـم تُـوصَـلِ
حتـى كـانَّـا مـن جُـهينـة اصلُنـا
لاوُلْـدَ عبـد الله نحـنُ ولاعـلى
ولِـمْ الـعـدُوِ يـروحُ قِـردَ زُبَيْـدَةٍ

شبعاً ومُصْفِي الوُدَّ كلبة حَوْمَلِ

وأنظر اليه كيف يعرض بخصومه من خلال استغلال المثل العربى - حيث يقول : (٢٠) .

عن الرُشْدِ أهْدَى من سطيحٍ وكُلُّهُمْ
الى الغَيِّ أعدى من سُلَيْكِ المقانِبِ

وقد يتخذ من الأسطورة والمثل معاً وسيلة فنية للتعريض بخصومه ، فيقول : (٢١) .

وراً مُتَمُّونى كُلَّ ذى عَيْدَ هيْئةٍ
بَعيدَ الرِّضا إن أعطِهِ الحَقَّ بَرْشَماَ
يرى نفْسَه عُوجاً ولولا استماعُكُمْ
اباطيلَهُ كان المَهِينَ المُقْرقَما
اقولُ لَهُ انتَ الرَّشيدُ وقد ارى
قداراً بِعَيْنَى فى قباهُ ومَنْشَما

وينصح قومه أن يلتفوا حول أميرهم ، ويحذرهم من مغبة الخروج عن طاعته ، مستلهما فى ذلك حمق ابى غبشان ، فيقول (٢٢) .

وارضُوا رضاهُ فإن ساخِطَ امرهِ
منكم لَاَخْسَرُ من ابى غُبْشَانِ

وعاش ابن المقرب حياته ناصحا شفيقا لقومه ، ومحذرا اياهم من الأخطار التى تحيق بهم ، والمؤامرات التى تحاك لهم ، ولم يثنه عن ذلك سجن ولا نفى أو تشريد ، فقد ظل ملتزما بموقفه الوطنى ، ولكن يبدو أن الداء قد استشرى الى الحد الذى لا ينفع معه تحديد الداء ووصف الدواء ، فيتخذ الشاعر من حدث تاريخى ضخم مقابلا لواقعه فيقول : (٢٣) .

وإنّىَ فى قومى كعمرو بن عامرٍ
لياليَ يُـغْصَى فى قبائلِه الأزْدِ
أراهم امارات الخرابِ وما بدا
من الجُرَذ العيَّاثِ فى صخرها الصَلْدِ
فلم يَرْعَوُا مع ما لقوا فتمزَّقُوا
ايادى سَبا فى الغورِ منها وفى النَّجْدِ
خليليَّ مادارُ المذلَّةِ فاعلما
بدارى ولامِنُ ماءِ اعدائها وردِى

فيجعل الشاعر من تجربة عمرو بن عامر الأزدى مع قومه مقابلا لتجربته مع قومه العيونيين ، وعمرو بن عامر بن حارثه الغطريف الأزدى ، الملقب بمزيقاء ملك جاهلى يمانى من التبابعة ، كان له تحت السد بمأرب من الحدائق مالا يحاط به وقد أهمل أمر السد فى أيامه فخرب ، وبدأت هجرة الازد من تلك الديار ، وتفرقوا فى شمال الجزيرة العربية .

ويحاول الشاعر أن يلهب مشاعر قومه ، وأن يحرك خامد الهمم فى نفوسهم ، لعلهم يتخذون موقفا يحقق لهم العزة والكرامة ، فيعود الى تراثه القومى ليتخذ من أحد رموزه قدوة ومثلا ، فيقول : (٢٤) .

فعزْماً فموتُ العز عند ذوى النهى
حياةٌ وعيشُ الذُّلِّ موتٌ بلا غُسْلِ
فقد يُنكر الضَيمُ الكريمُ بسيفِهِ
إن اسطاع او بالشَدقميَة والرُّحْلِ

كما فعل العبْسىُّ قيسٌ وإنمّا
اخو الهمة العليا اخو الحَسَبِ الجزْلِ

ويفقد الشاعر الأمل بقومه وهو يرى صور الاستسلام تتلاحق ، وأمارات الوهن تتفاقم ، فيتوجه اليهم ناصحا أن يجلوا عن موطنهم ، ويضع بين أيديهم تجارب مماثلة من تاريخ أمته حين جلا الازد عن موطنهم ، فبقوا ملوكا فى مواطنهم الجديدة ، وحين أبت عبد القيس أن تتحول عن موضعها فى البحرين بعد أن تفرقت كلمتهم وكثرت بينهم الحروب فضعفوا ووهنوا فوثب القرمطى أبو سعيد الحسن بن بهرام فاستولى على موطنهم وأذلهم وأحرق بعضهم ، فيقول مخاطبا قومه (٢٥) :

فاجْلُوا فما انتم بأوّل من جلا
واختار أوطاناً على الأوطانِ
فالأزْدُ اجْلَوا قبلكم عن مأربٍ
وهُمُ جبالُ العزّ من كهلانِ
فبقَوْا ملوكاً بالعراقِ ويثربٍ
والشامِ وانفردوا بمُلْكِ عُمانِ
إنى لأخشى انْ تُلاقوا مثلما
لاقى بنُو العيّاشِ والعُزْيانِ
كرهوا الجلاء عن الدّيارِ فأُهلكوا
بالسّيفِ عن عَرَضٍ وبالنيرانِ

وعلى الرغم من رحلات الشاعر المتعددة الى العراق بعيدا عن موطنه إلا أنه كان يضع عينا على حواضر العراق ، وأخرى على واقع الحياة فى البحرين ، وراصدا بوعى شديد تطور الأحداث هناك ، وما بلغته همم القوم من الفتور والموات ، فيعود اليهم معرضا بهم صراحة لا تلميحا ، واستمع اليه معبرا عن هوان الجماعة من خلال مدحه لأميرهم ابى ماجد محمد بن على العيونى ، وانظر كيف يستغل عناصر التراث ليوحى من خلالها عن غياب القيم النبيلة عند الجماعة ، فيقول : (٢٦) .

يا ضيعةَ العُمْرِ فى قومٍ تخالُهُمُ
ناساً ولاغيرَ اثوابٍ على صورِ
لو انّ ذا الحلم قيساً حلّ بينَهُم
لودَّ منهم ذهابَ السمعِ والبصرِ
ولو يُعمَّرُ نوحٌ فيهمُ سنةً
لقالَ ياربِّ هذا غايةُ العُمُرِ
فآهِ منّى بحجّاجٍ يزولُ بهِ
ما كان من عُجَرٍ عندى ومن بُجَرِ

ويضيق أبناء عمومته عليه فيمد بصره الى العراق عله يجد فيه ما يلبى حاجاته النفسية وطموحاته العريضة ، فيقول معبرا عن تجربته تلك ودواعيه الى هجرة الأهل والوطن : (٢٧) .

ولاتكُ مئلافاً لدارِ مذلّةٍ
ولو فاض واديها لُجَيْناً وعسْجدا
وسِرْ فى طلابِ المجدِ جداً فإنّنى
رأيتُ المعالى لايواتين قُعَّدا
فلولم يفارق غمدَه السيفُ فى الوغى
لما راح يُدعى المشرقىّ المُهنّدا

ولـولا انتقـالُ البـدرِ عن بـرجـه الـذى
بــه النقصُ لـم يـدركْ كمـالاً واسْعـدا
ولـو نـامَ سيفُ بـالحصيبِ ولم يلـجْ
عـلى الهَـوْل لم يُـدْعَ المليـكَ المجْـدا
ولم ينشـعِ الاحبوش كـاسـاً مـريـرةً
ويجمـعُ فى غُمْـدانَ شمـلاً مُبـدَّدا

فهـو يومىء ـ بعـد صورتـين حسيتين جاء بهما لتبرير موقفه ـ الى حدث تاريخي هام متخذا منه مماثلا لتجربته ، وذلك حين استولى الأحباش عـلى اليمن فى القـرن السـادس الميلادى ، فنهض سيف بن ذى يزن الملك الحميرى فقصد قيصر الروم فلم ينصره ، فاتجه الى فارس فأمده كسرى أنوشروان بمدد من الرجال أعاد به ملك بيته .

وقد يشير الى الظلم الفادح الذى وقع عليه بتجريده من أمـواله ، والاستشهـاد بقـارون بن قـاهث الفرعونى صاحب الثراء الواسع ، وانه لوحل بالاحساء لغادرها صفر اليدين ، فيقول : (٢٨) .

وأهجـر دارا لـويحـل ابن قـاهث
بها راح مسحوتـا من المال مجحـدا

وشعر ابن المقرب حافل بمثل هذه العناصر التراثية من الأحداث الهامة والأعلام التى استقرت فى وجدان أمتنا رموزا رفيعة لكل القيم العربية النبيلة ، وكان لهذا الاحتفال أثره فى إثراء معانيـه فى أوسع مجـالاته الشعرية وبخاصة المديح والفخر والحماسة والرثاء والهجـاء ، وقد لاحظنا استلهامه لبعض تلك التجارب والرموز فى جانب من صوته الذاتى المتمثل فى شكواه وعتبه .

وقد استأثر المديح عنده بزخم هائل من تلك الرموز ، حيث كان يعمد الى المقابلة بين ممدوحـه وبعض الشخصيات العربية والاسلامية من اعلام التراث ، إذا ما أراد أن يرسم صورة مثالية لمدوحه موشاة بتلك الخطوط التراثية الاثيرة فى الوجدان العربى ، فاستمع اليه مادحا أمير البصرة شمس الدين باتكين : (٢٩) .

ومَنْ ينـزلْ بشمسِ الـدينِ يصحب
عـلى الـعـلاّتِ بسَـامـاً جـوادا
يجـالسُ منـه قـعقـاعَ بـن شـوْرٍ
وكـعبـاً مُلبسَ النُّـعْمـا إيـادا

ومثل هذا قوله مادحا : (٣٠) .

إقـدامُ جسّـاسٍ وعـزّةُ هـانـىءٍ
وعفـافُ بسطـامٍ ونفسُ عصـام

والشاعر يعيـد على مسـامعنا اصداء بيت ابى تمام المشهور من حيث التشكيل وحشد مثل هذا العدد من مشاهير التراث واعلامه ، حيث يقول :

إقـدامُ عمـرو فى سمـاحـة حـاتـم
فى حِلـم أحنـفَ فى ذكـاءِ إيـاس

ولكن تشكيل مثل هذه الصورة القائمة على التماثل والمشابهة بين

ممدوحه وتلك الاعلام قليلة فى شعره ، إذا ما قيست بتلك الصورة الشائعة عنده فى رسم صورة ممدوحه ، المتمثلة فى تجاوز ممدوحه لتلك الرموز ، التى وقرت فى وجدان الجماعة مثلا عليا ، ونماذج سامية محتذاة ، وقدوة رفيعة تتطلع همم الرجال الى مساماتها ، وترسم خطواتها على طريق الشرف والفضيلة ، ففى مديحه للخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥ ـ ٦٢٢هـ) يقول : (٣١) .

إذا العربُ العرباءُ يوماً تفاخرتْ
بذى العزّ من ساداتها والقمائم
وجاءوا بقيسٍ وابنِهِ وبمعبدٍ
وكعبٍ وأوسٍ وابنِ سَلْمى وحاتِم
سماهُمُ جميعاً ثم تمّتْ بفترةٍ
الى جودِ بحرٍ منكُمُ متلاطِمِ

ومثل هذا قوله مادحا : (٣٢) .

علاق الندى اوساً وفى الزهد والتقى
أويْساً وفى الحلم ابن قيسٍ ابابحرِ

ومنه قوله فى مديح أحد أبناء عمومته العيونيين : (٣٣) .

إذا صالَ لم يُعدَل بقيسِ بن خالدٍ
وإن قالَ لم يُعْدَل بسعدِ بن مالكِ
وإنْ جادَ بذَّ المرثديين جُودُهُ
وأنسى بنى الآمالِ جودَ البرامكِ

وتأمل كيف يستلهم مواقف العزة والكرامة فى تاريخ أمته ، ورفض العربى للضيم والمذلة ، فيقول مادحا أميرا عيونيا : (٣٤) .

احمى من المرءِ جسّاس بن مُرّة إذْ
اردى كُلَيْباً بعزمٍ غيرِ ذى فشلِ
لم يقبلِ العارَ فى ضيمِ النّزيلِ ولم
يقنعْ بنقصٍ ولم يحتجَّ بالعِلَلِ

وكأن الشاعر يحذر أبناء عمومته من مغبة الإجحاف فى حقه ، ولا سيما أنه قد شفع هذين البيتين بصورة نادرة للعدالة ، ولكنه يسترفدها هذه المرة من تراث أمة أخرى ، فيقول : (٣٥) .

احنى واعْدَلُ من كسرى غداةَ رمى
بالسُّهم قلبَ ابنِهِ فى الحقِّ لم يُبَلِ

ويحلو لابن المقرب أن يكرر بعض الاعلام فى صور المديح ، لكنه يحرص كل مرة أن يضيف جديدا ، مثل قوله : (٣٦) .

يقصِّرُ حاتمُ فى الجودِ عنهُ
وكعبُ والبرامكةُ الكرامُ
وعمروٌ فى اللقاءِ عليه كَلٌّ
وعوفٌ فى الوفاءِ له غُلامُ

وقوله مادحا النقيب تاج الدين اسماعيل بن النقيب : (٣٧) .

فلو أنَّ قُساً فى الفصاحةِ رامَهُ
لأكْدَى ولانهارَتْ عليه المباحثُ
يقرُّ له فى الجودِ كعبُ وحاتمُ
وفى الحلمِ والإقدامِ قيسُ وحارثُ

والملاحظ أنه كان يحرص إذا مدح أحدا من رجال الدين والعلم أن يستدعى تلك الشخصيات الخالدة فى الزهد والتصوف والفقه وعلوم الدين

وعلم الكلام .. ومثل هذا قوله مادحا الشيـخ محب الـدين الـواسطى الشافعى : (٣٨) .

احيَيْـتَ بِشْـراً والجُنَيْـدَ وعـامِـراً
زُهْـداً وكُـلٌّ إذْ يُـعَـدُّ إمـامُ
واقمـت للقـرشىِّ فى ارائـهِ
حُجَجَـاً يُقَصِّرُ دونـهـا النُظّـامُ
لـورادكَ الثـورىُّ اعلـن قـائـلاً
انـت الغَمـامُ ومَنْ سـواك جَـهَـامُ

وقـــوله : (٣٩) .

ومن يَلْقَ ابـراهيمَ يَلْقَ ابنَ تـارحٍ
اخى العـزْم فى نُسْكٍ وعـزْم خـلالِ
ويلْقَ ابنَ يعقُـوبَ المكـرَّمَ يُـوسُفـاً
نبـىَّ الـهُـدَى فى عِفَّـةٍ وجمـالِ

والمتأمل لمديح ابن المقرب تدهشه ثقافة الشاعر ووعيه بهذه العناصر التراثية ، واحاطته بمشاهير الاعلام من ربيعة بخاصة فى كل ميدان وفن ، وكأنه يزهو بانتسابه اليها ، كما يدل بعروبته وما احتفظت به ذاكرة هذه الأمة من أمجاد وتجارب انسانية تعد كنوزا نفيسة عبر العصور ، يحق لأبنائها أن يتغنوا بها ، وأن يقيسوا هاماتهم بشوامخها ، وأن يقابلوا تجاربهم بتلك التجارب الخالدة فى الوفاء والاقدام والكرم ...

فابن المقرب حريص على أن يصل حاضره بماضيه ، أو قل هو حريص على أن يمتد الماضى فى الحاضر من خلال المقارنة بين ممدوحه ورموز تراثه ، وهى مقارنات ومقابلات يلح عليها ولا يملها فى مدائحه ، ويعدها انغامه الاثيرة التى تحرك شاعريته وتثريها بالمعانى والصور فى الوقت ذاته ، واورثة هذا العزف على هذه الأوتار أنغاما متميزة وصيغا لغوية مألوفة ، ولنستمع اليه مادحا لنرى كيف يصدر أبياته (بـأفضـل التفضيل) ، وهو بصدد عقد تلك المقابلات بين ممدوحية وتلك السلسلة من قمم تراثه : (٤٠) .

اعـزُّ واوْفى مـن عُمَـيْرٍ وحـارثٍ
واكـرمُ من كعـبٍ واوسٍ شمـائـلا
واصـدقُ بـاسـاً من كُلَيْبٍ إذ غـدا
يجـرُّ الى حَـرْبِ الملـوكِ الجحـافـلا
واحلمُ من قيسٍ إذا الحِلمُ لم يَزُحْ
يُطـوقُ عـاراً او يمُـوقُ جـاهِـلا
وامنـعُ جـاراً من يـزيـدٍ وهـانىءٍ
وجساس السّاقى حَسَا الموتِ وائِلا

وقوله فى موضع آخر : (٤١) .

مـاحلْـمُ قيْسٍ مـاوفـاء سَمَـوْءلٍ
مـاجُـودُ أوسٍ مـاشجـاعـةُ جَحْدَرِ
ابـى وامنـعُ جـانبـاً من هـانـىءٍ
ايـامَ يمنـعُ خلفَـهُ ابـنَ المُنْـذِرِ
واشـدُّ بـاسـاً من كُلَيْبٍ إذْ سَطـا
بـالسّيفِ يجتَثُّ الـذُّرَى من حِمْـيَرَ
واعـزُّ جـاراً من فتـى بَكْـرٍ وقـد
نـزلَـتْ بسـاحتِـهِ عقِيلَـةُ مِنْقَـرِ

وتشكل تلك العناصر التراثية فى فخر ابن المقرب رافدا هاما ، وخطا

واضحا ، فإذا ما افتخر بنفسه أو بقومه تداعت اليه أسراب منها ، تسعفه وتلبيه بمدد غزير من المعانى ، مثل قوله : (٤٢) .

بيتُ الرئاسةِ لى وحكمةُ دغفلِ
وبيانُ سحبانٍ وشعْرُ الأخطلِ

وقوله : (٤٣) .

وعندى لشانيها سيوفٌ ثلاثةٌ
لسانٌ ورأىٌ لا يفلُّ ومِخْذَمُ

فقد آثر أن يضفى على سيفه الثالث دلالة المضاء وسرعة القطع ، فجعله (مخذما) ، وهو سيف ارتبط ببطولات فارس عربى معروف ، هو الحارث بن ابى شمر الغسانى .

وقوله فى موضع آخر مفتخرا بنفسه : (٤٤) .

أريهم منطقاً عيّاً وإنّى
لأفحِمُ فى بلاغته زيادا

وانظر كيف يستلهم هذه الرموز - أحيانا - حين تأتى ممثلة لذروة تيار الفخر بالنفس ، حيث يقول : (٤٥) .

ياجُفُونى طلّقى عنكِ الكرى
إنّما طيبُ الكرى بعدَ السُّهادِ

ما الذى يقعدُنى عن همّتى
والمنايا رائحاتٌ وغوادِ

لأقيمنَّ لابناء الوغى
سُوقَ اقدامٍ وطعنٍ وجلادِ

إنْ يكُنْ عِزّاً وإلا فردى
لستُ من دُونِ شبيبٍ ومصادِ

فالشاعر يستلهم دلالةَ علمين باذخين فى الدهاء والطموح والثورة ، ولا يخفى مدى تقدير الشاعر لمثل هذه الأمور الثورية الطموحة ، ومجيئها على هذه المشاكلة بعد هذا المد من الفخر العالى بالنفس ، يشى بما يكنه الشاعر من رغبة فى التوثب والثورة والتطلع الى الزعامة .

ويعاتب الشاعر ابن عمه الأمير فضل بن محمد العيوني ، ويوجعه لوما وتعنيفا ، وتتجسد جراحات النفس النازعة امثالا مؤلمة ، وحكما صائبة يبلور فيها خلاصة تجربته الذاتية مع أهله المتمثلة فى موقفهم المنكر لحقه ، الغاض من مكانته ودوره ، ويبدى أسفه الشديد لمدحهم ، ويرى نفسه وهمته أكبر وأسمى من أن يجالس أمثالهم ، فهو حقيق بأن يجالس ويصحب ويمدح رموز الشرف والاباء العربى ، فيقول : (٤٦) .

ندمتُ على مدحى رجالاً وسرّنى
بأنْ ضمّتنى قبل ذاك الملاحِدُ

وحُقَّ لمثلى ان يموتَ ندامةً
إذا أُنشِدتْ فى الناسِ تلك القصائدُ

الاليتَ شعرى هل أجالسُ فتيةً
نماها الى العلياءِ قيسٌ وخالدُ

وهل تصحبَنّى من شُرَيْكٍ عصابةٌ
لها طارفٌ فى كل مجدٍ وتالدُ

غراعرُ لم تحلُلْ ديارَ ابن منذرٍ
فتُلقى الى الاعداءِ منها المقالِدُ

ويقابل هذا الصوت الذاتى فى

ديوانه صوت قبلي يتكىء فيه على تراث تاريخي يتسع لامجاد قومه في الماضي الموغل في القدم ، وفي الحاضر القريب ، فيقول من قصيدته التي يعارض فيها عينيه قطري بن الفجاءة المشهورة : (٤٧) .

فإنّ سيوفنا مازال فيها
شفاء للرؤوس من الصّداعِ
يُخبّرُ تُبّعُ عنها وكسرى
بذا والمنذرانِ وذو الكلاعِ

والملاحظ أن الشاعر في فخره الذاتي كان يقوم بانتقاء حر لعناصر التراث التي يسترفدها من اطاره القبلي أو العربي . أما في فخره القبلي فكان يصدر عن وعي بدقائق التاريخ المتصل بربيعة في الماضي والحاضر ، وقد استوقف هذا الحس التاريخي عنده عددا من الباحثين (٤٨) ، أمثال الدكتور شوقي ضيف في مقالته الضافية تحت عنوان (سجل شعري تاريخي فريد) والمستشرق الهولندي دي جويا في بحثه الخاص بتحديد نهاية القرامطة ، وغيرهما .

ولعل الصوت القبلي لم يبلغ مداه في ديوان الشاعر كما بلغه في قصيدة له يمدح فيها أميره الأثير محمد بن ابي الحسين العيوني ، والذي تذكرنا علاقته به بعلاقة المتنبي بسيف الدولة الحمداني . فبعد مقدمة طلية تقليدية يبدأ فخره القبلي بقوله : (٤٩) .

فقومي الألى اجْلَوْا قُضاعة عَنْوةً
ودانَتْ لهم كَلْبٌ ونهدٌ وخولانُ
وهم فلّقوا هامَ التّبابعِ إذْ طغَتْ
يُقرُّ به وادي خُزازى وسُلّانُ

ويمضي مسترفدا لهذا التراث التاريخي ، ويطول فخره ، وحسبنا منه قوله : (٥٠) .

وعاذتْ بهم من دهرهم آلُ منذرٍ
فصانَهُمُ حامي الحقيقةِ صوّانُ
ولم يَحْمِ كسرى من خدودِ سيوفهمُ
لُيوثٌ لها بالجو زأرٌ وزُورٌ انٌ
وهُمْ ملكُوا اكنافَ نجدٍ وطأْطَأتْ
لعزّتهِمْ بالشامِ عمرُو وغسّانُ
وسارتْ الى البحرينِ منهُمْ عصابةٌ
مصاليتُ غاراتٍ مغاويرُ غُرّانُ
فعن هَجَرٍ ذادوا القرامطَ عنْوةً
وقد شركَتْ فيها عتيكٌ وحُدّانُ
وساروا الى ارضِ القطيفِ فلم يكُنْ
ليمنَعَها منهمْ حُصونٌ وحيطانُ
ولم تمتنِعْ منهُمْ اوالُ بمُزْبِدٍ
من اليَمِّ تُزْجيهِ شمالٌ ومَرْخانُ

ومثل هذا قوله من قصيدة يمدح فيها الأمير فضل بن محمد ويرثي والده محمد بن ابي الحسين : (٥١) .

نماكَ للمجدِ اباءٌ بهم شَرُفَتْ
ربيعةُ الغُرّ عدناناً وقحطانا
قومٌ هُمُ ثاروا حُجْراً وهُمْ اسَرُوا
عمْراً وهُمْ قهروا ذا التاجِ صُهْبانا
وهُمْ أباحُوا حِمى كِسرى وهُمْ قتلوا
هامُرْزَ واستنْزلُوا الأسوارَ مَهْرانا

وانظر اليه كيف يستغل درايته بأنساب الخيل للايماء الى رموز الفروسية والبطولة فى التاريخ العربى ، فيقول مفتخرا : (٥٢) .

إذا ماذعوتُ ابنَىْ نزار اجابنى
كتائبُ انكى فى العِدَى من يَدِ الدّهر
تداعى الى صوتِ المُنادى تداعياً
كدفّاع موجٍ جاء فى المدّ للجَزْر
على كلّ ذيّالٍ وجرداء شطبةٍ
تجىء كسيْلٍ يلطمُ الطّلح بالسّدْر
نتاجُ عُميْرٍ والضُّبَيْب وكاملٍ
وذاتِ نُسُوعٍ والنعامةِ والخَطْر
ورثْن عن الشيخين بكرٍ وتغلب
وعن عبد قيس ذى العُلَى وعن النمر
وقيسٍ ابى الشُّم الطُوال وبعدَهُ
تميم واكرمْ والدأ بابى عمْرو
وعن سيّدىْ اباء كلّ قبيلة
واشرفها نسْلا خُزَيْمَةَ والنّضْر

ومثل هذا الصنيع قوله : (٥٣) .

إذا شئتُ لبّى دعوتى كلُّ ماجدٍ
يُعَدُّ ليوْمَىْ نائلٍ ونِزالِ
جبالٌ إذا طاشَتْ حلُوم بنى الوغى
رواسٍ ولكنْ فى شُخُوصِ رجالِ
نتاجُ ابن حلّابٍ وقَيْدٍ ولاحقٍ
وغلُّ المذاكى كاملٍ وعُقّالِ

وكان ابن المقرب يعرف كيف يوجه هذه المادة التراثية الغزيرة ، ليستثمرها فى رثائه ، فيتحول رثاؤه ـ أحيانا ـ الى ومضات تاريخية رائعة ، تحكى نهاية أبطال وأمم ملأوا الدنيا ببطولاتهم ومآثرهم ، ثم طواهم الردى . والشاعر يرمى من خلال ذلك الى استلهام العبرة والعظة ، وخير ما يمثل ذلك ميميته فى رثاء أحد أصدقائه والتى مطلعها : (٥٤) .

ابدى الحوادثِ فى الأيامِ والأممِ
امضى من الذِّكْرِ الصَمْصامَةِ الخَذِمِ

والتى يقول فيها :

ايـن الملوكُ وارداف الملوك ومَنْ
سادَ القبائلَ من عادٍ ومِنْ إرَمِ
وايـن طسْمُ واولادُ التبابعِ مِنْ
أولادِ حمْيَرَ والسَّاداتُ من عَمَمِ

ويمضى على هذا النحو حتى نهاية القصيدة على امتداد واحد وعشرين بيتا ، يومىء فى اشارات مكثفة الى سلسلة طويلة من الأبطال ممن طواهم الموت ، ووضع نهايته الحتمية لتألق نجمهم ، ومنها قوله : (٥٥) .

ارْدَى ابنَ مُرّةَ هَمّاماً وكان لَـهُ
عَقْدُ الرئاسةِ عن ابائهِ القِدَمِ
ومانعَ الجار جسّاساً أُتيحَ لَهُ
سَهْمُ المَنُونِ على عَمْدٍ فلم يَرُمِ
والحوفزان الذى كانت تنوء به
بكر سقاه بكاسات من النقم
وفارس العرب العرباء إن ذكرت
بسطام مد اليه كف مخترم

وحين يموت (مذكور) ابن عم الشاعر بطعنة رجل من عامة الناس ، يرثيه ابن المقرب بقصيدة تفيض ألما وحزنا ، ويعود الى تراثه باحثا عن

تجارب مماثلة لمقتل ابن عمه ليجعل منها عزاء وسلوى لاهله ومحبيه ، وليحول دون شماتة اللامزين لهذه الميتة ، فيقول : (٥٦) .

وما قتلةٌ ممّا يُعابُ به الفتى
إذا عُدَّ يوماً بين شيبٍ وشُبّانِ
فقد ماتَ بسطامُ بطعنةِ عاصمٍ
وكان المُرجّى في معدّ بن عدنانِ
كذا ابنُ حواريّ الأميرِ مُحمّدٍ
أتاهُ الرّدى من كفّ راعٍ لرعيانِ

وتتجاور - أحيانا - في مديحه وفخره عناصر تراثه العربي والاسلامي وعناصر أخرى من التراثين الفارسي واليوناني ، وكان يتخذ من كسرى الفرس واسكندر اليونان مثلين عاليين في العدل والحنكة السياسية ، وتتكرر في شعره صورة مقابلة أو مماثلة ممدوحية بهما ، والملاحظ أن أكثر ما يأتي ذلك في ثنايا مدائحه لأمراء العراق ممن ينحدرون من أصول غير عربية ، فيمدح شمس الدين باتكين الرومي أمير البصرة ، فيقول : (٥٧) .

أَحْيَيْتَ حلمَ ابنِ قيسٍ في سيادته
لكن قرنتَ به إقدامَ جسّاسِ
وعدلَ كسرى وإفضالَ ابن حارثةٍ
أوسٍ وعلمَ الفتى الحبر ابن عبّاسِ

ويمدحه في موضع آخر فيقول : (٥٨) .

يا باشجاعٍ يا ثمالَ الورى
يا طاهراً من كلّ ذمٍ وذامْ
ياشبه ذي القرنين من رهطهِ الغُرّ
بني العيصِ الملوكِ الكرامْ

ويقول مادحا أمير الموصل بدر الدين لؤلؤا : (٥٩) .

أرسى قواعدَ مُلْكٍ لو يُدبّرُهُ
كسرى وإسكندرٌ أعيتهمُ الحِيَلُ

وقد يستغل هذه الرموز غير العربية في مديح أمير عيوني ، مثل قوله في مديح أحد أمراء الدولة العيونية : (٦٠) .

وإذا احتبى وسط الندى رفعْتَهُ
عن أنْ تشبّهَهُ بنوشروانِ

ويقول في مديح أمير عيوني آخر : (٦١)

حِلمُ ابنِ قيسٍ في سماحة عمّه
معنٍ ويُمْنُ اسكندرِ اليوناني

وربما يوظفها في فخره أيضا ، مثل قوله :

فغُذْنا ببيضٍ ذكّرتْهُمْ حُدودُها
بما كان من أخبار كسرى ورُستُما

وقد تلقانا هذه الصورة أيضا في تعريضه بواقعه ، حيث يقول :

ومن الشقاءِ إقامتي في بلدةٍ
لله جَدُّ عدوِّها ما أسْعَدَا
لو حلّها كسرى لقالَ لما يرى
نفسي لمن يبغي الخرابَ لها الفِدا

وبعد هذا العرض لمجالات استلهام ابن المقرب لعناصر التراث في شعره نود الاشارة الى أننا لم نقم بحصر كل

مواضع استخدامها في شعره ، فهذا أمر يطول الخوض فيه ، لكثرة دوران هذه العناصر في شعره وشيوعها على نحو يشكل ظاهرة فنية بارزة عنده ، وتمثل عونا للباحثين على تحديد الاطار المعرفي للشاعر ، وتحديد ألوان الثقافة السائدة في بيئته . ويبدو جليا لمتأمل هذه المادة التراثية صلة الشاعر القوية بأحداث التاريخ العربي وتفاصيله الدقيقة عبر العصور ، ووعيه بصناع تلك التجارب القومية والانسانية ، التي لها صفة الديمومة ، وادراكه لمدى تقدير الجماعة لهذه المادة إذا ما وضعنا في الاعتبار أن الفن دوما يعمل على تلبية المطالب الروحية والنفسية والفكرية للجماعة . ولعل استثمار ابن المقرب لهذه المادة التراثية واستيحاءها في مجالات شعره الهامة كان عاملا هاما في رفده بهذه القيم المعنوية ، التي اكسبت فنه ثراءه وخصوصيته وقدرته على التوهج والعطاء ، مما يجعلنا نقول بأنه شاعر كبير في زمانه ومكانه ، وبأنه حقيق بتسمية (متنبيء الخليج العربي) . وبأن قاريء ديوانه لابد له من الاستعانة بكتب انساب العرب وأيامهم وأمثالهم وفتوحهم ، وبعض مصادر انساب الخيل ، ولابد له من معاودة تراجم بعض الاعلام في كتب الطبقات وغيرها .

والسؤال الذي يطرح نفسه ، ما سر الحاح ابن المقرب على استدعاء واستلهام تلك الاعلام المعروفة ، والاحداث الهامة من تراثه ؟

ليس من شك في أن توظيفها في شعره ، يأتي في سياق محاولاته كشاعر مبدع في البحث عن وسائل تعبيرية قادرة على الوفاء بحق تجاربه ، وأن استخدامها له ما يبرره في شعر اسلافه ، ولكن صورة الالحاح التي نراها في شعره لاستدعاء تلك الاعلام التي تمثل رموزا عالية لقيم الجماعة في الوفاء ، والكرم ، والاقدام ، والاباء ، والشرف ، والثورة ... الخ تشي بموقف الشاعر من واقعه الذي شحبت فيه تلك القيم التي تمثل عصب الحياة في موطنه ، حيث يقول : (٦٢) .

أذن النجيبةَ للتَّرحالِ وأرخِ لها
زمامَها واخلط الرَّوحاتِ بالبُكَرِ
وخطِّها الخطَّ إرقالاً وأوّل قلى
اوالَ لا نادماً واهجُرْ قُرى هجر
اماكناً لعبَتْ اهلُ الفسادِ بها
فدمَّروها بلا فِكرٍ ولا نَظَرِ

فالشاعر كان يرمي الى تجسيد القدوة للجماعة من خلال تلك الصور والمقابلات ، وإذا ما وضعنا في الاعتبار أن ابن المقرب قد شاء له القدر أن يشهد آخر الفصول في حياة السلطة العيونية ، فقد توفي عام

٦٣٠ هـ ، والدولة العيونية تؤذن بالزوال (٦٣٦ هـ) . كما أن نهاية الامبراطورية الاسلامية كانت وشيكة من وفاته ، فقد اجتاحها المد المغولى عام ٦٥٦ هـ . والشاعر قد أمضى فى العراق شطرا من عمره من خلال خمس رحلات متتالية زار فيها أهم حواضره ، واتصل بالخليفة العباسى وأمراء الدولة وكبرائها . لذا لا نستبعد أنه بحسه الشاعرى المرهف ، وقدرته على قراءة الواقع وسبر أغواره ، واستشراف مستقبله ، كان يحس بواجبه الوطنى والقومى المتمثل فى النفخ فى روح الجماعة ، لعلها تتجاوز عاهات الراهن العربى آنذاك .

وإذا كان ابن المقرب قد استطاع أن يعبر عن بعض المواقف من خلال مقارناته البارعة بين حاضره وماضيه ، أو من خلال خلق تلك المتوازيات بين تجاربه وما يماثلها من تجارب الأسلاف فى التراث العربى . إلا أنه من الواضح أن كيفية توظيف هذه العناصر التراثية ، يختلف الى حد كبير عن مثيله عند الشاعر العربى المعاصر ، فشعراء تجربة الشعر الجديد قد استطاعوا لأول مرة (أن ينظروا الى التراث من بعد مناسب ، وأن يتمثلوه ، لا صورا وأشكالا وقوالب ، بل جوهرا وروحا ومواقف ، فأدركوا بذلك أبعاده المعنوية ، وهم فى خروجهم على الاطار الشكلى للشعر القديم لم يكونوا بذلك يحطمون التراث ، بل كانوا يحطمون شكلا كان قد تجمد ومن شأنه أن يتطور ويتجدد ، فليس الشكل هو روح حقيقية فى زمان غير زمانه إذا كان الشكل وحده هو كل ما يمكن أن يستفاد منه . وإنما الشيء الباقى الفعال فى أى تراث هو قيمته الروحية والانسانية الكامنة فيه ، أى قيمته المعنوية [٦٣] .

إذن فتجربة الشعر الجديدة حين ثارت على البنية الشكلية للشعر القديم ، ظلت موصولة بجانب جوهرى فيه يتمثل فى تلك القيم المعنوية ، والروحية والفكرية والانسانية الكامنة فيه . فتجربة الشعر الجديدة إذن (تخلص لروح التراث وان تمردت على أشكاله وقوالبه ، والشعر المعاصر لم يطرح قضية التراث جانبا ـ كما توهم البعض ـ بل هو أعمق وأصدق إرتباطا بها . وكل من يتجاوز عن قضية الشكل ، ويتأمل هذا الشعر يلمس بوضوح كيف يعيش التراث فى ثناياه [٦٤] .

فشعراء تجربة الشعر الجديدة قد افادوا ـ ولا شك ـ من تجربة أسلافهم فى الشعر القديم ، حين لفتوا

أنظارهم الى تلك القيم المعنوية التى يزخر بها تراثهم ، والى إمكانية استغلالها فى التعبير عن معانيهم وتجاربهم . ولكن كيفية تعاملهم مع تلك المادة التراثية يمثل (صورة من صور علاقة الشاعر بالتراث لم يسبق له أن عرفها فى تاريخه الطويل ، وهذه الصورة هى ما يمكن أن نطلق عليه توظيف التراث ، بمعنى استخدام معطياته استخداما فنيا ايحائيا ، وتوظيفها رمزيا لحمل الأبعاد المعاصرة للرؤية الشعرية للشاعر ، بحيث يسقط الشاعر على معطيات التراث ملامح معاناته الخاصة ، فتصبح هذه المعطيات معطيات تراثية ـ معاصرة ، تعبر عن أشد هموم الشاعر المعاصر خصوصية ومعاصرة فى الوقت الذى تحمل فيه كل عراقة التراث وكل إصالته ، وبهذا تغدو عناصر التراث خيوطا أصيلة من نسيج الرؤية الشعرية المعاصرة (٦٥) .

# الهوامش

( ١ ) راجع : د. طه وادي : جماليات القصيدة المعاصرة ص ٥٥ : دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٢م .

( ٢ ) د. شوقي ضيف في النقد الأدبي ص ١٧٧ دار المعارف بالقاهرة ط ٥ ، ١٩٧٧م .

( ٣ ) د. عبدالعزيز الاهواني ، ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر ص ٢٧ ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٢م .

( ٤ ) ابن طباطبا ، عيار الشعر ، ص ٨ ـ ٩ تحقيق طه الحاجري ومحمد زغلول سلام ، المكتبة التجارية بالقاهرة ١٩٥٦م .

( ٥ ) المرجع نفسه ص ١٠ .

( ٦ ) انظر د. علي عشري زايد ، توظيف التراث العربي في شعرنا المعاصر ، مجلة فصول ، ع ٢ ١٩٨٠م ، ص ٢٠٣ .

( ٧ ) راجع د. أحمد الخطيب ، شعر علي بن المقرب العيوني دراسة فنية ص ٢٢٥ ـ ٢٨٨ دار المريخ بالرياض ، ١٩٨٤م .

( ٨ ) د. طه حسين ، حديث الاربعاء ، ح ٢ ص ٨ ، مطبعة الحلبي بالقاهرة ١٩٣٧م .

( ٩ ) راجع عبدالله التطاوي ، الصورة الفنية في شعر مسلم بن الوليد ، ص ٧٦ ، رسالة ماجستير مخطوطة باداب القاهرة ١٩٧٦م .

(١٠) ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر ص ٢٧ .

(١١) د. مصطفى ناصف ، قراءة ثانية لشعرنا القديم ، ص ٤٢٠ ، الجامعة الليبية ، كلية الآداب (د. ت) .

(١٢) راجع شعر علي بن المقرب العيوني دراسة فنية ، ص ٢٨٠ وما بعدها .

(١٣) انظر د. ابراهيم أنيس ، موسيقى الشعر ص ١٩٢ مكتبة الانجلو المصرية ١٩٧٢م .

(١٤) انظر نفس المرجع والموضع .

(١٥) د. علي عشري زايد ، إستدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر ص ١٨ ، الشركة العامة للنشر والتوزيع والاعلان ، طرابلس ـ ليبيا ١٩٧٨م .

(١٦) ديوان ابن المقرب ، تحقيق عبدالفتاح الحلو ، ص ١٤٣ ، الناشر مكتبة التعاون الثقافي بالاحساء ١٩٦٤م .
(١٧) الديوان ، ص ٣٦ ، ٣٧ .
(١٨) الديوان ص ٢٧٥ وكسع ، حي باليمن ، ولعله يعني غامد بن الحارث الكسعي الذي اتخذ قوسا وخمسة أسهم . وكمن للصيد ، فمر قطيع فرمى عيرا فامخطه السهم وصدم الجبل فاورى نارا فظن انه قد اخطأ فرمى ثانيا وثالثا إلى آخرها وهو يظن خطاه فعمد إلى قوسه فكسرها ثم بات ، فلما أصبح نظر فإذا الحمر مطرحة مصرعة وأسهمه بالدم مضرجة فندم فقطع ابهامه وانشد :

ندمت ندامة لو أن نفسي تطاوعني إذا لقطعت خمسي
تبين لي سفاه الرأي مني لعمر ابيك حين كسرت قوسي

(١٩) الديوان ص ٤٢١ وزبيدة : هي زوجة الخليفة الرشيد وام الأمين . وكلبة حومل : يضرب بها المثل في الجوع ، وحومل : امرأة من العرب كانت تربي كلبة للحراسة وتجيعها وتطردها بالنهار ، فرأت ليلة القمر طالعا فنبحت عليه تظنه رغيفا لاستدارته ، ولما طالت الشدة عليها أكلت ذنبها .
(٢٠) وسطيح الكاهن هو ربيع بن ربيعة ، كاهن جاهلي غساني من المعمرين ، كان العرب يحتكمون إليه ويرضون بقضائه . وسليك المقانب هو سليك بن السلكة وهي أمة وكانت سوداء وكان هو ايضا أسود ، وكان من أعدى الناس لا يشق غباره ، وأخباره في العدو والغارة مشهورة .
(٢١) رامه وأرامه : عطفه على غير ولده ، والعيدهية : السيء الخلق ، وبرشم : وجم ، وعوج : اسم رجل هو عوج بن عوق ذكر من عظم خلقه شناعة ، وذكر انه كان ولد في منزل ادم فعاش إلى زمن موسى عليه الصلاة والسلام وذكر انه كان مع فراعنة مصر ، ويقال : كان صاحب الصخرة اراد أن يلحقها على عسكر موسى عليه السلام ، وهو الذي قتله موسى . (اللسان مادة عوج) ويقال في أساطير العرب انه قتل فصارت جثته جسرا على النيل . وقدار بن سالف : عاقر الناقة ، ومنشم بنت الوجيه العطارة بمكة ، وكانت العرب تقول : اشأم من عطر منشم .
(٢٢) الديوان ص ٦٤٠ . أبو غبشان هو المحترش بن ربيعة الخزاعي ، كان حاجب البيت الحرام بعد ابيه ، وكانت العرب تجعل له جعلا في كل موسم ، فقصروا به في بعض المواسم ، فغضب فدعاه قصي بن كلاب فسقاه ، ثم اشترى منه البيت بازواد وقيل بزق خمر .
(الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٦٧ ، ٦٨) .
(٢٣) الديوان ص ١٣٨ .
(٢٤) الديوان ص ٣٢٠ . قيس بن زهير العبسي ، أحد دهاة العرب كان يلقب بقيس

الرأي لجودة رأيه ، وهو أمير عبس وأحد الشجعان الخطباء . زهد في آخر عمره ورحل إلى عُمان وعف عن الطعام وأكل الحنظل ومازال في عُمان حتى مات سنة ١٠ هـ ، ووبل قرية من نواحي عُمان .

(٢٥) الديوان ص ٦٣٩ . العياش : عياش بن سعيد رأس بني محارب ، والعريان بن إبراهيم بن عامر بن الحارث رأس بني مالك .

(٢٦) الديوان ص ٢٤٢ والعجر والبجر العيوب والأحزان ، وما أبدى الانسان وما اخفى .

(٢٧) الديوان ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

(٢٨) الديوان ص ١٥٦ ابن قاهث : هو قارون بن يصهر بن قاهث ، وهو من يضرب به المثل في كثرة المال .

(٢٩) الديوان ص ١٨٤ ، ١٨٥ . قعقاع بن شور ، ذلك الذي يقول فيه الشاعر : (وكنت جليس قعقاع بن شور : ولا يشقى بقعقاع جليس) وهو من بني بكر بن وائل ، تابعي ، شهد عهد معاوية بن أبي سفيان ، يضرب به المثل في حسن المجاورة ، قيل : كان يجعل لمن جالسه نصيبا من ماله ويعينه على عدوه ، ويشفع له في جوانحه ، ثم يغدو إليه بعد المجالسة شاكراً ، وكعب بن مامة الايادي ، يضرب به المثل في الجاهلية في الكرم وحسن الجوار .

(٣٠) الديوان ص ٥٠٢ . وبسطام بن قيس الشيباني الفارس الشاعر ، وقد سبق ذكره ، وهانيء بن قبيصة الشيباني ، يضرب به المثل في الوفاء والعزة ، وموقفه من النعمان بن المنذر حين نقم عليه كسرى معروف ومشهور . (الديوان ص ٥٩٠) .

(٣١) الديوان ص ٤٩٢ . قيس بن معديكرب الكندي صاحب مرباع حضرموت في الجاهلية ، وولده الاشعث بن قيس الذي مدحه الاعشى فأجزل له العطاء ، ولعله أراد قيس بن مسعود بن ذي الجدين ، وكان عاملا لكسرى على طف العراقين والابله ، وولده بسطام الشيباني الشاعر الفارس ، ومعبد : لعله يعني معبد بن حنش بن مالك التغلبي . أو معبد بن أحيحه بن الجلاح أخو عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف (جمهرة انساب العرب لابن حزم الأندلسي ، تحقيق عبدالسلام هارون ، ص ١٤ ، ٣٠٧ ، دار المعارف ١٩٨٢م). وأوس بن حارثة بن لام الطائي أحد سادات العرب وأجوادها في الجاهلية (الديوان ص ٢٠٣) وكعب سبق ذكره .

(٣٢) الديوان ص ٢٠٣ . أوس بن حارثة الطائي ، سبق ذكره . أويس بن عامر القرني : تابعي عابد متنسك ، أدرك حياة النبي ﷺ ، ولسكناه الرمال والقفار لم يره . وأبو بحر هو الأحنف بن قيس التميمي ، أحد الدهاة الفاتحين العظماء ، ضرب به المثل في الحلم ت ٧٢ هـ .

(٣٣) الديوان ص ٣١٢ . وقيس بن خالد هو ذو الجدين الكندي ، وذو الجدين (كما

في القاموس) هو عبدالله بن عمرو بن الحارث ، وعمرو بن ربيعة فارس الضحياء ، وسعد بن مالك البكري الوائلي قتل في حرب البسوس ، وله أشعار جياد ، والمرثديون ، رهط زيد بن مرثد ، وخالد بن يزيد بن مرثد بن زائدة ، وذلك بيت كرم في ربيعة لا ينازع ، والبرامك هم وزراء العباسيين وحجابهم ، عرفوا بالكرم واشتهروا به .

(٣٤) الديوان ص ٣٨٧ .

(٣٥) نفس المرجع والموضع .

(٣٦) الديوان ص ٥٦٥ . وعمرو بن معديكرب الزبيدي يضرب به المثل في الاقدام ، وعوف بن محلم بن ذهل بن شيبان يضرب المثل بوفائه ، لان عمرو بن هند طلب منه مروان القرظ ، وكان قد أجاره فمنعه عوف وابى أن يسلمه .

(٣٧) الديوان ص ١١٧ . قيس بن ساعدة الايادي من أفصح العرب وأخطبها ، توفي قبل الهجرة بثلاث وعشرين سنة . وقيس بن عاصم المنقري اشتهر بالحلم والشجاعة ، وقدم على النبي ﷺ في وفد بني تميم فأسلم وتوفي سنة ٢٠ هـ ، والحارث بن عباد البكري أحد سادات العرب وشجعانها ، وهو الذي انتصرت به بكر على تغلب حينما ثار لمقتل ولده بجير في حرب البسوس .

(٣٨) الديوان ص ٥٦٩ ، ٥٧٠ . بشر بن الحارث بن علي بن عبدالرحمن المروزي المعروف بالحافي ، من ثقات رجال الحديث ، له في الزهد والورع أخبار توفي ببغداد عام ٢٢٧هـ والجنيد بن محمد البغدادي الصوفي ، عالم فاضل ، شيخ مذهب التصوف في أيامه توفي ببغداد عام ٢٩٧هـ ، وعامر : لعله يعني عامر بن شراحيل الشعبي ، تابعي من رجال الحديث الثقاة عام ١٠٣هـ ، أو لعله يعني عامر بن عبدالله المعروف بابن عبد قيس العنبري ، تابعي ناسك متعبد من أقران أويس القرني .

(٣٩) الديوان ص ٣٧٧ . ابن تارح : إبراهيم عليه السلام .

(٤٠) الديوان ص ٤٠١ . عمير بن الحباب بن جعدة السلمي ، ومن ولده زياد والحجاف بن حكيم البطلان الفاتكان (الجمهرة ص ٢٦٤) .

(٤١) الديوان ص ٢٢١ ، ٢٢٢ .

(٤٢) الديوان ص ٤٢١ . دغفل بن حنظلة بن زيد الذهلي الشيباني ، يضرب به المثل في معرفة الانساب ، قال الجاحظ : لم يدرك الناس مثله لسانا وعلما وحفظا ، تولى تعليم يزيد بن معاوية ت ٦٥هـ .

(٤٣) الديوان ص ٤٤٩ .

(٤٤) الديوان ص ١٨٣ .

(٤٥) الديوان ص ١٨٠ . شبيب بن يزيد الخارجي أحد كبار الثائرين على بني أمية ، كان داهية طماحا إلى السيادة ، خرج بالكوفة ونادى لنفسه بالخلافة ، فشل الحجاج في قتاله ، وتكاثرت عليه جيوش الشام . فقتل كثيرون من

اصحابه . ونجا بمن بقي منهم فمر بجسر دجيل (في نواحي الاهواز) فنفر به فرسه . وعليه الحديد الثقيل من درع ومغفر وغيرهما فألقاه في الماء وغرق سنة ٧٧هـ . ومصاد بن يزيد بن نعيم الشيباني أخو شبيب . ثار معه . وشهد أكثر حروبه . وأعانه على كروبه .

(٤٦) الديوان ص ١٤١ ، ١٤٢ . لعله أراد قيس بن ثعلبة بن عكابة من بني بكر بن وائل . ولعله أراد قيس بن مسعود بن ذي الجدين . ولعله يقصد بخالد : خالد بن جعفر العامري فارس هوازن وشاعرها في الجاهلية . ويقوى هذا ان لخالد عقبا ينسبون إليه . وهم بطن من عامر بن صعصعة . وشريك أبو بطن من بطون العرب . وهو شريك بن مالك بن عمرو . والعراعر : الشرفاء . والمفرد على صورة الجمع بعد ضم العين . وديار ابن منذر : أرض الحيرة نسبة إلى النعمان بن المنذر .

(٤٧) مطلع قصيدة قطري بن الفجاءة :

أقول لها وقد طارت شعاعا من الأبطال ويحك لن تراعي

الديوان ص ٢٧٫٢ . المنذران : لعله يعني بهما المنذر بن ماء السماء . والمنذر بن الحارث الغساني . والأول هو ثالث المناذرة ملوك الحيرة في الجاهلية . وهو من أعظمهم وأشدهم بأسا . والثاني هو ابن الحارث بن جبلة الغساني . أمير بادية الشام قبيل الاسلام من قبل قيصر الروم . وذو الكلاع هو يزيد بن النعمان الحميري . وذو الكلاع الأكبر . وهو وذو الكلاع الأصغر سميفع بن ناكور بن عمرو بن يعفر بن ذي الكلاع الأكبر من أذواد اليمن وملوكها في الجاهلية . وسمي ذو الكلاع لان حمير تكعلوا على يده أي تجمعوا .

(٤٨) راجع : شعر علي بن المقرب العيوني دراسة فنية ص ١٩ وما بعدها . ص ٢١٨ وما بعدها . وانظر : علي بن المقرب العيوني حياته وشعره . د. علي عبدالعزيز الخضيري . ص ٣٢٣ وما بعدها . وانظر : مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة . سجل شعر تاريخي فريد . د. شوقي ضيف . العدد ٣٨ نوفمبر ١٩٧٦م .

(٤٩) الديوان ص ٥٨٨ . كانت مساكن قضاعة بين جدة وذات عرق (بقرب مكة) . وقد أجلاهم عنها العدنانيون . فتفرقوا في الحجر ووادي القرى . واستقر بعضهم بأطراف الشام ونجد . وكلب قبيلة ينسبون إلى كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن الحاف بن قضاعة جد جاهلي . وفهد قبيلة ينسبون إلى فهد بن زيد بن ليث من بني الحاف من قضاعة . وهو جد جاهلي أيضا . وكذلك خولان ينسبون إلى خولان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة . وهو جد جاهلي يماني . كان يوم خزازي لمعد على مذحج . وخزاز جبل ما بين البصرة إلى مكة . وكانت معدلا تستنصف من اليمن . ولم تزل اليمن قاهرة لها حتى كان هذا

اليوم فانتصرت معد ، ولم تزل لها المنعة حتى جاء الاسلام ، ويوم السلان لبني عامر على النعمان بن المنذر اللخمي ، ويقصد بهذه الاشارة إلى انتصار عرب الشمال على عرب الجنوب ، أعنى العرب المستعربة على العرب العاربة .

(٥٠) الديوان ص ٥٩٠ . ويشير هنا إلى موقف الوفاء النادر حين دفع النعمان بن المنذر بأله وأولاده وماله إلى هانىء بن قبيصة الشيباني ، وذهب إلى كسرى ، وما حدث بعد ذلك من انتصار العرب على الفرس بذي قار . والقرامطة هم بنو بهرام ، وكبيرهم ابو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي القرمطي ، كان تاجراً بالبحرين ثم دعا الناس إلى نحلته ، وعظم أمره وحارب الخلافة العباسية ، استولى على سائر هجر والاحساء والقطيف ، قتله خادم له في الحمام سنة ٣٠١هـ (الديوان ص ٤٦٩) . وقد وضع عبدالله بن علي العيوني نهاية لنفوذهم ومعتقداتهم عام ٤٦٧هـ (انظر تفصيلات ذلك في هامش الديوان ص ٥٣٣ ، وراجع شعر علي بن المقرب العيوني ، دراسة فنية ص ١٩ وما بعدها) . وعتيك : قبيلة تنسب إلى عتيك بن الأزد بن عمران بن عمرو بن مزيقاء الكهلاني القحطاني ، وحدان : قبيلة تنسب إلى حدان بن شمس بن عمرو بن غنم بن غالب الأزدي (الديوان ص ٥٩٠) .

(٥١) الديوان ص ٦٠٩ . حجر بن الحارث الكندي من بني أكل المرار ، وهو أبو امرىء القيس ، ثار بنو أسد عليه فقتلوه ، وقد ثار امرؤ القيس لأبيه من بني أسد ، وعمرو هو عمرو بن معديكرب الفارس العربي المعروف ، وصهبان بن سعد بن مالك القحطاني جد جاهلي ، وجاء في احدى مخطوطات الديوان هو صهبان بن الحارث الحميري ملك التبابعة ، والأسوار مهران قائد الفرس .

(٥٢) الديوان ص ١٩٩ . عمير : فرس حنظلة بن سيار (القاموس) ، والضبيب : فرس حسان بن حنظلة الطائي (أنساب الخيل لابن الكلبي ، دار الكتب المصرية ١٩٤٦م ، ص ٩٥) ، وكامل : من خيل ضبة ، وهو فرس زيد الفوارس الضبي (انساب الخيل ٥٢) ، وذات نسوع : فرس بسطام بن قيس (القاموس) ، والنعامة : فرس قراض الازدي (انساب الخيل ١٠٦) ، والخطر : ليس في القاموس الا الخطار ، وهو فرس حذيفة بن بدر الفزاري وفرس حنظلة بن عامر النميري .

(٥٣) الديوان ص ٣٧٣ . محبوك القرى : محكم الظهر قوية ، وفرس مشنج النسا : لم تسترخ رجلاه ، والرعال : جمع الرعيل ، وهى القطعة من الخيل قدر العشرين أو الخمسة والعشرين . وحلاب من خيل بني تغلب من نتاج أعوج (انساب الخيل ١١٣) ، ولاحق : من الجياد المنجبة ، وكان لفتى بن اعصر بن قيس عيلان (انساب الخيل ص ٢٢) ، وكامل سبق ذكره ، وذو العقال : من جياد العرب وفحول الخيل (انساب الخيل ١٢٩) .

(٥٤) الديوان ص ٤٨٥ .
(٥٥) الديوان ص ٤٨٦ . همام بن مرة بن ذهل بن شيبان اخو جساس قاتل كليب ، وهو من سادات شيبان ، والحوفزان لقب الحارث بن شريك لان قيس بن عاصم رضى الله عنه حفزه بالرمح حين خاف أن يفوته ، وكان الحوفزان سيد بكر بن وائل ، وبسطام بن قيس بن مسعود الشيباني من أشهر العرب في الجاهلية ويضرب المثل بفروسيته ، قتله عاصم بن خليفة الضبي يوم الشقيقة قبل الهجرة .
(٥٦) الديوان ص ٥٩٩ . بسطام بن قيس الشيباني سبق ذكره ، وحمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه قتله وحشى بن حرب الحبشي في غزوة احد ، استخفى له خلف حجر ثم رماه بحربة كان يرمي بها رمى الحبشة فلا يكاد يخطىء ، ومحمد بن الحواري العيوني حمل ذات يوم على المغيرين على الاحساء وطرد خيلهم ، ولحق رجلا فحقره من أن يقتله فتركه ، فحين تعداه زرقه بالرمح فقضى عليه .
(٥٧) الديوان ص ٥١٦ .
(٥٨) الديوان ص ٥٧٦ . وعيصو بن اسحق عليه السلام ابو الروم ، وأبو العيص كنيته .
(٥٩) الديوان ص ٤٤٢ .
(٦٠) الديوان ص ٦٢٢ . وكسرى أنوشروان هو المشهور بعدله .
(٦١) الديوان ص ٦٤٠ .
(٦٢) الديوان ص ٢٤٢ . خلط الروحات بالبكر : معناه الدوام على السير ، والخط : القطيف ، والارقال : الاسراع ، والقلى : البغض ، وأوال : جزيرة بالخليج العربي ، وهي التي يطلق عليها الآن مع مجموعة جزر صغيرة تجاورها اسم دولة البحرين ، وهجر : قصبة البحرين ، وهى اما مدينة الاحساء الحالية ، أو كانت تقع قريبا منها ، وهجر تطلق أيضا على البحرين في الاصطلاح القديم ، وكانت تشمل المنطقة الشرقية من جزيرة العرب .
(٦٣) د. عز الدين اسماعيل/الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية ، دار الفكر العربي (د. ت) ، ص ٢٨ ، ٢٩ .
(٦٤) نفس المرجع والموضع .
(٦٥) د. علي عشري زايد ، توظيف التراث في شعرنا المعاصر ، مجلة فصول ، ع ٢ ، ص ٢٠٤ .

## ببليوجرافيا

# روّاد الإصلاح في العصر

# ١ الأفغـ

### في القرن السّادس عشر.. وصل العـ
### وفي القرن التاسع عشر بـ

من مكرور القول تأكيد حقيقة ان الرجال المميزين بعبقريتهم وشجاعتهم وبعد نظرتهم للأمور.. دائما ما يتركون في حياتهم وبعد مماتهم جدلا ـ وبصوت عال ـ بين الانصار والخصوم.. ذلك لأن الناس لا تألف ما اعتادت عليه فحسب بل تحارب غالبا للحفاظ على ما ورثته من السلف، وتضعه احيانا فوق الشبهات ومن ثوابت المكان والزمان التي لا تناقش! وكان هذا قدر كل المصلحين والمجددين في تاريخ الانسانية بما فيهم رسل الله وانبياؤه (عليهم السلام).. لذا لا عجب أن نجد هذا الاختلاف بين



# الحديث

# ـالى

## ثمانيون للقمة
## دأ الانهيار

مفكرى الامة ومثقفيها حول حقيقة شخصيات المصلحين الاسلاميين فى العصر الحديث ونهجهم .. وحسب هؤلاء الاعلام البارزين منزلة ـ فى رأينا المتواضع ـ ان دعوتهم للاصلاح كانت بمثابة انذار مبكر ايقظ الامة ونواة اولى للثورات والحركات التى رفضت الاستسلام لقوى الشر والضياع والخوف ، وسعت سعيا حثيثا لتحقيق الطموحات والامال فى التغيير الايجابى الذى نشدته البلاد العربية تحت الحكم العثمانى .

بقلم الدكتور
فهمي توفيق
مقبل،
السعودية

ولعل فى تزامن قيام هذه الحركات والثورات مع اعتلال صحة الدولة العثمانية واحتضارها ، ومحاولات اقتسام الدول الاستعمارية لتركة « الرجل المريض » ما يبرر ضرورة ولادتها ، وما ترتب على ذلك من طروحات فكرية وعملية ، كانت تهدف اخراج المسلمين من حالة الذهول وفقدان الرؤيا الى حالة الحضور ووضوح الرؤيا ، لتمكنهم من العودة الى الجذور لاصلاح الحاضر وكسب المستقبل .. وهو الامر الذى أدى ان يشهد القرن الثالث عشر هجرى ( التاسع عشر الميلادى ) ارهاصات فكرية نوعية ، تناولت اوضاع الدولة العثمانية برمتها ، مما نجم عنه بالتالى قيام جبهات مؤيدة للتوجهات والافكار الجديدة وأخرى معارضة لها .. خصوصا فى الولايات العربية التى كانت تعانى - على ما يبدو - اقسى انواع الاهمال والعزلة والغياب شبه التام عن المسرح الدولى والعالمى ! ويمكن القول ان قاسما مشتركا ربط بين المعارضين والمؤيدين لسياسات الدولة العثمانية فى المشرق العربى ، يتمثل فى الاتفاق على سلطة عثمانية اسمية على الولايات العربية ، يفسح المجال امام حكم شبه ذاتى لشعوب هذه الولايات ، يفضى بالتالى الى تنازلات مقبولة تتيح من فرص استقلالية القرار لها ، خصوصا ما يتصل منها بالحياة الفكرية ( التعليمية والتربوية ) والاجتماعية والاقتصادية .. ويعيد الاعتبار لعناصر الهوية العربية ، لغة ، وتاريخا ، وثقافة ، وحضارة .. الخ . ومن المعروف ان الدولة العثمانية حكمت البلاد العربية حقبة طويلة من الزمن تربو عن اربعمائة سنة ( ٩٢٢ - ١٣٤٣ هـ = ١٥١٦ - ١٩٢٤ ) ، وهى بالتأكيد حقبة لها ايجابياتها ولها سلبياتها .

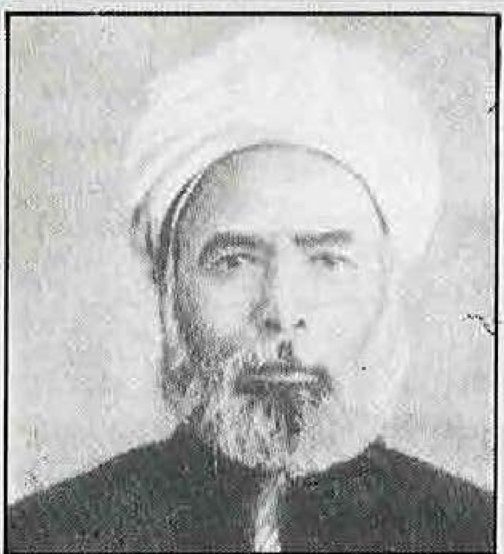
ومرة اخرى ، فان هذه الدراسة ، المكرسة لثبت وتبويب المصادر والمراجع المتعلقة باعلام ( القرن ١٣ هـ = ١٩م ) وعصرهم ، لا تتسع لتثمين مثل هذا الدور ، الذى قتل بحثا ودراسة ، وتكفلت بالحديث عنه كتب كثيرة ، بمختلف اللغات ، لكن هذا لا يمنع - انصافا للحقيقة - من القول بأن القرن ( ١١ هـ = ١٦م ) ، كان يمثل ذروة التفوق العثمانى السلمى والحربى فى الداخل والخارج ، وكان هذا وحدة كافيا لحدوث عملية الانبهار عند شعوب العالم العربى بخاصة والعالم الاسلامى بعامة ( المهيضة الجناح ) بهذا المارد الاسلامى العملاق ، الذى نظر اليه كصخرة جبارة تتحطم عليها اطماع القوى الاستعمارية والمخططات الهادفة لغزو المشرق الاسلامى .. لكن الحال تغير فى القرن ( ١٣هـ = ١٩م ) عما كان عليه فى العصر الذهبي للدولة العثمانية ، حيث شهد هذا القرن عوامل الانحطاط والضعف العثمانى ، مما أوجد شعورا عاما بالسخط والخوف من ضياع كل

المكتسبات التاريخية التى حققها العثمانيون عبر تاريخهم العام القريب والبعيد ، وربما معها تاريخ الاسلام العربى وتراثة المجيد .. فى هذا الجو المفعم بالتوتر والقلق ومتاهات الحيرة على حاضر العالم العربى والاسلامي ومستقبله . نهض نفر صالح مجاهد من أبناء الامة الاماثل ، ملبين نداء الواجب ، للعمل على ايقاف هذا التدهور المتسارع والخطير فى كيان شخصية الدولة العثمانية واسسها من جهة ، والحيلولة دون تقديم تنازلات يطالب بها اعداء الامة ، قد ينجم عنها ملء الفراغ عند انحسار السلطة العثمانية عن الاراضى العربية من قبل هذه القوى المعادية للحق والتاريخ العربى والاسلامى ، من جهة اخرى . لذا وفى هذا السباق المحموم مع الزمن ، هب هذا النفر المؤمن الغيور ، مناديا باعادة ترتيب البيت الاسلامى وحماية وحدته ، برأب الصدع بين السلطة العثمانية ورعاياها من العرب والمسلمين من غير الاتراك العثمانيين ، فى عملية ترميم لجسور الثقة التى باتت شبه مقطوعة بين الطرفين .. لكن ضعف الدولة العثمانية الذى وصل الى حالة الانسان المريض الميئوس منه ، لم تستجب الى هذه المحاولات المخلصة والتى جاءت على ما يبدو متأخرة جدا عن موعدها ، وبعد ان فقد « الرجل الهرم » كل مقومات القدرة على الحركة والصراع من اجل البقاء . ومن المحزن ان رواد النهضة الاسلامية الحديثة لاقوا فى مسعاهم النبيل هذا ـ كما لاقى كل المصلحين الشرفاء فى كل الازمنة والعصور ـ من المنافقين والمنتفعين من كال لهم التهم الباطلة جزافا ، والتى أدت معظم الاحيان الى تشردهم ونفيهم عن أوطانهم ، مع الامعان فى ايذائهم ، وتسفيه لارائهم والتقليل من شأنهم ومن مواقفهم الشجاعة الحكيمة .. لذلك لا عجب ان نرى معظم رواد النهضة الاسلامية فى العصر الحديث قد ماتوا فى ظروف غامضة ، القى الشك ظلاله الكثيفه السوداء عليها ..!

هذا ما كان عليه حال هؤلاء الرجال ، وعزاؤنا فيهم انهم لن يكونوا أول المصلحين أو آخرهم . فتاريخنا الاسلامى يضيق على كثرة صفحاته بأمثال هؤلاء الفدائيين الذين جأروا بالحق امام الطغاة ، وقاموا بالثورات بهدف تصحيح المسار الاسلامى كلما انحرف عن جادة الصواب .. وكانت مواقفهم البطولية فى كثير من الاحيان بمثابة نقاط تحول تاريخية فى حياة امتهم الاسلامية ، مظهرين على الدوام ثقة لا حدود لها بروح الدين الاسلامى القوية وقدرتها على التجدد والاستمرار والبقاء . من وحي هذا كله ، ومن رحم الزمن الاسلامى النظيف ، جاءت منظومة المصلحين الافغانى ، وعبده ، والكواكبى ، ورضا ، كمقدمة طبيعية لارهاصات هذا الزمن ، صانع التاريخ



السلطان عبدالحميد



الشيخ محمد عبده

# محاولات الإصلاح وبعد أن فقد الرجل المريض

الاسلامى العظيم ، وقد تباينت ردود الفعل فى الخافقين ، حول مضمون دعوة هؤلاء المفكرين ، رواد نهضتنا الحديثة ، وهى الدعوة الهادفة اساسا لقيام نهضة اسلامية عارمة تأخذ بعين الاعتبار التطورات الهائلة التى شهدتها الساحة العالمية من حولنا ، ومن ثم التعامل مع هذه التطورات التى حملتها معها رياح المدنية الحديثة ، التى لفحت وجه الشرق بقوة ، على اسس ومقاييس اسلامية صحيحة ، تعرف كيف توظف النافع ، وكيف تلفظ الضار منها ... وقد اجمع عقلاء الامة وحكماؤها على ان هؤلاء الرجال عبروا بكل الصدق عن الفكر الاسلامى الاصيل ، وشكلت جهودهم لبنات اساسية فى حماية الصرح الاسلامى المتشامخ من السقوط فى امتحان مواجهة العصر الحديث ، عصر



الكــواكبي



الشيخ رشيد رضا

# جاءت متأخرة..
# القدرة على الحركة

التغيرات المذهلة السريعة ، والتحولات الهائلة فى نمط الحياة واساليبها بكل ابعادها والوانها .. وكان سلاح هؤلاء الرواد الاباء ـ فى مواجهة تلك التحديات المنذرة بشر مستطير، تبيته القوى الاستعمارية ، والذى كان يهدد حاضر امتهم ومستقبلها ـ هو سلاح الايمان وكلمة الحق منادين بصدق بالعودة الى ينابيع الاسلام الصافية ، رافعين نفس الراية التى رفع لواءها ابدا أئمة الفكر الاسلامى من رجال الدعوة السلفية والاصولية الاسلامية امثال ابن حنبل وابن تيمية .. الخ . وقد مضى السلف الأبرار يعبق ذكرهم تاركين بصماتهم عميقا فى تراثنا الاسلامى المضىء ، وعلى الطريق ذاته مضى أحفادهم الميامين يحملون أمانة الرسالة « فمنهم من قضى

نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا » ( الاحزاب : ٢٣ ) .

من كل ما تقدم رأينا أن من الوفاء لابقاء ذكرى هؤلاء الرواد حية لا تموت ، ان نقوم بعمل ـ نرجو ان يكون اضافة جديدة ـ يجمع شتات اعمالهم ، والاعمال التى كتبت عنهم بمختلف اللغات ، ويكون فى الوقت نفسه مقدمة ضرورية تشجع على فتح الباب على مصراعية للباحثين والمهتمين باعادة كتابة تاريخ هؤلاء الاعلام ، الذى يمثل بحق أهم حقبة من تاريخنا على وجه الاطلاق ، على أمل ان يتم تناول هذا التاريخ ، على نحو موضوعي ، منزه عن أى غرض او مقصد مادى ، او أهواء شخصية بهدف الوصول الى الحقيقة المجردة ، التى تعتبر من أهم مقومات البحث العلمى الجاد والرصين. ونتناول في هذه الحلقة أول هؤلاء وهو:

# جمال الدين الأفغاني

## ١٣٥٤ ـ ١٣١٥ هـ ـ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧ م

### أولا ـ حياته :

كان الأفغاني ومازال كأى علم بارز وشخصية كبيرة ، مثار جدل واسع فى جميع الأوساط العربية والاعجمية ، ولم تتفق هذه الأوساط حول شخصيته بقدر ما اختلفت عليها .. وسواء فى حياته او مماته ، تنازعت على نسبته اليها فئات ومذاهب وتيارات فكرية عديدة ، وانعكست حمى هذه الصراعات بالضرورة على الاعمال التى تناولت حياة الافغانى وسيرته من جميع جوانبها .. ومن بين هذه النزاعات الاختلاف المستفحل حول تحديد هوية المكان الذى شهد مسقط رأس الافغانى ، وربطه بمذهبه وعقيدته وأرائه ، لهذه الاسباب وغيرها جعلت بعض الروايات مكان ولادته مدينة أسعد اباد الافغانية القريبة من العاصمة كابل ، ويذهب البعض الآخر الى انها كانت قرية أسد اباد

الايرانية ..! وايا كانت درجة ثبات الصدق من عدمه فى هذه الروايات ، فان الافغانى كان وسيبقى ملكا لكل امته الاسلامية ، وهو بشمولية شخصيته الاسلامية ، وفهمه العميق ، ودرايته الواسعة بروح الدين الاسلامى وعالميته ، اكبر من ان تحتويه فئة دون فئة ، او مذهب دون مذهب . ويقول تلميذه الشيخ محمد عبده فى هذا السياق : « انى لو قلت ان ما اتاه الله من

قوة الذهن ، وسعة العقل ، ونفوذ البصيرة ، هو أقصى ما قدر لغير الانبياء لكنت غير مبالغ .. "(١)" « ويتفق مع هذا الرأى قول فضيلة الشيخ محمد الغزالى « لقد استجمع الافغانى كل ما يملك من مواهب واشتبك فى صراع مرير مع الحكام الذين اذلوا الشعوب ومع الشعوب التى ذلت للحكام ، وشرع يعرض حركة عقل ، واباء نفس ، ويبرز خصائص الحضارة الاسلامية بما حوت من فكر نضير ، وجرأة على الحياة وقدرة على التغيير .. ويضيف فضيلته قائلا : « كانت الشورى قد ماتت مبنى ومعنى ، وكان الاجتهاد قد توقف ، وامسى ذكريات بائدة ! وكانت الطاقة الروحية قد نفدت بين العامة والخاصة . وسقط المسلمون من أعين البشر جميعا ، وكان على جمال الدين الافغانى ومن التف حوله من الرجال ان يستأصلوا علل التخلف ، ويردوا الامة الى الصراط المستقيم . وبديهى ان تكون الجامعة الاسلامية اساسهم فلا تعصب لجنس ، وأن يكون العقل الاسلامى رائدهم او باعثهم فلا تعصب لمذهب أو رأى(٢)»

ولا غرو فى ذلك فتنشئة الافغانى الدينية ، ومحتده الاصيل ، كان لهما بالغ الاثر فى تكوين شخصيته واسس فكره الاسلامى الواسع ، ومن المؤلم ان ينطفىء هذا السراج الوهاج وعالمه الاسلامى - الذى اوقف حياته كلها مهموما بقضاياه - يعيش نفس الحالة من الفوضى والفرقة والتمزق والاخطار المحدقه به ، التى كان عليها عندما أبصر الافغانى نور الحياة .. ولا ادل على ذلك من ان بلاده الافغان والعالم الاسلامى معها وجدهما يواجهان - كالقطيع الذى اهمله الراعى - قطعان الذئاب البشرية من قوى الاستعمار المفترسة ، التى اخذت تنشب مخالبها فى جسد الولايات العربية العثمانية بخاصة ، والشرق بعامة هذا الى جانب سوء الطالع الذى صاحبه فى مراحل حياته المختلفة ، ولعل ابرز حدث فى مراحل حياته المبكرة يتجلى فى زوال نفوذ والده ( صفير ) ، الذى وقع ضحية ظروف وتقلبات سياسية لئيمة ، املت عليه السفر الى كابل ، والاقامة جبريا فيها بأمر من ملك الافغان . هذا بعد أن تمت مصادرة ممتلكاته ، وتقليص سلطاته الى أصغر حجم ممكن . هذه هي الاجواء المكفهرة التى عاش فى كنفها

---

( ١ ) انظر قدرى قلعجى ، ثلاثة من اعلام الحرية ، جمال الدين الافغانى ، محمد عبده ، سعد زغلول ، دار الكتاب العربى ( بيروت ، د . ت ) ص ٧ .

( ٢ ) محمد الغزالى ، الاستماع للطاعنين فى الافغانى ، هزيمة اسلامية شائنة ، فى الشرق الاوسط ، جريدة العرب الدولية ، من سلسلة ملفات الشرق الاوسط ، الحلقة ١ ، العدد ٣٧٦٣ ، ١٨ اذار ( مارس ) ١٩٨٩م = ١٤٠٩هـ ، ص ١٠ .

الافغانى طفولته المعذبة الحائرة .. وعلى الرغم من ذلك أجمعت المصادر على أن هذه النوازل والنكبات ، لم تفت فى عضد والده واصراره وحرصه على تنشئة ولده جمال ، وتربيته وتعليمه على نحو مشرف وخلاق ، فحشد ـ له وهو بعد صبيا فى الثامنة من عمره ـ اساتذة كابل الماهرين ، ليأخذ عنهم الاداب العربية ، وعلوم الشريعة ، والحكمة ، والمنطق ، ولما بلغ اشده فى الثانية عشرة من عمره ، انتقل به الى النجف ليضمه الى مدارسها الدينية ، لتمكينه من العلوم الاسلامية ، من تفسير ، وحديث ، وفقه ، وتوحيد ... الخ ، وذلك جنبا الى جنب مع دراسة العلوم الفلسفية ، والرياضية ، والطب والهيئة والنجوم .. وبعد اربع سنوات من تلقي العلوم الجادة المختلفة فى مدارس النجف ، اراد الافغانى ان يمتحن خبراته فى مواجهة الحياة العملية ، فقرر ـ وكان بعد فى ريعان الشباب ـ الذهاب فى اول رحلة بعيدة بمفردة الى الهند ، فاتحا بذلك سلسلة لا تنتهى من رحلات واسفار جال فيها الشرق والغرب .. ولم يطل المقام بالافغانى فى الهند ، فخواطره الثائرة ، وافكاره المتأججة ، وشغفه بعظائم الامور ، سرعان ما جعلته يبحر الى مكة المكرمة بقصد الحج ، فوصلها ( ١٢٧٤هـ = ١٨٥٧م ) . ثم ما لبث ان عاد ادراجه الى بلاده الافغان وصولا الى عاصمتها كابل ، لكنه وجدها كما تركها تمور بالغليان السياسى والصراع على السلطة بين امراء الافغان .. وتشاء الاقدار ان يلاحقه سوء الطالع مرة اخرى ، وذلك حين انحسم الصراع السياسي على النفوذ والحكم ، لصالح الخط المعادى له ولاسرته .. مما اضطره لاعداد العدة للسفر من البلاد متذرعا بالذهاب الى الحج ونيته مبيته للسفر إلى الهند فوصلها للمرة الثانية ( ١٢٥٨هـ = ١٨٦٨م ) ، فوجدها فرصة مواتية للتنفيس عما يجيش فى صدره من كراهية للاستعمار واعوانه ، فنشط يبذر فيها بذور الوطنية والثورة ويؤلب ابناءها للتمرد على مستعمريهم من الانجليز ، الامر الذى دفع سلطات الاحتلال البريطانى بالتعجيل فى طرده من البلاد بعد اقل من شهر من وصوله اليها .. فيمم الافغانى وجهه هذه المرة شطر الاستانة مارا بمصر لاول مرة ( ١٢٦٨هـ = ١٨٦٩م )، حيث استقبل عند وصوله اليها ـ فى بادىء الامر ـ استقبالا طيبا ، تم التعبير عنه بتعيينه عضوا فى مجلس المعارف الاعلى ، لكن هذا الشعور بالارتياح ما لبث ان اختفى ، تاركين للوشاة والحاسدين فرص الغدر والنهش فيه كيفما شاءوا ، فكانت المحصلة نفيه من الاستانة ، ( ١٢٨٨هـ = ١٨٧١م ) فعزم العودة الى الهند من حيث اتى ، لكن الاقدار ومشيئة الله تدخلت فى اللحظة المناسبة ! حيث غير رأيه عند وصوله الى مصر ، وقرر البقاء فيها ، مطمئنا لمؤشرات ايجابية كثيرة ، رأى امكانية استثمارها

لصالح القضايا الاسلامية ، ولمصلحة بعث تنظيم اسلامى سياسى قادر على متابعة الاهداف .. وصولا الى الامال المرجوة ، التى كرس الافغانى حياته من اجلها .. وعبر ثمان من السنوات كان فيها صانعا للاحداث والتاريخ اكثر منه مشاركا فيها أو متفرجا عليها من بعيد ، استطاع ان يحولها الى سنوات حافلة بالكفاح الوطنى نافخا من روحه الثورية وانتقاداته البناءة النارية ، فى روح النهضــة الاصــلاحيــة فى الــدين والسياسة ، منبها المصريين ـ على نحو مبكر ـ الى المخاطر المترتبة على التدخل الاجنبى فى شئون الوطن والتى لا تهدد فى النهـاية حـاضر مصر ومستقبلها وحدها ، بل هى مقدمة اشبه ما تكون بحصان طرواده ، فى عملية انقضاض غادر على الاقطار العربية والاسلامية الاخرى .

لقد كانت هذه السنوات الثمان التى عاشها الافغانى فى مصر بحق ، من أخصب سني حياته ، فاحتشد له من المؤيدين والانصار ، ما اهله فعلا للتدخل فى شئون البلاد بصورة مباشرة او غير مباشرة ، ويكفى ان عددا لا يستهان به من اعيان البلاد ورجالاتها من امثال الشيخ محمد عبده ، وسعد زغلول ، ومحمود سامي البارودى وغيرهم كثير كانوا من اخلص خلصائه ، وهم الذين اصبحوا فى وقت لاحق من ابرز قادة الاصلاح والتنوير والثورة ، ومن اعظم رجـالات مصر وصـانعي تـاريخهـا الحديث .. وجزءا لا يستهان به من تاريخ العرب الحديث والمعاصر !

وامام تعاظم شأن الافغانى وازدياد حضــوره فى حياة مصر الفكــريــة والسياسية ، أوغر انصار السكـون واعداء الحركة والتغيير صدر الخديوى توفيق وبطانته عليه ، وهو الذى قد تسلم حديثا حكم البلاد خلفا لوالده الخديوى اسماعيل ( ١٢٩٦هـ = ١٨٧٩م ) وذلك استجابة لمطالب الوطنيـين المنادين باصلاحات شاملة من شأنها انقاذ البلاد من ان تقع فريسة لتطاحن القوى الاستعمارية ، البريطانية والفرنسيـة بخاصة .. ازاء ذلك كله استشعـر الخديوى توفيق خطر الافغانى عليه وعلى اركان نظامه ، فاستصدر امرا فوريا بطرده من مصر ضاربا بعرض الحائط تعهدات سابقة كان قد قطعها على نفسه للافغانى وحزبه الوطنى الحر ، ليتسلم على اساسها الحكم خلفا لابيه اسماعيل الذى اغرق البلاد بالديون ، وغيب الاحرار فى السجون .. وهكذا وجد الافغانى نفسه ومعها آمالـه وآمال الاحرار معه ، تذبح على مقصلة اعداء الحرية والفكـر الاسلامى الملتـزم ، وتمكنت هذه القوى الغاشمة ان تزيل من طريقها أخطر عقبة تقف امام مخططاتها الجهنمية ..! ورحل الافغانى عن مصر يملؤه الحزن والاسى ، قاصدا الهند ليصلها بعد رحلة عذاب طويلة مضنية ، وليتخذ من مدينة بومباى مقرا لاقامته والتى امتـدت الى ثـلاث سـنوات

( ١٢٩٦هـ = ١٣٠٠ ) ١٨٧٩ - ١٨٨٣ ) حيث رحل عنها الى باريس ، بعد ان ضاق ذرعا بمضايقات المحتل الانجليزى ، وبعد ان اختمرت فى ذهنه فكرة تنشيط جمعية العروة الوثقى ، التي كان قد اسسها قبيل طرده من مصر - فى اوائل عهد الخديوى توفيق - للدعوة الى الجامعة الاسلامية ، وايقاظ الشرق من غفلته ، واماطة اللثام عن المخططات التى تحاك فى الظلام وتستهدف العالم الاسلامى وشعوبه .. ومن اجل هذه الغاية كتب من باريس الى رفيق دربه الشيخ محمد عبده ، الذى كان منفيا عندئذ فى بيروت ، يطلب منه موافاته الى باريس ، ليشاركه فى اصدار جريدة العروة الوثقى من هناك ، لتكون لسان حال الجمعية ومنبرها الحر . وبعد اعداد مضن والقفز من فوق عراقيل صعبة صدر منها ١٨ عددا ، زلزلت الارض تحت اقدام اعداء الامة واعوانهم ، وراحت القوى المضادة لحركة التاريخ العربى الاسلامى ، تعمل بكل الاساليب الملتوية ، لاغتيال العروة والاجهاز عليها .

وبعد ان توقفت العروة الوثقى عن الصدور ، لم يتوقف معها نشاط الافغانى ، الذى ظل يتنقل بين باريس ولندن حاملا معه هموم بلاده وامته ، وبعد ان وصل فى النهاية الى طريق مسدود ، قرر العودة الى الشرق واستئناف كفاحه ورسالته من هناك ، فاختار ايران بعد ان تلقى من الشاه ناصر الدين وعودا بتحقيق رغباته النزيهة فى التجديد والاصلاح .. لكن سرعان ما صدم بعد وصوله بالقوى ذاتها التى تضمر العداء لفكرة التغيير ومبدأ الاصلاح ، وكانت النتيجة ان البوا عليه الشاه ناصر الذى غير من اسلوب معاملته مع الافغانى ، مما اضطر جمال الدين للعودة الى اوربا ، لكن الشاه عاد واسترضاه مرة اخرى ، مؤكدا له هذه المرة بشكل قاطع نيته على تنفيذ ما اتفقا عليه من اصلاحات ، وانه سيطلق يده ( اى الافغانى ) فى ادارة دفة الحكم ، ومعالجة الامور على النحو الذى يراه فى مصلحة البلاد والعباد .. لكن هذه الوعود لم تكن اكثر من فقاعات فى الهواء ، فعند عودة الافغانى للمرة الثانية ، واجه نفس الاسلوب ، لكن هذه المرة كان اقسى واشد اذ أمر الشاه بطرد الافغانى من البلاد ، على نحو مهين وبالغ الاذى ، ليلقى به على الحدود مع العراق ، حيث وصل عاصمتها بغداد منهك القوى .. وليمكث فيها ثلاثة شهور ، قرر بعدها العودة الى لندن ليصلها فى خريف ، ١٨٩١م ( ١٣٠٩ ) ، حيث أخذ من هناك يشن حملة جبارة عاتية ومركزة ، اقلقت الشاه ناصر الدين وهزت نظامه ، فاستنجد الشاه بالسلطان عبدالحميد الثانى ، سائلا اياه دعوة الافغانى لزيارة الاستانة ، فى محاولة ، ترمى لاقناعه بالكف عن التعرض له ولنظام حكمه ، ونزولا على رغبة الشاه ناصر ، وجه

عبدالحميد دعوة للافغانى لزيارة الاستانة لتحظى بقبوله ، وليصل الاستانة فى اواخر عام ١٣١٠هـ (١٨٩٢م) ، ولتكون أخر محطة له فى حياته ، حيث بقى فيها حتى مات ، ومن سخريات القدر ، انه بعد مرور خمس سنوات على طرد الافغانى من ايران ، اقدم شاب متحمس ـ من مريدى الافغانى ، يدعى الميرزا محمد رضا الكرمانى ـ على اغتيال الشاه ناصر الدين بعدة رصاصات من مسدسه فارداه قتيلا ، وعلى الفور حاولت الحكومة الإيرانية الصاق تهمة قتل الشاه بالافغانى ، وطالبت الحكومة العثمانية تسليمها اياه ، باعتباره المحرض الرئيسى على قتله ، الا ان الحكومة العثمانية رفضت الاذعان لطلب الحكومة الايرانية ، لكنها فى نفس الوقت ضيقت الخناق على جمال الدين الافغانى ، وحدت من تحركاته ، وجاءت هذه الاحداث متزامنه مع ظهور اعراض مرض عضال فى فك الافغانى ، حار فيه الاطباء ، واشيع انه السرطان ، وبعد صراع مرير مع المرض لم يقو على مقاومته فاضت روحه الى بارئها ، ( يوم الثلاثاء ٥ شوال ١٣١٥هـ = ٩ مارس ( اذار ١٨٩٧م ) ودفن فى الاستانة ، الا ان رفاته نقلت فى وقت لاحق وبالتحديد سنة ١٣٦٤هـ ( ١٩٤٤م ) الى مسقط رأسه فى بلاد الافغان ، وذلك فى احتفال مهيب يليق بتخليد ذكراه ، ووفاء لمجاهد أمين نذر نفسه حتى الرمق الاخير ، لخدمة بلاده وامته ، رحم الله جمال الدين الافغانى ، وجزاه خيرا لقاء ما قدمه لعالمه الاسلامى من جهود فذه محمودة ، وما بذله فى سبيله من تضحيات جسام .

## ثانيا : أعماله

معظم الاعمال التى كتبها الافغانى بنفسه ، او التى أملاها على تلامذته ومريديه ، أو تلك التى نشرت فى كبريات الصحف ومجلات ذلك العصر ودورياته ، مثل جريدة العروة الوثقى ، وجريدة البصير ، وجريدة أبو نظارة زرقاء (٣) ، وجريدة (٤) Levant Times of Istanbul ، وغيرها كثير ، قد جمعها باقتدار الاستاذ الدكتور محمد عماره فى « الاعمال الكاملة لجمال الدين الافغانى » ،

(٣) جريدتى « العروة » و « البصير » كانتا من الصحافة المهاجرة فى فرنسا وقد صدرتا من باريس ، اما الاخيرة ، ابو نظارة زرقاء ، فقد اصدرها يعقوب صنوع سنة ١٨٧٧ فى القاهرة ، وكانت اول صحيفة كاريكاتورية سياسية ساخرة فى الشرق العربى ، وقد جاء ذكر هذه الدوريات وغيرها أكثر من مرة ، هنا وهناك داخل الدراسة ( انظر مكانها فى الفهارس ) .

(٤) من الصحف التركية المعروفة التى كانت تصدر فى استانبول باللغة الانجليزية .

اصدار المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ( بيروت ١٣٩٩ ـ ١٤٠١هـ = ١٩٧٩ ـ ١٩٨١م . وكذلك تجد المزيد من المعلومات الجامعة المختصرة لحياة الافغانى، فى كتاب الاستاذ يوسف اسعد داغر ، « مصادر الدراسة الادبية » ، ( بيروت ١٣٧٦ ـ ١٣٩٢هـ = ١٩٥٦ ـ ١٩٧٢م ) ( انظر هنا ج ٢ ، ص ١٢٦ ـ ١٣١ ) ، كذلك انظر الدراسة العلمية الجادة ، والتعريف الوافى والسرد النقدى للكتب ذات الصلة الوثيقة بالموضوع والتى تتناول حياة جمال الدين الافغانى من جميع جوانبها ، فى .

A. Albert Kudsi Zada, Sayyid Jama;l Al-Din Al-Afgha;ni: An annoted Bibliography, (Leiden, 1970).

وسنكتفى هنا بالاشارة الى الاعمال التى اكدت صحة نسبها للافغانى المصادر الموثوقة والمراجع العلمية المعول عليها .

## الكتب :

- رسالة الواردات وسر التجليات ، ( القاهرة ١٢٩١هـ = ١٨٧٤م ) ، انظر محمد عمارة ، الافغانى ، ج ١ ، ص ١٧٦ ـ ١٧٧ ولنفس المؤلف ، الامام عبده ، ج : ١ ، ص ٢٠٦ ـ ٢٠٨ .
- حاشية على شرح الديوانى للعقائد العضدية ، ( القاهرة ١٢٩٣هـ = ١٨٧٦م ) ، انظر عمارة ، الافغانى ، ج . ١ ، ص ١٥٥ ـ ١٥٦ ، ولنفس المؤلف ايضا عبده ، ج ، ١ ، ص ٢٠٩ ـ ٢١٩ .
- مقالات جمالية ، باشراف محمد شاهباز ، ( كلكوتا ١٣٠٢هـ = ١٨٨٤م ) ، انظر كذلك طبعة طهران ( مقالات جمالية ) باشراف صفات الله الاسد أبادى ( طهران ١٣٥٢هـ = ١٩٣٣م )
- رسالة الرد على الدهريين ، نقلها عن الفارسية الشيخ محمد عبده ( بيروت ١٣٠٤هـ = ١٨٨٦م ) ، وترجمت كذلك للغتين الانجليزية والفرنسية ( راجع اعماله المترجمة ) وقام بتحقيقها حديثا محمود ابو رية ، مطبوعات الكرنك ـ ١ مكتبة العقائد ـ ( القاهرة د . ت ) .
- تتمات البيان فى تاريخ الافغان ، ( القاهرة ١٣١٩هـ = ١٠٩١م ) انظر ايضا جريدة المقتطف ، القاهرة ، مجلد ٢٦ ، رقم ١,٤ نيسان ( ابريل ) ، ١٩٠١م = ١٣١٩هـ ، ص ٣٧٢ .
- منتخبات من جريدة العروة الوثقى ، ( القدس ١٣٢٢هـ = ١٩٠٤م ) .
- بالاشتراك مع محمد عبده، العروة الوثقى ، اعيد طبعها عدة مرات فى القاهرة وبيروت ، من ١٣٢٨هـ ١٩١٠م الى سنة ١٣٩٠هـ = ١٩٧٠م ، آخرها طبعة

دار الكتاب العربى ( بيروت ١٣٩٠هـ = ١٩٧٠م ) . للمزيد ( انظر مكانها فى الفهارس ) .
- الوحدة الاسلامية ، ( القاهرة ١٣٥٢هـ = ١٩٣٣م ) .
- القضاء والقدر ( القاهرة ١٣٥٣هـ = ١٩٣٤م ) .
- الوحدة الاسلامية والوحدة والسيادة ، ( القاهرة ١٣٥٧هـ = ١٩٣٨م ) .
- اراء ومعتقدات سيد جمال الدين افغانى ، باشراف مرتضى شاهارد يهى ، ( طهران ١٣٧٧هـ = ١٩٥٨م ) .
- مجموعة اسناد ومدارك جاب نشده : درباره ، سيد جمال الدين ، مشهور به افغانى ، جمع وترتيب أورى ، اشراف وتحرير : ايراج افشار واصغر مهدوى ( طهران ١٣٨٣هـ = ١٩٦٣م ) .

## المقالات :

- « حقيقة الانسان وحقيقة الوطن » فى جريدة مصر ، مجلد ١ ، الاعداد ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ( القاهرة ١٢٩٦هـ = ١٨٧٨م ) .
- « الحكومة الاستبدادية » فى جريدة مصر ، مجلد ٢ ، رقم ٣٣ ( القاهرة ١٢٩٧هـ = ١٨٧٩م ) ، اعيد طبعها فى مجلة المنار المجلد ٣ ( القاهرة ١٣١٨هـ = ١٩٠٠م ) ص ٥٧٧ - ٥٨٨ و ٦٠١ - ٦٠٧ .
- « منافع الوفاق ومضار الشقاق » فى جريدة البصير ، العدد ٧٧ ، ٦ نيسان ( ابريل ) ١٨٨٣م = ١٣٠١هـ ( باريس ) .
- « المسألة الهندية » فى جريدة الاهرام ، عدد آب ( اغسطس ) ، ( القاهرة ١٨٨٥م = ١٣٠٣هـ ) . انظر ايضا عمارة ، افغانى ، ج ١ ص ١٥٤ .
- « الشرق والشرقيون » فى مجلة ابو نظارة زرقاء ( باريس ١٣٠١ هـ = ١٨٨٣م ) اعيد طبعها فى المنار ( القاهرة ) ، المجلد ٢٥ ، ص ٥٣٥ - ٥٣٩ .
- « ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب والقى السمع وهو شهيد » فى المنار ( القاهرة ) المجلد ٢ ، ص ١٤ - ٢٢ ، منقولة عن جريدة العروة الوثقى .
- « العلماء وسلطات الحاكم المتسبد » ، فى المنار ، ( القاهرة ) ، المجلد ٩ ، ص ٩٠٥ - ٩٠٦ ، منقولة عن جريدة العروة الوثقى .
- « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » ، فى المنار ( القاهرة ) مجلد ١٤ ، ص ٢٨ - ٣٢ منقولة عن العروة الوثقى .
- « السياسة الانجليزية فى الممالك الشرقية واسباب الحرب بمصر » فى المنار ، ( القاهرة ) المجلد ٢٥ ، ص

٧٥٦ ـ ٧٦٠ ، منقولة عن مجلة النحلة ، (٥) العدد٣ ، السنة الخامسة ( لندن ) .

ـ « كتاب له ( الافغانى ) فى الدفاع عن الدولة العثمانية » ، فى المنار ( القاهرة ) المجلد ٢٦ ، ص ٤٤ ـ ٤٧ .

## Translations:

Al-Afghānī's personal books and papers, Documents inédits concernant Seyyed Jamāl-al-Dîn Afghānî (Majmū eh-yi asnad va madarik-i chāp nashudeh dār bāreh-yi Sayyid Jamal ad-Dîn mashhur bi Afghāni), ed. by Afshār, Iraj, and Asghar, Mahdavî, (Tehran, 1963).

Al-Hukūma al-Istibdādiyya', in Misr Newspaper, Cairo, ii. 33, 15 Feb., (1879); reprinted in Al-Manār, iii. 14 Nov., (1900), pp. 601-607, Eng. trans. 'Al-Afghānî on Types of Despotic Government', by L.M. Kenny, in Journal of the American Oriental Society, 86, i. (1966), pp. 19-27.

Al-Makhzūmî's Khātirāt Jamāl al-Dîn al-Afghānî, Persian trans. by M.M. Chahardihi, (Tabriz, 1328/1950).

'Philosophie de l'Union nationale basée sur la race et l'Unité linguistique', trans. M. Hendessi, in Orient, No. 6, (1958), pp. 123-128.

'Pages choises de Djamal al-Dîn al-Afghānî: La Nationalité

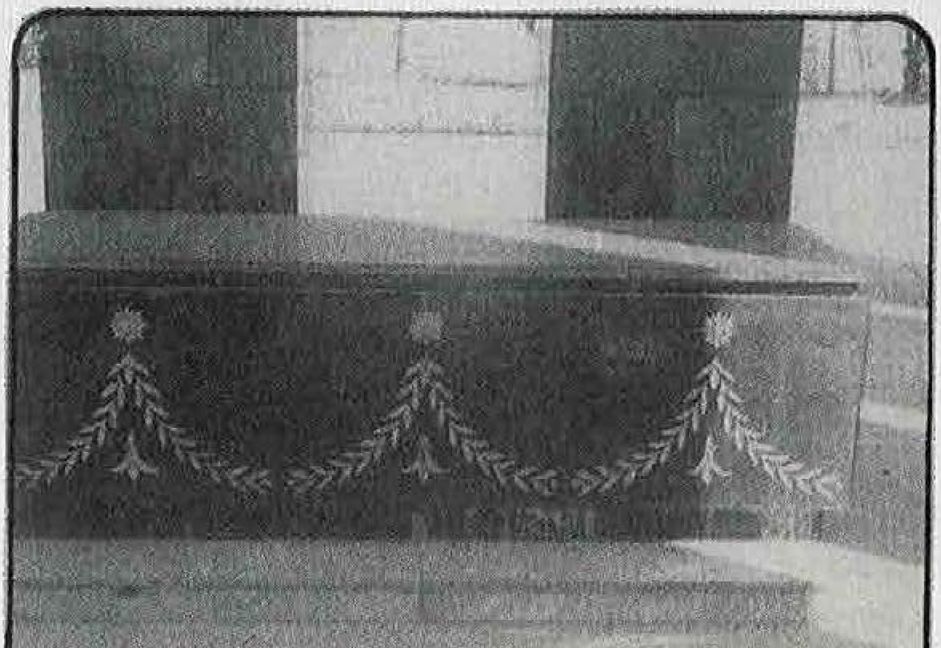
et la religion musulmané', trans. M. Colombe (from Al-'Urwah al-Wuthqā, No. 2, Mar. 20, 1884), Orient, No. 22, (1962), pp. 125-130. Also Orient, No. 21, (1962), pp. 87-115; 22 (1962), 125-159; 23 (1962), 169-198; 24 (1962), 169-198; 24 (1962), 125-151; and 25 (1963), 141-152.

( ٥ ) صدرت مجلة النحلة اولا ببيروت . لصاحبها لويس صابونجى ، واستمرت اربعة اعوام ١٨٧٧ ـ ١٨٨١ . ثم انتقل بها الى لندن لاسباب شخصية وسياسية ! للمزيد انظر الزركلى ، الاعلام ، ج . ٥ ، ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨ . ( طبعة دار العلم للملايين ) بيروت .

Al-Radd ʿalā al-Dahriyyîn, trans. from Persian by Muhammad ʿAbduh, (Beirut, 1886). Reprinted since successively in Cairo and Beirut from 1849 to 1955.

Al-Radd ʿalā al-Dahriyyîn, Fr. trans. Réfutation des Matérialists, by A.M. Goichon, in de l'Orient, vol. xi, (Paris, 1942). Includes Afghānî's comment on Renan's Lecture, from Journal des Débats, May 18, (1883).

Al-Radd ʿalā al-Dahriyyîn, Eng. trans. The Refutation of Materialists, from the original Persian, by N.R. Keddie and Hamid Algar, in Keddie's An Islamic Response to Imperialism, pp. 73-187, see also pp. 191-200.



● ضريح الافغاني بكابول ●

# دراسات عن جمال الدين الأفغاني بالعربية

( أ ) **الكتب** :

- **أحمد أمين** : زعماء الاصلاح فى العصر الحديث ، ط ٤ ( القاهرة ١٤٠٠ هـ = ١٩٧٩ ) خصوصا الصفحات ٦٣ ـ ١٢٨ .
- : فيض الخاطر ، فى ٧ اجزاء ، انظر هنا المجلدين الرابع ، ص ٢١٦ ، والخامس ، ص ٢٤٣ ـ ٣٠٠ .
- **سعيد الافغانى** : نابغة الشرق السيد جمال الدين الافغانى ، ( القاهرة ١٣٨٦هـ = ١٩٦٧م ) .
- **عباس محمود العقاد** : على الاثير ، ( القاهرة ١٣٧٧هـ = ١٩٥٧م ).
- **عبدالباسط حسن** : جمال الدين الافغانى ، واثره فى العالم الاسلامى الحديث ، ( القاهرة ١٤٠٣هـ = ١٩٨٢م ) .
- **عبدالرحمن الرافعى** : جمال الدين الافغانى باعث نهضة الشرق ، دار الكتاب العربى ، سلسلة اعلام العرب ، رقم ٦١ ، ( القاهرة ١٣٨٧هـ = ١٩٦٧م ) .
- **عبدالستار الهوارى** : جمال الدين الافغانى ، ( القاهرة ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م ) .
- **عبدالقادر المغربى** : البينات ، مجلدان ، ( القاهرة ١٣٤٤هـ = ١٩٢٥م ) .

« « جمال الدين الافغانى ، ذكريات واحاديث ، ( القاهرة ١٣٦١ ـ ١٣٦٨هـ = ١٩٤٢ ـ ١٩٤٨م ) ، طبعة جديدة ( ١٣٨٧هـ = ١٩٦٧م ) .

- **عبدالمحسن القصاب** : ذكرى الافغانى فى العراق ، ( بغداد ١٣٦٥هـ = ١٩٤٥ ) .
- **عبدالمنعم حسين** : جمال الدين الاسد آبادى ، المعروف بالافغانى ، ( بيروت ١٣٩٣هـ = ١٩٧٣م ) .
- **عثمان امين** : اعلام النهضة الحديثة ، جمال الدين الافغانى ، ( القاهرة ، د ، ت )

« « رواد الوعى الانسانى فى الشرق الاسلامى ، ( القاهرة ١٣٨١هـ = ١٩٦١م ) .

- **علي شلش** : الافغاني وتلاميذه ، وثائق مجهولة المركز العربي للاعلام والنشر ، القاهرة ، ١٩٨٩ . ( تحقيق ودراسه ) .

- **عمر دسوقي** : فى الادب الحديث ، مجلدان ( القاهرة ١٣٦١هـ = ١٩٤٢م ) ، انظر هنا المجلد الاول ، ص ٢١٩ ـ ٢٣٧ .

- **فتحي الرملى** : البركان الثائر ، جمال الدين الافغانى ، ( القاهرة ١٣٨٦هـ = ١٩٦٦م ) .

- **فهد الرومى** : منهج المدرسة العقلية الحديثة فى التفسير ، مؤسسة الرسالة ( بيروت ١٤٠١هـ = ١٩٨١م ) انظر هنا ٧٣ ـ ١٢٣ .

- **قدرى حافظ طوقان** : جمال الدين الافغانى ، اراؤه وكفاحه واثاره فى نهضة الشرق ، ( القدس ١٣٦٧هـ = ١٩٤٧م ) .

- **قدرى قلعجى** : جمال الدين الافغانى ، حكيم الشرق ، ( بيروت ١٣٦٧هـ = ١٩٤٧ ) .

- : ثلاثة من اعلام الحرية ، جمال الدين الافغانى ، محمد عبده ، سعد زغلول ، ( بيروت د . ت ) .

- **محسن الامين** : جمال الدين الافغانى ، ( بيروت ، د . ت ) .

- **محسن عبدالحميد** : جمال الدين الافغانى ، المصلح المفترى عليه ، مؤسسة الرسالة ، ( بيروت ١٤٠٤هـ = ١٩٨٣م ) .

- **محمد ابو زيد** : جمال الدين الافغانى ، ( القاهرة ١٣٨١هـ = ١٩٦١م ) .

- **محمد رشيد رضا** : تاريخ الاستاذ الامام محمد عبده ، ٣ مجلدات ، القاهرة ( ١٣٥٠هـ = ١٩٣١م ) .

- **محمد سلام مدكور** : جمال الدين الافغانى ، باعث النهضة الفكرية فى الشرق ، ( القاهرة ١٣٥٦هـ = ١٩٣٧م ) .

- : الحكيم الثائر جمال الدين الافغانى ، ط ٢ ( القاهرة ١٣٨٢هـ = ١٩٦٢م ) .

- **محمد عبدالحميد** : نابغة الشرق السيد جمال الدين الافغانى ، ( القاهرة ١٣٨٥هـ = ١٩٦٥م ) .

- **محمد عبدالفتاح** : اشهر مشاهير الشرق ( القاهرة د . ت ) .

- **محمد عمارة** : جمال الدين الافغانى ، الاعمال الكاملة ، فى مجلدين ، ( بيروت ١٤٠٠ ـ ١٤٠٢هـ = ١٩٧٩ ـ ١٩٨١م ) .

- **محمد فهمى عبداللطيف** : جمال الدين الافغانى والوحدة الاسلامية ( بيروت د . ت ) .

- **محمد المخزومى ( باشا )** : خاطرات

جمال الدين الافغاني ، ( بيروت ١٣٥٠هـ = ١٩٣١م ) اعيد طبعها مرارا ، ( احدث طبعة ١٤٠١هـ = ١٩٨٠م ) .

ـ **محمود ابو ريا** : جمال الدين الافغاني : تاريخه ورسالته ، ( القاهرة ١٣٧٨هـ = ١٩٥٨م ) .

ـ : جمال الدين الافغاني ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م ، من سلسلة نوابع الفكر العربي رقم ٢٩ ، دار المعارف ( القاهرة ١٣٩١هـ = ١٩٧١م ) .

ـ **محمود قاسم** : جمال الدين الافغاني ، حياته وفلسفته ، ( القاهرة ، ١٣٧٦هـ = ١٩٥٦م ) .

ـ **ميرزا لطف الله خان** : «حقيقة جمال الدين الافغاني» في مجلدين الفه اصلا بالفارسيه « ابن اخت جمال الدين الافغاني » ترجمه وقدم له وعلق عليه عبدالنعيم حسنين ، دار الوفاء للطباعة والنشر ، ( المنصورة ، مصر ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م ) .

ـ : جمال الدين الاسد أبادي « ترجمة وتعليق صادق نشأت وعبدالنعيم حسنين ، ( القاهرة ١٣٧٦هـ = ١٩٥٧م ) .

ـ **يوسف أسعد داغر** : « مصادر الدراسة الادبية » في ٤ مجلدات ، ( بيروت ١٣٧٦ ـ ١٣٩٢هـ = ١٩٥٦ ـ ١٩٧٢م ) انظر خصوصا المجلد الثاني ، ص ١٢٦ ـ ١٣١ .

## ( ب ) المقالات :

ـ **ابراهيم اليازجي** « جمال الدين الافغاني » في البيان ، ( بيروت ) عدد اذار ( مارس ١٢٩٧هـ = ١٨٧٩م ) ، اعيد طبعها في مجلة الاصلاح ( الارجنتين ) مجلد ( ١٩٣٢ ) ص ٣٥٤ .

ـ **احمد امين** : « جمال الدين الافغاني » في الثقافة ، ( القاهرة ) عدد ٢٦٤ ( ١٩٤٤ ) ص ٩ ـ ١٢ العدد ٢٦٥ ، ص ٦ ١٠ ، والعدد ٢٦٦ ، ص ٧ ـ ١١ ، والعدد ٢٦٧ ، ص ١ ـ ٥ ، والعدد ٢٦٨ ، ص ، ٥ ـ ١٠ ، والعدد ٢٦٩ ، ص ٤ ـ ١٩ .

ـ **احمد الدرديري** : السيد جمال الدين الافغاني ، في الهلال ، ٤٢ ( القاهرة ) ص ٥٣ .

ـ **انور الجندي** : « مجالس جمال الدين الافغاني » في العربي ، العدد ١٥٧ ك ( ديسمبر ) ١٣٩١هـ = ١٩٧١م ) ، ص ١٥٨ وما بعدها .

ـ **في البيان ( مجلة )** : « السيد جمال الدين الافغاني » ، مجلد ١ ( بيروت ١٣١٥هـ = ١٨٩٧م ) ، ص ٧٨ ـ ٨٧ .

ـ **في الثقافة ( مجلة )** : جمال الدين الافغاني ، وشكيب ارسلان ، مجلد ١ ، ( دمشق ) ص ٣٣٧ .

ـ **جرجي زيدان** : السيد جمال الدين الافغاني ، في الهلال ، مجلد ٥ ، ( القاهرة ١٣٥١هـ = ١٨٩٧م ) ص ٥٦٢ ـ ٥٧١ .

ـ **جمال الدين الرمدي** : « صور البطولة عند جمال الدين الافغاني » في الثقافة ، العدد ٧٢٢ ( القاهرة ١٣٧٥هـ = ١٩٥٥م ) ص ١٢ ـ ١٣ .

ـ **في الرسالة الاسلامية ( مجلة )** : « تحقيق حول علاقة الافغاني بالماسونية » بحث منشور بالعددين ٦٢ ، ٩٣ . ( بغداد ) .

ـ : « شبهات حول الافغاني » سلسلة ابحاث منشورة في اعداد السنة ١٣٩٨هـ = ١٩٧٨م ( بغداد ) .

ـ **رمضان لاوند** : « جمال الدين الافغاني ، باعث ثورة لا صانع فلسفة » في الطريق الاعداد ٣ ـ ٩ ( بيروت ١٣٧٤هـ = ١٩٥٤م )، ص ١٧و٩ .

ـ **السيد الحسيني** : « كتاب السيد جمال الدين الافغاني للميرزا الشيرازي » في مجلة العرفان ، مجلد ٣ ، ( صيدا ـ لبنان ) ص ١٢٤ .

ـ **شبلي الشميلي** : « جمال الدين الافغاني » ، في الزهور ، العدد ٣ ، ( القاهرة ) ص ٤١١ ـ ٤١٢ .

ـ **صالح شهرستاني** : « صفحة مطوية عن المرحوم السيد جمال الدين الاسد أبادي الشهير بالافغاني » في العرفان مجلد ١٤ ، ( صيدا ـ لبنان ) ص ٥٨ ـ ٦٨ .

ـ **عباس محمود العقاد** : جمال الدين الافغاني وقضية السودان » ، في مجلة الدستور ، عدد ك ١ ( ديسمبر ) ( القاهرة ١٣٧١هـ = ١٩٥١م ) .

ـ **عبدالحميد الكاتب** : «جمال الدين الافغاني ، الحسيني منقذ الشرق وحكيمه» في الثقافة ، العدد ٤١ ( القاهرة ) ص ١٢ .

ـ **عبدالرشيد ابراهيم** : السيد جمال الدين الافغاني في مجلة الشباب المسلمون مجلد ٥ ، فبراير ( شباط ) القاهرة ١٤٠١هـ = ١٩٨١م ) ص ٣٥٨ ـ ٣٦٥ .

ـ **عبدالقادر المغربي** : جمال الدين الافغاني ، ام الايراني ؟ في المؤيد ، ( القاهرة ١٣٢٧هـ = ١٩٠٩م ) اعاد طبعها في كتابه البينات ( في مجلدين ) ( القاهرة ١٣٤٤هـ = ١٩٢٥م ) ص ١٥ ـ ١٥٧ .

ـ **عبدالكريم الدجيلي** : ذكرى سيد جمال الدين في الرسالة ، العدد ١١ ، ( القاهرة ) ، ص ٤٦٠ .

ـ : السيد جمال الدين كما اعرفه ، في الرأي العام ، العدد ١١٧٥ ( بغداد ١٣٦٤هـ =١٩٤٤م ) .

ـ **عبداللطيف الثنيان** : « حول جمال

الدين الافغانى » فى الثقافة ، العدد ٢٢ ، ( القاهرة ) .

- **عبدالمنعم حمادة** : جمال الدين الافغاني نبذة من حياته ، فى الثقافة ، مجلد ١ ، العدد ١٣ ( القاهرة ) ص ٢٠ .

- : «جمال الدين الافغانى ومحمد عبده » ، فى الثقافة ، المجلد ٣ ، العدد ١١٦ ( القاهرة ) ، ص ٣٦٦ .

- **عثمان امين** : « رسالة جمال الدين الافغانى ، فى العرفان ، العدد ٣ ، ( صيدا - لبنان ) ( ١٣٧٠هـ = ١٩٥٠م ) ص ٦ - ١٢ .

- **عثمان أمين** : « عبقرية جمال الدين الافغاني » في العربي ، العدد ٧٩ ( الكويت ١٣٨٥هـ = ١٩٦٥م ) ص . ٥٥ - ١٦٣ .

- : « الافغانى والتجديد الاسلامى » فى الفكر الاسلامى ، العدد ٥ ، ( بيروت ١٣٩٣هـ = ١٩٧٣م ) ص ، ٣٥ - ٤٤ .

- **فرح انطون** : « فلسفة جمال الدين الافغانى » فى الجامعة ، المجلد ٥ ( القاهرة ، نيويورك ١٣٢٤هـ = ١٩٠٦ م) صفحة ٢٤٠ - ٢٤٨ .

- **قدرى قلعجى** : « جمال الدين الافغانى » فى الطريق العدد ٤ ، ( بيروت ) ص ١٨

- **محمد امان صافى** : المصلح جمال الدين الافغانى ، وحقيقة فكره وموطنة فى جريدة الشرق الاوسط ، العدد ٣٨٣٧ ، ٣١ آيار ( مايو ١٩٨٩م ١٤٠٩هـ ص ١٢ .

- **محمد حميد الله** : « صلات آرنست رينان [٦] بجمال الدين الافغانى » فى الفكر الاسلامى ، العدد ٢ ، ( بيروت ١٣٩١ هـ = ١٩٧١م ) ص ٦٤ - ٧٤ .

- **محمد رشيد رضا** : « النهضة الاسلامية فى مصر » فى المنار ، مجلد ١ ، ( القاهرة ) ص ٢٤١ .

- : « الانقلاب العثمانى » فى المنار ، مجلد ١١ ، ( القاهرة) ص ٨٤٩ .

- : « جمود الازهر ودعوة حكيمى الشرق الى الاجتهاد والاصلاح »، فى المنار ، مجلد ٢٢ ، ( القاهرة ) ص ٦٧٥ .

- : «التجديد الاسلامى دعوة الحكيمين والافغانى والمصرى» فى المنار ، والمجلد ٣٢ ، ( القاهرة ) ص ٢٠٦ .

**محمد عاكف أفندى** : « الشيخ جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده » فى المنار المجلد ١٣ ( القاهرة ١٣٢٨هـ = ١٩١٠م )، ص ٧٠٩ - ٧١٢ .

- **محمد عبده ( الشيخ )** : « ترجمة جمال الدين الافغانى » فى التقديم لكتاب

---

(٦) ارنست رينان ( (A·Renan) ( ١٨٢٣ - ١٨٩٢ ) كاتب وعالم أثرى فرنسى .

جمال الدين الافغانى ، رسالة الرد على الدهريين ، اعيد طبعها فى محمد عمارة ، الاعمال الكاملة للامام محمد عبده المجلد ١ ، ص ٣٤٤ ـ ٣٥٥ . كذلك فى مجلة

الجامعة لصاحبها ورئيس تحريرها فرح انطون ، المجلد ٥ (أب) اغسطس ، ( القاهرة ، نيويورك ١٣٢٤هـ = ١٩٠٦م ) ص ١٢٢ ـ ١٢٩ .

ـ **محمد عماره** : « العروة الوثقى : لمناسبة مرور مائة سنة على ذكرى الافغانى ، ( ١٣١٥هـ = ١٨٩٧م )» فى مجلة الكويت ، العدد ١ اكتوبر ( ت ١ ) ( الكويت ١٩٨٠م ـ ١٤٠١هـ ) ص ٧٧ ـ ٨٤ . انظر ايضا العدد ٢ ، ( ت ٢ ) ( نوفمبر ) ، ص ٩٢ ـ ٩٩ ، والعدد ٣ ، (ك ١) (ديسمبر ) ( ١٩٨٠م = ١٤٠١هـ ) ، ص ١٠٩ ـ ١١٣ .

ـ **محمد عنان** : جمال الدين الافغانى ، وجمهورية الشورى ، فى مجلة القدس ، العدد ٥ ( بيروت ١٤٠١هـ ١٩٨٠م ) .

ـ **محمد غالب**: السيد جمال الدين الافغانى فى الازهر ، المجلد ٣٠ ، ( القاهرة ١٣٧٣هـ = ١٩٥٣م ) ص . ٣٣٣ ـ ٣٣٨ .

ـ **محمد فهمى عبداللطيف** : « ذكرى باعث الشرق ، فى الرسالة ، العدد ٧٠٦ ( القاهرة ١٣٦٧هـ = ١٩٤٧م ) .

ـ **محمد لطفى جمعه** : « ثلاثة رجال : الافغانى ، الكواكبى ، الثعالبى فى

الحديث ، مجلد ٢ ( حلب ) ، ص ٦٥٠ ـ ٦٥٤ .

ـ **محمود ابو ريا** : « حول ذكرى السيد جمال الدين الافغانى » فى الرسالة . العدد ١١ ( القاهرة ) ص ٢٣٩ .

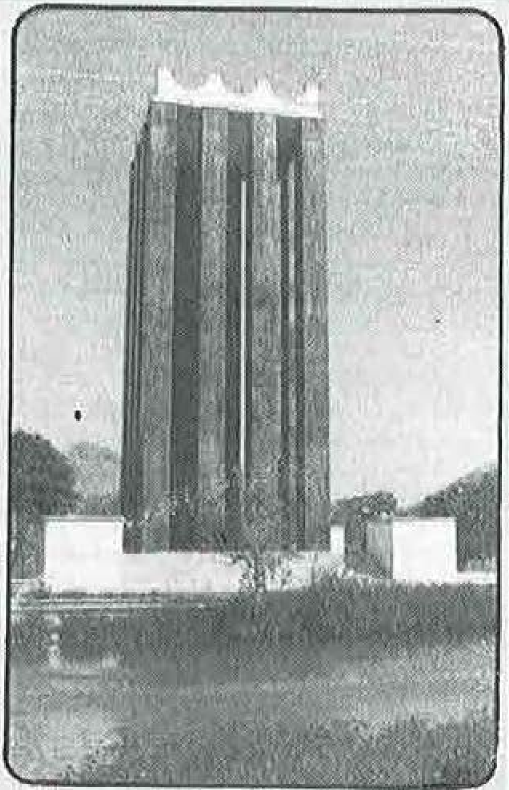
ـ **محمود الشرقاوى ( شيخ )** : ذكرى مرور خمسين سنة على وفاة الشيخ جمال الدين الافغانى مصلح دينى وزعيم سياسى فى الازهر ، مجلد ٢٩ ، ( القاهرة ) ص ٨٢٧,١٣٦ .

ـ **فى المشرق ( مجلة )** : «جمال الدين الافغانى» المجلد ١٣ ( بيروت ١٣٧٥هـ = ١٩٥٥م ) ص ٢٢٧ .

ـ **مصطفى عبدالرازق** : « السيد جمال الدين الافغانى » فى السياسة الاسبوعية ، العدد ٦٥ ( القاهرة ١٣٤٦هـ = ١٩٢٧م ) .

ـ **مصطفى محمود** : « جمال الدين الافغانى ، فى الاديب ، العدد ١٣ ، ( بيروت ١٣٧٤هـ = ١٩٥٤م ) ، ص ١٣ .

ـ **ملفات الشرق الاوسط** : « الرجل الولوع بعظائم الامور ، العزوف عن صغائرها جمال الدين الافغانى » ، تحت هذا الشعار قدمت الشرق الاوسط جريدة العرب الدولية دراسة هادفة جادة (ملفا شاملا ) لواحد من ابرز زعماء الاصلاح فى القرن ١٩ ، السيد جمال الدين الافغانى ، ومن اجل هذا الغرض جندت



● على ضفة النهر.. عاد الجبرا!

صفوة من كبار العلماء والكتاب المهتمين بتثمين دور الافغانى واثر هذا الدور على تاريخنا الاسلامى الحديث والمعاصر، وفى مقدمة هؤلاء العلماء والكتاب المعروفين الشيخ محمد الغزالى ومحمد عماره وعبدالباسط حسن وعبدالحليم عويس وسيد رزق الطويل والشيخ سيد سابق وانور الجندى وعدد أخر من الكتاب اللامعين المعروفين.. وقد استغرق الملف ١٤ حلقة، ابتداء من العدد ٣٧٦٣، (١٨، اذار مارس) ١٩٨٨م = ١٤٠٩هـ، وانتهاء بالعدد ٣٨٠٩. (٢ آيار مايو) ١٩٨٨م = ١٤٠٩هـ، وقد تخللها واعقبها بعض التعليقات والتداخلات الهامة التى اسهمت فى اغناء الموضوع واثرائه.




● هنا يرقد الشيخ

- ميرزا رافع مهدى: «الثورة الفارسية: هل كان للسيد جمال الدين الافغانى اتصال بها»؟ فى السياسة الاسبوعية، العدد ٩١ (القاهرة ١٣٤٦ هـ = ١٩٢٧م) ص ١٩.